

كتابي
١٢
الخطيئة الأولى
البرتو مورافيا
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



الخطيئة الأولى

لأديب إيطاليا المعاصر

البرتو مورافيا

ألبرتو مورافيا

• «إن رسالة الأديب هى أن يصور الحياة بمساوئها وخيراتها، وأن يحلل هذه الحياة من النواحى النفسية والفلسفية والاجتماعية ، دون أن يصدر فيها حكماً، أو يبحث عن حل لمشكلاتها، قانعا بأن يكون دوره دور المتفرج الذى يعرض ما شاهد بالدقة والأمانة ، مع وشى من مشاعره وتجاربه وخبرته ..» .

هذه هى القاعدة التى وضعها الأديب الإيطالى المعاصر «ألبرتو مورافيا» لإيضاح رسالة الأديب ، كما يراها .. وقد استطاع أن يلتزم هذه القاعدة منذ وضع أولى رواياته «المستهترون» ، وهى رواية تناول فيها حياة الفريق المترف من الطبقة الوسطى من مجتمع روما، فكان نصيبها أن صادرتها الحكومة الفاشية فى ذلك الحين!

والواقع أن «مورافيا» لاقى من الفاشية عنتاً ما بعده عنت ، إذ اعتبرت رواياته نقداً للمجتمع الذى انتعشت فيه الفاشية فى إيطاليا ، ومن ثم لم تكن قط موضع رضى لدى «وزارة الثقافة الشعبية» ، وكانت قصته مع الطغيان الفاشى قصة الكاتب الحر أو الفنان الحر الذى أبى أن يذل مواهبه لتسلط السلطة الحاكمة الفاسدة، بل أصر على أن يضيف إلى الأدب الإيطالى — فى أعقاب الحرب العالمية الأولى — ثروة جديدة ، حرة ، تجعله يساير آداب الدول الأوربية الأخرى . وقد وفق «مورافيا» إلى ذلك ، رغم كل ما لاقى .. بل إن توفيقه يمكن أن يوصف بأنه جاوز كل ما كان

يرجو ، إذ استطاع أن يسير بالأدب الإيطالى جنباً إلى جنب مع الأدبين الفرنسى والإنجليزى ، اللذين كانت كل الظروف تساعدهما على الانطلاق الحر ..

شهر عسل .. عصيب

• وعندما قضى الحلفاء على الحكم الفاشى فى روما ، كان «مورافيا» يقيم فى بلدة (فوندى) . وقد كانت لإقامته هناك قصة طريفة ، يرويها الكاتب الأمريكى «بان جرنيليس» ، الذى كان أول من قابل «مورافيا» عقب تحرير روما .. وتتلخص هذه القصة فى أن الأديب الإيطالى أحس فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ أن الفاشيين — وقد اشتدت محنتهم — تحولوا يفتكون بالأحرار ، وأنهم يوشكون أن يعتقلوه !.. وكان يومئذ حديث عهد بالزواج، فبادر وعروسه بالفرار من روما ، قاصدين إلى (نابولى) : ولكن القطار الذى استقلاه لم يستطع أن يتجاوز (فوندى) ، وهى بلدة صغيرة تهجع عند سفح الجبال . وهناك أمضى الزوجان شهر عسل لعله الأول من نوعه : إذ أقاما فى حظيرة لحيوان منخفضة السقف، قذرة الجدران، عششت العناكب فى أركانها .. وكانت الأمطار والغارات الجوية لا تنفك تقض راحتهما !

على أن هذه المحنة ، محنة العيش المحفوف بالأخطار ، المشوب بالشظف ، والعناء ، والجوع فى (فوندى) .. هذه المحنة لم تؤثر فى نشاط «مورافيا» ، فقد كتب فى أحضانها عدة قصص

قصيرة، كما أتم رواية « القناع »، والرواية التى نقدمها لك فيما يلى: « أجوستينو » – أو الخطيئة الأولى – التى تضمنت تحليلا من أروع ما كتب فى وصف الأزمات العاطفية فى حياة الفتى المراهق، الذى يقف متردداً ، حائراً ، جاهلا ، على عتبات الرجولة !

نزعته الأدبية .. وقصصه الأولى

● ومع أن روايتين من روايات « مورافيا » ترجمتا إلى الإنجليزية ونشرتا فى أمريكا قبل الحرب – وهما « المستهترون » ، و « الخاطئ الطموح » أو « عجلة الحظ » – إلا أن اسم « مورافيا » وإنتاجه لم يذع صيتهما خارج إيطاليا إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

ويبدو تأثر « مورافيا » بمذاهب الروائيين الحديثين فى فرنسا وإنجلترا واضحاً كل الوضوح فى إنتاجه ، حتى لقد دفعه هذا التأثر إلى التحرر من الأساليب التقليدية فى الأدب الإيطالى . وكان إنتاجه فى البداية قاصراً على الشعر والقصص القصيرة ، ثم شرع يحاول كتابة الروايات ، فألف روايتين كان فيهما مقلداً ومقتبساً أكثر منه مؤلفاً ومبتكراً .. بل إنه رأى من نواحى النقص فيهما ما جعله يخجل من نشرهما ، فلم يقدر لهما أن تريا النور .. ومن ثم فإن أول رواية نشرت له ، وهى « المستهترون » ، تعتبر أول إنتاجه الروائى الصحيح ، إذ شعر وهو يكتبها بأن قدميه قد ثبتتا فى الميدان ، وأنه وفق إلى الإفصاح عن بعض ما فى نفسه ، وعن ألوان مما شاهد وخبر فى الحياة ..

وقد شرع « مورافيا » فى كتابة القصة المذكورة فى سنة ١٩٢٥ ، فلم يفرغ منها إلا فى سنة ١٩٢٨ .. واستطاع أن يرسم فيها صورة دقيقة ، مفصلة ، للحياة اليومية التى كانت تعيشها أسرة من أسرات الطبقة الوسطى فى روما فى ذلك الحين .. وقد كتب فى أواخر سنة ١٩٤٥ مقالا يدفع فيه عن نفسه ما اعتاد أن يتهمه به غرماؤه من تطرف فى الاشتراكية ، وعداء للبورجوازية ، فاستشهد بروايته تلك – « المستهترون » – مدللا على أنه إنما استمد فكرتها ووقائعها من الحياة الاجتماعية التى نشأ فى رحابها ، والتى أثارت – حين اكتمل وعيه – اشمئزازه وتقززه !

يسخر من موسولينى ، فيصادر كتبه !

● وأضفت الرواية على « مورافيا » شهرة ، ازدادت ذيوعاً عندما صودرت النسخ التى كانت معروضة منها فى مكتبات إيطاليا !.. وقد أصدر بعد ذلك مجموعة قصص قصيرة ، أعقبها برواية « الخاطئ الطموح » . وكان فى الكتابين ماضياً فى رسم صور حياة الطبقة الوسطى فى إيطاليا ، وما يشيع خلالها من بواعث وضيعة ، خسيسة ، تلهم أبناءها الأنانية البشعة ..

على أن « مورافيا » اتخذ فى روايته التالية – « القناع » – منحى جديداً ، إذ رسم فيها بأسلوب لاذع ديكتاتوراً جعل مسرح حكمه فى أمريكا الجنوبية ، وحرص على أن يصور مطامعه الجشعة ، ونواحى النقص والضعف فى شخصيته ، ببراعة يعز معها على القارئ

أن يتجاهل أنه إنما كان يصف بعض صور الحياة التى كان يحياها فى إيطاليا فى عهد الحكومة الفاشية ، مما حدا بهذه الحكومة إلى أن تبادر إلى مصادرتها وإعدام نسخها !

أحسن قصة إيطالية فى عام ١٩٤٥ !

● وتعتبر « أجوستينو » – الخطيئة الأولى – من أكمل روايات « مورافيا » وأعظم أعماله الأدبية نضوجاً . وقد صدرت لأول مرة فى طبعة محدودة النسخ ، ازدانت بصور من رسم الفنان الإيطالى « ريناتو جتسو » . على أنها لم تلبث – بعد سقوط موسولينى وحكومته – أن لقيت رواجاً شجع على إصدار طبعة شعبية منها . وكان من نتائج هذا التوفيق الرائع أن حظيت بجائزة أحسن رواية نشرت فى إيطاليا فى سنة ١٩٤٥ !

ويرى بعض النقاد أن «أجوستينو» أدق رواية فى الأدب الحديث تناولت بصراحة ظواهر التطور ويقظة الرجولة فى نفس الفتى المراهق .

ويخطئ الكثيرون الذين يعتقدون أن التعرض لموضوع المراهقة كفيل بأن يتزلق بالكاتب إلى حمأة الأدب المكشوف المبتذل . فالواقع أن « مورافيا » لم يكن فى أى من روايته – وفى « أجوستينو » بوجه خاص – بالكاتب الذى يهبط إلى درجة التبذل لاسترضاء الكاتب ، وإنما هو محلل نفسى ثاقب الملاحظة ، يتعرض لعلاج موضوعات شائكة يتهرب منها كثير من الكتاب – خشية أن يتهموا بالتبذل – ونقصد بها موضوعات « الجنس » !

ومن الصحيح أنه يقف فى ذلك عند حد التصوير ، لأنه يرى أن رسالة الأديب – كما قدمت لك – هى تصوير الحياة وتحليل نواحيها النفسية والفلسفية والاجتماعية ، مع ترك مهمة علاجها لأرباب هذا العلاج ممن تخصصوا فى تلك النواحى .. هذا كله صحيح ، ولكنه لا يحرم « مورافيا » من أن يكون له حقه – بل نصيب كبير – من التقدير .. فهو كالعالم الذى يرتاد الميادين العلمية ، ليمهد السبل للمخترعين .. مثله فى ذلك مثل « أينشتين » إذ بحث موضوع تفتت الذرة وتحول المادة إلى طاقة ، ووضع المعادلات العلمية لذلك ، ثم ترك المسرح للمهندسين والكيمائيين وغيرهم كى يخترعوا القنبلة الذرية ، والأفران التى تولد الطاقة الذرية للأغراض السلمية .. الخ .

ليس هذا فحسب ، بل إن الدور الذى يقوم به « مورافيا » يتجاوز نطاق العلماء والأخصائيين ، إلى القراء العاديين أنفسهم : إنه يكشف للآباء أسرار مرحلة من أدق المراحل التى يمر بها أبناؤهم ، ويطلعهم على بواعث انحراف الأبناء فى مرحلة المراهقة ليتفادوها .. كما أنه يبين للمراهقين أنفسهم الأسباب التى تبعث فى نفوسهم الانفعالات التى تحيرهم : وغنى عن البيان أن كشف « بواعث » الانفعالات من وسائل العلاج النفسى المعترف بها !

استغرقت منه كتابتها عاماً !

● ويقول « مورافيا » إنه بدأ فى كتابة « أجوستينو » فى سنة ١٩٤٢ ، وقد قضى أكثر من عام حتى أتمها .. ثم كتب بعدها الرواية التى

اشتهرت باسم « امرأة من روما » ، والتى صور فيها حياة غانية إيطالية
فى السنوات السابقة لحرب مباشرة .

ومن حق « مورافيا » أن نختتم هذه الكلمة بما يكاد يجمع عليه كثير
من النقاد المحايدين المنصفين ، من أن مؤلفاته ستظل مورداً يمد الأدب
الإيطالى المعاصر بما كان يفتقده كل الافتقاد : أعنى بالرواية التى تحلل
الأخلاق ، والسلوك ، والطباع .. والنفس !

« فتاة من الأقاليم »

• أما القصة الثانية لمورافيا التى تطالعها فى هذا الكتاب ، فهى قصة
« فتاة من الأقاليم » التى كتبها عام ١٩٣٧ .

والفرق بين فتاة القرية ، وفتاة المدينة من مدن الأقاليم ، أوضح
من أن يحتاج إلى بيان .

وقصة « فتاة من الأقاليم » من نوع آخر مغاير لقصة « أجوستينو »
من كل وجه : فبينما هذه تعتمد على التحليل النفسى أولا وأخيراً ، إذا
بتلك تعتمد على الحركة والحوادث المتلاحقة .. فبطلتها فتاة ذات حيوية
وطموح ، تضيق آمالها بالحياة الراكدة الرتيبة التى تفرضها عليها حياتها
فى إحدى مدن الأقاليم .. وتتمرد أحلامها على قيود الفقر والبيئة المتواضعة
التى نشأت وعاشت فيها ، فتحلم بالثراء ، والزواج من شاب مترف ،
والانتقال إلى العاصمة ، و .. و .. إلى آخر قائمة أحلامها !

فإلى أين تقودها هذه الآمال والأحلام ؟

هل تطير بها إلى سماء الخيال ، فتنعم بما طالما تاقت إليه ؟ أم تهوى
بها من حالق ، إلى قاع الحقيقة ، فتسقط مهشمة العظام، محطمة النفس ؟

الفصل الأول

• اعتاد (أجوستينو) وأمه ، فى تلك الأيام المبكرة من الصيف ،
أن يخرجا معاً كل صباح ، فى قارب صغير .. وكانت الأم قد
استأجرت فى المرات القلائل الأولى نوتياً يجذف بهما ، ولكن
المجذافين لم يلبثا أن عهد بهما إلى (أجوستينو) ، منذ أظهر بجلاء
استياءه لوجود الرجل معهما . وكان التجذيف فى البحر الهادئ
الشفاف ، فى البكور ، يبعث فى نفسه متعة ، بينما كانت أمه تجلس
مواجهة له ، فى إشراق البحر والسماء وبهائهما، وتأخذ فى الحديث
إليه بصوت ناعم ، وكأنه رجل ، لا مجرد غلام فى الثالثة عشرة
من عمره !

كانت أم (أجوستينو) امرأة طويلة ، جميلة ، ما تزال فى
عنفوان شبابها ، فكان (أجوستينو) يحس بالزهو كلما انطلق معها
فى إحدى النزهات الصباحية ، إذ يشعر بأن جميع المستحمين على
الشاطئ يرقبونهما ، فيعجبون بأمه ، ويغبطونه ! .. وكان وقع
صوته فى أذنيه يبدو — لفرط يقينه من أن جميع الأعين مركزة
عليهما — أقوى مما هو عادة . وكان يخال لكل حركة من حركاته
معنى رمزياً ، كأنها حركات مرسومة فى مسرحية ، وكأن أمه
تقف على خشبة مسرح — لا على الشاطئ — وتتعرض للنظرات
المتلهفة من مئات النظارة !

وكان يحدث أحياناً أن تظهر أمه فى ثوب جديد ، فلا يملك أن يقاوم الرغبة فى أن يبدى رأيه فى الثوب بصوت مرتفع ، وفى نفسه أمل خفى فى أن يسمعه الآخرون ! .. كما كانت أمه تبعث به من آن إلى آخر إلى كوخ الشاطىء – (الكابين) – ليأتيها بشىء ما ، وتقف بجانب القارب فى انتظاره ، فكان يطيعها فى فرح خفى ، ويسعده لو استطاع أن يعوق انطلاقهما فى البحر ولو لبضع دقائق ! .. ثم لا يلبثان أن يستقلا القارب فى النهاية ، فيستولى (أجوستينو) على المجدافين ، ويجذف متجهاً إلى عرض البحر ، ولكنه يظل طويلا تحت تأثير الانفعال المنبعث من غروره البنوى .. غرور الابن المزهو بأمه !.. فإذا ما أصبحا على مبعدة من الشاطىء ، سألته أن يكف عن التجذيف ، لترتدى قلنسوة من المطاط تأهباً للسباحة ، وتخلع نعليها الخفيفين ، وتنساب إلى الماء .. ويتبعها (أجوستينو) فيظلان يسبحان حول القارب الخالى ، ومجدافيه العائمين على سطح الماء ، وهما يتكلمان فى مرح ، فيرن صوتاهما صافيين فى فضاء البحر الصامت ، الهادىء ، المنبسط تحت أشعة الشمس . وقد تشير أمه أحياناً إلى قطعة من الفلين تتأرجح فوق الماء على مسافة منهما ، وتتحداه أن يسبقها إليها ، وتتركه يتقدمها ببضعة أمتار ، ثم يندفعان سابحين بأسرع مايستطيعان نحو الفلين .. أو قد يتباريان فى الغوص قافزين من فوق حافة القارب ، ناثرين الماء الساكن ، الشاحب اللون ، وهما يغوصان !..

ويتأمل (أجوستينو) جسد أمه وهو يندفع متعمقاً تحت الماء ، وسط فيض من الفقاقيع الخضراء ، ولا يلبث فجأة أن يغطس وراءها ، تواقاً إلى أن يتبعها أينما ذهبت .. ولو إلى قاع البحر !.. وكان يخيل إليه وهو يلقى بنفسه فى اللدوامة التى أحدثتها أمه ، أن الماء البارد ، الغزير ، خليق بأن يظل محتفظاً بأثر مروق جسدها الحبيب خلاله !

وكانا إذا ما فرغا من الاستحمام ، يصعدان إلى القارب ثانية ، فتقول أمه وهى تحدق فى صفحة البحر الهادىء الوضاء : « ما أجمله ! .. أليس كذلك ؟ » .. ولم يكن (أجوستينو) يحير جواباً ، إذ كان يحس بأن استمتاعه بجمال البحر والسماء ، يرجع فى الواقع – وقبل كل شىء – إلى ذلك الإحساس العميق الذى يوحيه إليه الارتباط بأمه .. بل لقد كان يسائل نفسه أحياناً ، ما الذى كان يبقى من كل هذا البهاء لو لم توجد تلك الألفة بينه وبين أمه ؟ !

ويظلان فى القارب ، فى عرض البحر ، أمداً طويلا ، يجففان جسديهما تحت أشعة الشمس ، التى تأخذ فى الاشتداد عند الظهيرة .. وإذ ذاك لا تلبث أمه أن تروح فى إغفاءة ، وهى مستلقية على الجزء المنبسط بين جانبى القارب ، وشعرها مسترسل فى الماء ، وعيناها مغمضتان ، بينما يظل (أجوستينو) قائماً على

حراستها من مجلسه فى القارب ، وقد ثبت بصره عليها ، وكاد
يحبس أنفاسه إشفاقاً من أن يقض نعاسها ! .. ثم لا تلبث أن تفتح
عينيها وتبدى إعجابها بالمتعة الطريفة التى يستشعرها المرء إذ يستلقى
على ظهره ويغمض عينيه ، ويحس بالبحر ينساب متأرجحاً تحته ..
أو تسأل (أجوستينو) أن يناولها علبة سجايرها .. أو تسأله ما هو
أبدع من ذلك : تسأله أن يشعل سيجارة ويقدمها إليها !

.. وكان هو يؤدى كل تلك الأمور فى عناية ، وفى تحمس
يثير ارتعاشاً فى جوارحه ! .. وبينما تنصرف أمه إلى التدخين ،
كان (أجوستينو) ينحنى إلى الأمام مولياً ظهره إليها ، وقد أمال
رأسه جانباً ليستطيع أن يتأمل سحب الدخان الأزرق التى تنم عن
الوضع الذى أراحت أمه رأسها عليه ، تاركة شعرها ينتشر حولها
على صفحة الماء .. ثم تطلب إلى (أجوستينو) — فى لهجة التى لم
تقنع بما نالت من الشمس — أن يجذف ، على أن لا يلتفت نحوها ،
بينما تخلع حمالة الصدر — (السوتيان) — وتنضو عنها (المايوه)
لتعرض جسدها بأكمله لحرارة الشمس . ويمضى (أجوستينو)
فى التجذيف ، مغتبطاً بما أوصته به من عدم الالتفات نحوها ،
وكأن فى ذلك إشراكاً له فى بعض الفرائض أو الطقوس ! .. ولم
يكن يقتصر فى تنفيذ رغبتها على كبح نفسه عن مجرد الحلم بأن
يلتفت ، بل إنه كان يحس بأن جسدها العــارى المستلقى خلفه

— جد قريب منه — فى غمرة الشمس ، كان يلتف فى هالة من
غموض يثير فى نفسه أعظم آيات التوقير والتقديس !

* * *

● وذات صباح ، كانت أمه تجلس تحت المظلة الكبيرة كعادتها ،
وهو مستلق على الرمل بجوارها ، فى انتظـــار موعـــد نزهتهما
اليومية فى القارب ، وإذا بشبح طويل يحجب عن (أجوستينو)
الشمس فجأة ، فرفع بصره ليرى شاباً ، لوحته الشمس بسمرة
قاتمة ، يصافح أمه . ولم يبد كثير اهتمام به ، ظناً منه أنه أحد
معارف أمه العابرين .. بل إنه تراجع إلى الوراء قليلا ، ريثما
يفرغان من الحديث . على أن الشاب لم يتقبل الدعوة إلى الجلوس ،
وإنما أشار إلى القارب الأبيض الذى جاء فيه ، ودعا الأم إلى أن
تصحبه فى نزهة فى البحر : وكان (أجوستينو) واثقاً من أن أمه
سترفض هذه الدعوة ، كما رفضت دعوات كثيرة مماثلة من
قبل ، ولكن كم كانت دهشته بالغة حين رآها تقبلها للتو ،
وتبادر فى الحال إلى جمع حاجياتها — نعليها الخفيفين ، وقلنسوة
السباحة ، وكيس نقودها — ثم تنهض عن مقعدها ! .. أجل ،
تقبلت الأم دعوة الشاب بنفس الطواعية والود البرئ اللذين
كانت تبديهما لابنها ! وبنفس البساطة التفتت إلى (أجوستينو)
— الذى ظل جالساً فى الانتظار ، منكس الرأس ، يعبث بالرمل —

ونصحته بأن يحظى بحمام شمس ، لأنها منطلقة فى نزهة قصيرة فى القارب ، ولن تلبث أن تعود بعد قليل !

وكان الشاب فى تلك الأثناء قد انطلق نحو القارب ، وكأنه واثق من أمره ، فتبعته المرأة منقادة ، فى مشيتها العادية الهادئة ، التى تضفى عليها جلالا . . ولم يتمالك ابنها — وهو يراقبهما — أن يحدث نفسه بأن الشاب يحس ولابد بعين الزهو والانفعال اللذين يستشعرهما هو كلما خرج فى القارب مع أمه !.. فراح يتأملها وهى تخطو إلى القارب ، والشاب يميل فى جلسته به إلى الوراء ، ويستند بقدميه إلى قاعه المكسو بالرمال ، ثم يعمل مجذافيه فيخرج بالقارب بعد بضع ضربات قوية ، من المياه الضحلة القريبة من الشاطىء ..

ومضى الشاب يجذف ، والأم جالسة فى مواجهته ، وقد تشبثت يداها بالمقعد ، ولاح أنها كانت مندمجة معه فى الحديث . وأخذ القارب يزداد ضآلة ، حتى أصبح فى نطاق الوهج المتألق الذى ينعكس عن مصافحة أشعة الشمس لسطح الماء .. ثم أوغل فيه :

واستلقى (أجوستينو) — وقد ترك وحيداً — على المقعد القماشى الذى كانت تشغله أمه ، وثنى إحدى ذراعيه خلف رأسه ، وراح يحملق فى السماء ، كما لو كان مستغرقاً فى التفكير ،

غير مكترث لشىء مما كان يحيط به .. فلقد شعر أن كل رواد الشاطىء لابد قد رأوه وهو يخرج مع أمه إلى عرض البحر كل يوم ، ومن ثم فلن يفوتهم اليوم أن يلاحظوا أن أمه قد تركته اليوم ورافقت الشاب صاحب القارب ! وحمله هذا على أن يعقد العزم على أن لا يبدى أية بادرة تنم عن الاستياء والخيبة اللذين أفعما نفسه مرارة .. غير أنه أحس — رغم ما بذله من جهد ليصطنع الطمأنينة — أن كل امرىء كان يلمس ما فى مظهره من اصطناع وزيف ! .. ولم يكن يؤلمه أن أمه آثرت صحبة ذلك الشاب ، بقدر ما آلمه ذلك السرور وتلك المبادرة اللذين تقبلت بهما أمه الدعوة ، كما لو كانت ترجوها وترتقبها ! .. لكأنها كانت قد قررت من قبل أن لا تفلت أية فرصة ، فما أن عرضت لها واحدة ، حتى تقبلتها دون ما تردد ! .. أو لعلها كانت تشعر فى الواقع بالسأم فى كل تلك المرات التى كانت تخرج فيها وحيدة معه فى القارب ، فلم ترافقه فيها إلا لأنها لم تكن تجد خيراً منه !

وانبعث فى ذهنه خاطر ضاعف من شعوره بالذلة .. تذكر أمراً حدث فى حفلة راقصة صحبته أمه إليها : فقد كانت معهما قريبة وافقت على أن تراقصه مرة أو اثنتين — رغم أنه لم يكن إذ ذاك سوى صبى يرتدى (بنطلوناً) قصيراً — إذ يئست من أن يسألها أحد غيره أن تراقصه .. على أنها كانت ترقص فى تخاذل ، وقد بدا عليها الاكتئاب والضيق .. ومع أن (أجوستينو) كان

ورآها من مجلسه تحت المظلة الكبيرة وهى تخطو إلى الشاطئ ، فتصافح الشاب مودعة ..

منصرفاً إلى ملاحظة خطواته ، إلا انه كان يشعر طيلة الوقت بما كان يداخلها من استصغار لشأنه ، وعدم احتفال به !.. ومع ذلك ، فقد سألها أن تراقصه مرة ثالثة ، وشد ما أدهشه أن رآها تبتسم فجأة وتقفز عن مقعدها ، ثم تسوى أطراف ثوبها بيديها .. ولكنها بدلا من أن تندفع إلى ذراعيه ، أولته ظهرها وابتعدت عنه ساعية إلى شاب كان قد أشار إليها من وراء (أجوستينو) !.. ولم يستغرق الحادث سوى خمس ثوان ، ولم ينتبه إليه أحد سوى (أجوستينو) نفسه ، ومع ذلك فقد أحس منه بمذلة طاغية .. وقد وقر فى نفسه أن الجميع شهدوا كيف عومل فى ازدراء !

... ووجد نفسه الآن — بعد أن انطلقت أمه مع الشاب — يقارن بين الحادثين ، فيراهما متشابهين .. لقد كانت أمه — كتلك القريبة — تنتظر فرصة تنبذه بعدها ، فقبلت — كما فعلت قريبته ، وفى مثل المبادرة المتلهفة — أول دعوة سنحت لها !.. وكان حظه فى المرتين أن يهوى من حالق المكانة التى رفع نفسه إليها فى خياله ، ليتردى فى الحضيض مهشماً ، مثخناً بالجراح !

* * *

● ومكثت أمه فى نزهتها فى ذلك اليوم زهاء ساعتين : ورآها من مجلسه تحت المظلة الكبيرة وهى تخطو إلى الشاطىء ، فتصافح الشاب مودعة ، ثم تسير فى تؤدة نحو (الكابين) ، وقد أحنت

رأسها قليلا لتحمى عينيها من حرارة شمس الظهيرة . وكان الشاطىء إذ ذاك قد أقفر من رواده ، الأمر الذى صادف ارتياحاً من نفس (أجوستينو) ، وهو الذى كان يوقن دائماً أن كل الأعين ترمقه وأمه !

وسألته أمه عرضاً : « ماذا تراك فعلت ؟ » .

فشرع يقول : « نعمت بتسلية جد ممتعة » .. وأخذ ينسج لها قصة مصطنعة ، وصف فيها كيف انصرف هو الآخر إلى السباحة مع أولاد من (الكابين) المجاور . غير أن أمه لم تصغ ، بل انصرفت إلى ارتداء ثيابها فى عجلة !

واعتزم (أجوستينو) أن يبادر ، إذا ما رأى القارب الأبيض يظهر فى اليوم التالى ، إلى ابتداع حجة للانصراف ، حتى لايعانى هوان البقاء منبوذاً مرة أخرى !.. على أنه لم يكد يتأهب للرحيل بعيداً عن أمه فى اليوم التالى ، حتى سمع صوتها يدعوه .. وقالت وهى تنهمك فى جمع متاعها : « تعال معى .. سنذهب لنستحم فى البحر » . . فتبعها (أجوستينو) وقد ظن أنها ستصرف الشاب لتذهب معه وحده .. وكان الشاب ينتظرهما فى القارب ، فحيته أمه ثم قالت فى بساطة : « لقد أحضرت ابنى أيضاً » .. وهكذا رأى (أجوستينو) نفسه – وهو كاره – يجلس إلى جوار أمه فى مواجهة الشاب .. الذى راح يجذف !

وكان (أجوستينو) قد اعتاد أن يرى أمه دائماً فى ضوء معين :

هادئة ، محتشمة ، فى وقار : لذلك بهت فى هذه المرة إذ رأى التغير الذى اعتراها ، والذى لم يقتصر على طريقتها فى الكلام فحسب ، بل بدا إنه شمل نفسها ، حتى صار يتعذر عليه أن يرى فيها المرأة التى ألفها من قبل ! .. ولم يكونوا قد أوغلوا إلى عرض البحر ، حين أبدت بعض ملاحظات شخصية لاذعة ، لم يفقه (أجوستينو) معناها ، ولكنها كانت بداية لحديث خاص ، غريب ، أقصى ما أدركه الفتى منه أنه كان يدور حول صديقة للشاب أعرضت عن كل محاولاته ، وآثرت عليه غريماً له ! .. غير أن هذه القصة لم تلبث أن أفضت إلى الموضوع الحقيقى للحديث الذى راح يجرى فى تلميح ومراوغة حيناً ، وفى تحديد ودقة حيناً آخر ، مثيراً للغيظ آناً ، ومنطوياً على تلطف وتدليل آناً آخر ! .. وبدت أمه أكثر الاثنين تحرشاً وتحاملا ، بينما التزم الشاب الهدوء فى الرد ، واللهجة الساخرة ، كما لو كان واثقاً من نفسه ! . . وكانت الأم تلوح فى بعض الأحيان مستاءة ، بل غاضبة محنقة ، فكان (أجوستينو) يطرب لذلك .. ولكنها كانت لا تلبث بعد ذلك أن تغيظه ، إذ تبدر منها عبارة مجاملة للشاب ، تبدد نشوته !.. وفى أحيان أخرى كانت تمضى تصب على الشاب سيلا من تأنيب غامض ، فى صوت شاك متألم ، ولكن (أجوستينو) كان يرى وجه الشاب يشرق بوميض من غرور أخرق ، بدلا من أن يبدو عليه الألم !.. فكان يستنتج من ذلك أن التأنيب

لم يكن سوى ستار يخفى مرامى عاطفية عجز عن سبر غورها !

أما فيما يتعلق به ، فقد بدا أن أمه والشاب معاً لم يكونا يشعران بوجوده ، وكأنه لم يكن فى رفقتهما ! .. بل إن أمه تمادت فى تجاهل وجوده فراحت تذكر الشاب بأن خروجها وحيدة معه فى اليوم السابق كان خطأ منها لا تنوى أن ترتكبه مرة أخرى ، وإنما سوف تحضر ابنها معها دائماً فى المستقبل ! .. وأحس (أجوستينو) من قولها بإهانة واضحة ، كأنه كان جسماً بلا إرادة .. مجرد شىء تتخلص منه ، كلما رأت ذلك ، بوحى من نزواتها !

... مرة واحدة فطنت أمه إلى وجوده ، حين أفلت الشاب المجذافين من يده لحظة ، ومال إلى الأمام وعلى سيماه إمارات خبث عارم ، وتمتم بصوت خفيض قولا لم يتبينه (أجوستينو) .. فأجفلت أمه ، وصاحت مشيرة نحو (أجوستينو) – الذى كان يجلس إلى جوارها – متظاهرة بأنها جد مأخوذة : « فلنشفق على هذا الساذج .. على الأقل » ! .. واهتز (أجوستينو) حنقاً إذ سمع وصفه بـ (الساذج) ، كما لو كان قد قذف بقطعة مهلهلة قذرة من قماش لم يستطع أن يتفاداها !

وإذ ابتعدوا بالقارب مسافة عن الشاطىء ، اقترح الشاب على المرأة أن يهبطا إلى الماء . وبهت (أجوستينو) للحركات غير المألوفة التى أخذت أمه تضفيها على تصرفاتها .. فقد طالما أعجب بالبساطة والسهولة اللتين كانت تنزلق بهما إلى الماء .. أما فى هذه

المرة ، فإن الشاب غطس تحت الماء ، ثم برز ثانية على السطح ، وهى ما تزال تقف على حافة القارب مترددة ، تغمس من قدمها إصبعاً بعد آخر فى الماء ، وقد وضح أنها كانت تصطنع الخجل أو الاستحياء ! .. بل إنها لم تلبث أن أثارت مزيداً من الضجة والجلبة بصدد النزول إلى الماء ، إذ أخذت تضحك ، وتحتج ، وتتشبث بمقعد القارب بيديها معاً ، حتى تدلت فى النهاية من جانب القارب بطريقة كادت تخلو من الاحتشام ، ثم تركت نفسها تهوى إلى ذراعى صاحبها فى حيلة غير متقنة !

وغاصا معاً ، ثم عادا إلى السطح سوياً .. ورأى (أجوستينو) – وهو منكمش على مقعده فى القارب – وجه أمه مشرقاً بالابتسام ، على مقربة من وجه الشاب الأسمر الجامد ، وخيل إليه أن خديهما تماسا . وكان يرى جسديهما فى الماء الرقراق الشفاف ، وأردافهما وسيقانهما تتلامس ، وقد بدا عليهما أنهما يتوقان إلى أن يتعانقا ! .. وأخذ (أجوستينو) يتأملهما فى البداية ، ثم أشاح عنهما وتطلع إلى الشاطىء البعيد وقد أحس باستحياء ، لكونه عقبة فى طريقهما ! .. وإذ لمحت أمه وجهه العابس ، وهى تتأهب للغوص مرة ثانية ، نادته صائحة : « لم تبدو فى هذا العبوس ؟.. ألا ترى جمال الطبيعة هنا ؟.. يا لله ! .. ما أكثر تعقل هذا الابن الذى أنجبته ! » .. فملأت هذه الملاحظة نفس (أجوستينو) بالخجل والصغار ، ولم يحر جواباً ، بل ولى وجهه صوب ناحية أخرى ..

● وطال بالسابحين البقاء فى الماء ، فقد راحت أمه ورفيقها يلهوان كحيوانين مائيين ، وكأنهما نسيا (أجوستينو) تماماً ! .. وأخيراً ، عادا إلى القارب ، فصعد إليه الشاب فى قفزة واحدة ، ثم مال على حافته ليساعد زميلته التى كانت تناديه كى يعاونها على مغادرة الماء .. ورأى (أجوستينو) — وهو يرقب المنظر — كيف أن الشاب أمسك جسدها الأسمر بأصابعه ، وهو يرفعها ، فى الموضع الذى تنفرج عنده الذراع عن الإبط . ثم جلست بجانب (أجوستينو) لاهثة ، ضاحكة ، وأبعدت بأظافرها المدببة ثوب الاستحمام عن جلدها ، حتى لا يضغط على ثدييها . وتذكر (أجوستينو) أن أمه كانت فى العادة تجد من القوة ما يمكنها من أن تصعد إلى القارب بدون مساعدة أحد ، عندما كانا يخرجان وحدهما .. فعزا طلبها العون ، وحركات جسدها الطارئة التى خالها تجتذب الانتباه إلى رقة الأنوثة وضعفها ، إلى الروح الجديدة التى بعثت كل هذا التغير الممجوج فيها ! .. ولم يتمالك الغلام أن تذكر أن أمه — التى كانت بطبيعتها طويلة القامة ، مهيبة الشكل — كانت فى الواقع تكره حجم جسمها ، إذ تراه عيباً تود لو تتخلص منه .. كما كانت تعتبر وقار مسلكها عادة متعبة ، حاولت أن تستبدل بها شيئاً من نزق الفتيات الطائشات !

وما أن استقر السابحان فى القارب ، حتى بدأت رحلة العودة ؛ وأسلم المجذافان فى هذه المرة إلى (أجوستينو) ، بينما جلس

الآخران على المعارضة التى تصل بين جانبى الزورق .. فأخذ الغلام يجذف متئداً تحت الشمس الحامية ، وهو يعجب طيلة الوقت من الضحكات والحركات التى كان يشعر بها خلف ظهره ، ويتساءل عن معناها ؟ ! .. وكانت أمه تمد إحدى ذراعيها بين آن وآخر — وكأنها كانت تفطن بغتة إلى وجوده — فتربت على مؤخر عنقه ، أو تدغدغ إبطه ، وتسأله عما إذا كان قد شعر بالتعب ، فكان يجيبها بالنفى .. وفى إحدى المرات سمع الشاب يقول ضاحكاً : « إن التجذيف مفيد له » ، فدفع مجذافه فى الماء بغيظ !

وكانت أمه وقتئذ تجلس مسندة رأسها إلى مقعده ، باسطة ساقيها الطويلتين أمامها — أو هكذا كان يحسبها — لكنه ما لبث أن أحس أنها لم تعد باقية على هذا الوضع . وفى إحدى المرات التى شعر فيها أنها غيرت وضعها ، خيل إليه أن ثمة حركة شديدة خلفه ، وندت من أمه صرخة مكتومة — كما لو كانت تختنق ! — ومال القارب على أحد جانبيه .. واحتك خد (أجوستينو) لحظة بجسم أمه ، فبدا له كأن هذا الجسد ينبض بحياة لا قبل لها بالسيطرة عليها .. فإنها كانت قد نهضت واقفة ، مباعدة ما بين ساقيها ، متشبثة بكتفى ابنها ، وهى تقول للشاب : « لن أجلس حتى تعد بأن تحسن سلوكك ! » .. فأجابها هذا فى جد شابته سخرية : « أعدك » .. وإذ ذاك هبطت جالسة فى تردد ، فاحتك جسدها بخد ابنها ، فعلقت ببشرته رطوبة جسمها خلال ثوب السباحة

المبتل .. غير أن حرارة ذلك الجسد بدت أعظم من رطوبته ! . . ومع أن (أجوستينو) أحس بشعور مؤلم من عدم الارتياح ، بل من الاشمئزاز ، إلا أنه أصر على أن لا يجفف خده من آثار تلك الرطوبة !

وإذ اقتربوا من الشاطىء ، قفز الشاب بخفة إلى مقعد التجذيف ، وأمسك بالمجذافين ، دافعاً (أجوستينو) عن مجلسه إلى المكان الذى تركه هو بجوار أمه .. فبادرت هذه تطوق الغلام بذراعها ، وسألته عن شعوره ، وعما إذا كان سعيداً ؟ ! .. وكانت من ناحيتها تبدو فى غاية الغبطة ، حتى أنها ما لبثت أن شرعت تغنى . . وكان هذا تصرفاً آخر غير مألوف منها ! . . وكان لها صوت عذب ، بث فيه الآن بعض نبرات حزينة أثارت رعدة فى كيان (أجوستينو) ! .. وظلت وهى تغنى تضمه إليها ، وتبلله بالماء الذى كان ثوب السباحة ينضح به ، والذى بدا — رغم ذلك — وكأنه يعكس دفئاً ينبعث من جسد حيوان ثائر !

وعلى هذا الوضع بلغوا الشاطىء : الشاب يجذف ، والمرأة تغنى وتسبغ مظاهر الحنان على ابنها .. والابن قد استسلم لها ، وفى نفسه شعور من النفور والسقم ، إذ أدرك أنها تصطنع منظراً زائفاً .. لا لشىء إلا لأنها تحب أن تبدو به أمام الناس !

* * *

• وفى اليوم التالى أقبل الشاب مرة أخرى ، فأصرت أم (أجوستينو) على أن يصحبهما ابنها فى هذه المرة أيضاً .. وتكررت مناظر اليوم السابق !.. ثم انقضت أيام لم يظهر فيها الشاب ، وما لبث أن أقبل مرة أخرى فخرجوا معاً للرياضة .. وأخيراً صار الشاب يفد كل يوم ليصطحب المرأة ، وقد لاح أن الود قد توثق بينهما !.. وكان (أجوستينو) يضطر إلى مرافقتهما فى كل مرة ، وسماع حديثهما ، ومشاهدتهما وهما يسبحان .. حتى كره هذه النزهات ، وانتهى به الأمر إلى أن شرع يبتكر ألف علة وحجة ليتخلف عنها !.. فكان يختفى ، ولا يظهر إلا بعد أن تناديه أمه مراراً ، وتبحث عنه فى كل مكان إلى أن توفق فى النهاية إلى كشف مكانه .. وعندئذ كان يصحبها كارهاً ، لا استجابة لرجائها وإلحافها ، وإنما لأن استياءها وكدرها من عدم ذهابه كانا يثيران إشفاقه !.. وكان يلزم الصمت التام فى القارب ، أملا منه فى أن يدركا ضيقه ، فيتركاه وشأنه .. لكنه تبين فى النهاية أنه أضعف وأكثر تأثراً بالإشفاق واستجابة له من أمه والشاب ، اللذين كان يكفيهما أن يكون معهما فى القارب ، وحسب .. أما أحاسيسه ، فسرعان ما تبين أنهما لم يكونا يحسبان لها حساباً !

وهكذا استمرت النزهات فى القارب ، رغم كل محاولاته للفرار منها !

الفصل الثانى

● كان (أجوستينو) يجلس ذات يوم على الرمال ، خلف مقعد الشاطىء القماشى الذى شغلته أمه ، يتطلع إلى عرض البحر مرتقباً ظهور الزورق الأبيض، ومتوقعاً أن تلوح أمه محيية الشاب، منادية إياه كعادتها .. بيد أن الساعة التى اعتاد القارب أن يفد فيها فاتت ولما يظهر . وبدا من استياء أمه وعبوس محياها أنها فقدت كل أمل فى مجيئه ! .. ولطالما ساءل (أجوستينو) نفسه عما قد يكون عليه شعوره فى مثل هذه الحالة ، فكان ينتهى دائماً إلى أن اغتباطه عندئذ سيبلغ من الشدة مبلغاً يعادل ما يبلغه استياء أمه، على الأقل .. ولكنه دهش فى ذلك اليوم ، إذ أحس بدلا من الاغتباط باستياء مبهم ، وتبين لفوره أن الصغار والنفور اللذين كانا يداخلانه كل يوم بسبب تلك النزهات ، أصبحا فى الفترة الأخيرة من لوازم الحياة بالنسبة له !.. ومن ثم ساءل أمه ، عما إذا كانا لا يعتزمان الخروج فى نزهتهما البحرية المعتادة فى القارب .. وكانت تحدوه إلى هذا التساؤل رغبة خفية ، غامضة ، فى أن يثير فى نفس أمه الألم !.. وأجابته بأنها لا تدرى ، وإن كانت ترجح أنهما لن يخرجا فى ذاك اليوم . وظلت جالسة فى مقعدها ، وفى حجرها كتاب مفتوح لم تكن تقرأ فيه، إذ كان بصرها يهيم باستمرار فى عرض البحر وكأنه

ينشد هدفاً معيناً بين أسراب القوارب وأفواج المستحمين الذين زخر بهم البحر ..

وبعد أن ظل(أجوستينو) وقتاً طويلا خلف مقعد أمه ، يرسم على الرمل بإصبعه أشكالا ، استدار فجأة حتى غدا أمامها ، وقال فى لهجة أحس بأنها كانت مثيرة ، إن لم تكن ساخرة : « أماه .. أتعنين أننا لن نخرج فى القارب اليوم ؟ » .

ولعل أمه أحست بالسخرية فى صوته ، وبالرغبة التى ساورته فى إيلامها .. أو لعل كلماته الرعناء كانت كافية لأن تفجر الغيظ الذى طال بها كبحه ، فرفعت يدها فى حركة غير إرادية، وهوت بها على خده فى صفعة سريعة ، لم تكن فى حقيقتها موجعة ، لأن الندم داخلها قبل أن تصل راحتها إلى وجنته !.. ولم ينبس (أجوستينو) ببنت شفة ، بل قفز من مجلسه عن الرمال ، وابتعد وقد نكس رأسه ، متجهاً إلى (الكابين) وسمع أمه تناديه باسمه عدة مرات : « أجوستينو !.. أجوستينو !.. » .. ثم كفت عن النداء . وخيل إليه — إذ التفت خلفه — أنه رأى بين أسراب الزوارق ، القارب الأبيض الذى يملكه الشاب .. بيد أنه لم يعد يعبأ بذلك . كان كشخص عثر على كنز فأسرع يخبئه إلى أن تسنح له الفرصة كى يفحصه فى خلوة .. هكذا كان الشعور الذى خامره وهو يفر ليتوارى بالجرح الذى أصاب كرامته ، والذى بدا له شيئاً جديداً لم يكد يصدق حدوثه !

كانت وجنته ملتهبة ، وعيناه مغرورقتين بدموع لم يقو على
قمعها .. فلما خشى أن تنفجر شهقاته قبل أن يلوذ بكوخ على الشاطئ ،
ضاعف من سرعته فى العدو . وفاضت فى نفسه المرارة المتراكمة
من الأيام السابقة التى كان يصحب فيها أمه والشاب على الرغم منه ،
فتولاه شعور بأنه إذا أسلم نفسه للبكاء ، فضفض من أساه ، ووجد
عوناً على أن يفهم ما لتلك الأحداث الغريبة من معان ! .. وبدا له
أن أبسط مسلك يستطيع أن يلجأ إليه ، هو أن يحبس نفسه فى
(الكابين) ، إذ كان من المحتمل أن تكون أمه قد انطلقت فى
القارب ، ومن ثم لن يكون هناك من يعكر عليه خلوته . وارتقى
سلم (الكابين) على عجل ، وفتح الباب وتركه موارباً ، ثم ولج
وجلس على مقعد منخفض فى أحد الأركان ..

* * *

● وانكمش فى جلسته ، وقد رفع ركبتيه إلى صدره ، وأسند
رأسه إلى الجدار ، واحتوى وجهه بيده ، وأخذ يبكى بحرقة .
كانت الصفعة التى تلقاها لا تنفك تتمثل له ، فأخذ يسائل نفسه :
« لماذا كانت يد أمه رقيقة ، مترددة ، مع ما فى عملها من قسوة ؟! .. »
وامتزج بشعور الهوان الذى أثارته الصفعة فى نفسه ، ألف شعور
آخر أقسى مضاضة .. ألف شعور جرحت أحاسيسه طيلة تلك
الأيام الأخيرة .. على أن واحداً من هذه المشاعر ظل يراود ذهنه
ملحاً ، هو ذلك الشعور الذى ساوره إذ احتك بصدغه جسد أمه

فى ثوب السباحة المبتل ، وهو يرتجف نابضاً بحيوية طاغية . وكما
تتطاير سحب الغبار من الثوب إذا نفض ، أثارت فيه تلك الصفعة
– بين ما أثارت من آلام فى ذهنه المحير – ذلك الشعور بجسد أمه وهو
يلاصق خده ! .. بل إن هذا الإحساس صار يحتل فى بعض الأحيان
محل الصفعة .. وفى أحيان أخرى كان الشعوران يمتزجان ، حتى
ليحس بحرارة جسدها ولهيب الصفعة معاً ! .. وبينما بدا له أن من
الطبيعى أن يظل خده متوهجاً ، وكأن به ناراً شرعت تخبو ، فإنه عجز
عن أن يفهم سر إلحاح ذلك الإحساس الآخر القديم ، عليه ! .. لماذا كان
هذا الإحساس الذى أثاره احتكاك جسد أمه بخده ، هو الوحيد بين
كثير من الأحاسيس الأخرى ، الذى يعاوده فى إصرار ؟ .. ولئن
كان قد عجز عن تفسير الأمر ، إلا أنه خال أن ليس عايه – مهما
يطول به الأجل – سوى أن يعود بذاكرته إلى تلك اللحظة من حياته ،
كى يحس على خده من جديد بحرارة بدن أمه ، والرطوبة العالقة
بصوف ثوب السباحة الخشن !!

ومضى يبكى فى هدوء – وكأنه يخشى أن يزعج استرسال
ذكرياته الأليمة – ويمسح بأطراف أصابعه عن بشرته الندية ،
الدموع التى راحت تتساقط من عينيه فى بطء ، ولكن دون
انقطاع . وكان (الكابين) معتماً ، خانق الجو .. وفجأة ، خامره
شعور بأن ثمة من يفتح الباب ، فساوره أمل فى أن تكون أمه قد
ندمت على ما فعلت ، وتمنى أن تضع يدها فى حنان على كتفه وأن

تدير وجهه نحوها .. بل إن شفتيه تحركتا توشكان أن تنفرجا عن كلمة (أماه)، لولا أن سمع القادم يخطو إلى داخل (الكابين) ، ويجذب الباب خلفه .. ثم لم تمتد يد تمس كتفه ، أو تربت على رأسه !

وما لبث أن رفع رأسه وحدق أمامه ، فإذا به يرى لدى الباب الموارب صبياً فى مثل سنه تقريباً ، يقف بهيئة من يرتقب فى حذر . وكان يرتدى (بنطلوناً) قصيراً ، ثنى طرفه إلى أعلى ، وقميصاً مفتوحاً كأقمصة الملاحين ، تخلل ظهره ثقب كبير . ومن خلال ثغرة فى سقف (الكابين) انساب شعاع من ضوء الشمس، فسقط على خصلات من شعر نحاسى اللون ، تكاثف حول عنق الغلام . أما قدماه فقد كانتا حافيتين ، وبينما أمسك الباب بيديه موارباً ، راح يحدق فى حذر وانتباه فى شىء ما على الشاطىء الرملى ، وقد لاح كأنه لم يفطن إلى وجود (أجوستينو) .

وجفف (أجوستينو) عينيه بظهر يده ، وهتف : « ها .. ماذا تبغى ؟ » ، فالتفت الصبى ، وأشار إليه بيده أن لا يتكلم ! .. وكان له وجه قبيح ، انتثر فيه (النمش) .. ولكن أبرز ما كان يستلفت الانتباه ، عيناه الزرقاوان ، الحادتان ، السريعتا الحركة.. وخيل إلى (أجوستينو) أنه رأى الصبى من قبل ، فلعله ابن أحد صيادى السمك ، أو ابن أحد المستحمين .. أو لعله رآه يدفع

القوارب ، أو يؤدى عملا فى المنطقة التى تضم (كابينات) الشاطىء ..

وقال الغلام بعد لحظة وهو يلتفت إلى (أجوستينو) :

— إننا نلعب « عسكر وحرامية » ! .. ولا ينبغى أن يرونى.

فسأله (أجوستينو) وهو يجفف عينيه فى عجلة :

— ومن أى الفريقين أنت ؟

فأجاب الآخر دون أن يلتفت إليه: « من الحرامية .. بالطبع »

وظل (أجوستينو) يتأمل الغلام ، وهو لا يملك أن يقرر ما إذا كان قد شعر بميل إليه .. بيد أن شيئاً من الخشونة فى صوت الغلام استماله وأثار فضوله .. كما خطر له ، بوحى من غريزته ، أن اختباء الغلام فى الكابين ، وفى تلك اللحظة بالذات ، كان فرصة .. فرصة لم يكن بوسعه أن يفسر كنهها ، ولكنه رأى أن لا يفلتها بأية حال من الأحوال . لذلك عاد يسأله : « هل تقبلون أن ألعب معكم ؟ » .

فاستدار إليه الغلام ، وحدجه بنظرة سليطة ، ثم قال فى عجلة :

« وكيف نشركك ؟ .. إننا أصحاب نلعب معاً » .

فقال (أجوستينو) فى إصرار غير متورع : « حسناً .. دعونى ألعب أنا الآخر » .

فهز الغلام كتفيه وقال : « اقتراحك جاء متأخراً .. فقد أوشكنا أن نفرغ من اللعب » .

— إذن ، أشركونى فى اللعبة التالية !

وتطلع إليه الغلام فى ارتياب ، وهو مأخوذ بإصراره ، ثم قال : «لن تكون ثمة لعبة تالية ، فسننطلق بعد ذلك إلى غابات الصنوبر» .

— سأذهب معكم ، إذا سمحتم لى ..

وبدا العجب على الغلام ، وشرع يضحك بطريقة تنطوى على شىء من القحة والإهانة .. وقال : «إنك غلام ظريف .. أجل .. ولكنا لا نريدك» .

ولم يكن لأجوستينو قبل بمثل هذا الموقف . بيد أن الإلهام الغريزى الذى جعله يسأل الغلام منذ لحظات أن يشركه فى اللعب ، أوحى إليه الآن بحجة قد تقنع الآخر ، فقال فى تردد : «اسمع .. إذا .. إذا أشركتنى فى عصبتك فـ .. فسأعطيك شيئاً» .

فالتفت الآخر لفوره والجشع يطل من عينيه ، وتساءل : «ما الذى ستعطينه ؟» .

أى شىء تطلبه ..

وأشار (أجوستينو) إلى نموذج لمركب شراعى ، مجهز بكل قلاعه ، كان على أرض الكابين بين كومة من اللعب الأخرى ، وقال : «سأعطيك هذا» .

فأجاب الغلام وهو يهز كتفيه : «وما جدواه لى ؟» .

قال (أجوستينو) مقترحاً : «تستطيع أن تبيعه» ؟

فقال الغلام فى لهجة العارف : «لن يقبلوا شراءه .. سيقولون إنه مسروق» .

فأجال (أجوستينو) بصره فيما حوله ، فى حيرة . كانت ثياب أمه معلقة على المشاجب ، وحذاءاها على الأرض .. وكان ثمة منديل ووشاح للرقبة أو اثنان على المنضدة .. لم يكن فى الكابين كله ما يبدو مناسباً لكى يقدمه .. وإذ رأى الغلام حيرته ، قال : نبئنى .. هل عندك سجاير ؟» .

وتذكر (أجوستينو) أن أمه أودعت الحقيبة الكبيرة المعلقة على المشجب ، فى ذلك الصباح بالذات ، علبتين من نوع جيد جداً من السجاير ، فبادر مجيباً وفى صوته رنة الفوز : «أجل ، لدى .. هل تريد بعضاً منها ؟» .

فقال الآخر فى سخرية وعتاب : «لا أظن !.. ما أغباك !.. هاتها .. أسرع !» .

وأنزل (أجوستينو) الحقيبة من فوق المشجب ، ومد يده فى جوفها باحثاً ، ثم أخرج العلبتين .. وبسط يده بهما إلى الغلام ، فى هيئة الذى لا يدرى كم يريد الآخر .. فقال هذا فى بساطة ، وهو يتناول العلبتين : «سآخذ الإثنتين !» .. وإذ ألقى نظرة على غلافيهما ، طقطق بلسانه فى سرور ، وقال : «أواه !.. إنك ولا بد غنى .. هه ؟» .

ولم يدر (أجوستينو) بماذا يجيب .. بينما استطرد الغلام يقول : « إننى أدعى (برتو) .. فما اسمك ؟ » .

وأنبأه (أجوستينو) باسمه ، بيد أن الآخر كان قد كف عن الانتباه إليه ، إذ مضت أصابعه المتلهفة تفض إحدى العلبتين ، ممزقة الورق الذى كان يلفها.. ثم تناول سيجارة وضعها بين شفتيه، وتناول من جيبه عوداً من الثقاب حكه بجدار الكابين وأشعل به السيجارة . وبعد أن اجتذب ملء فمه من الدخان، ونفثه من أنفه، عاد إلى موقفه الأول ، يرقب فى حذر، مرسلا بصره خلال الشق الذى كان ينفرج عنه مصراعا الباب ..

وبعد لحظة أشار إلى (أجوستينو) أن يتبعه ، قائلا : « هيا بنا .. تعال ! » .. وغادروا الكابين ، واحد إثر الآخر ، حتى إذا بلغا رمال الشاطىء ، انطلق (برتو) لفوره إلى الطريق الممتد خلف كابينات المستحمين ..

* * *

● وإذ راحا يسيران على الرمل الملتهب، بين الحسك والأشواك، قال الغلام : « سنذهب الآن إلى الكهف .. لقد سبقونى إليه .. وإنهم ليبحثون عنى هناك ! » .

فسأله أجوستينو : « أين الكهف ؟ » .

أجاب الغلام : « عند بلاج (فزبوتشى) » .. وكان يمسك سيجارته بين إصبعيه متباهياً — وكان يعرضها للأنظار — ويجتذب

منها أنفاساً كثيفة من الدخان فى تبجح .. ثم سأل رفيقه : « ألا تدخن ؟ » ، فأجاب (أجوستينو) : « إننى لا ألقى للتدخين بالا » — وكأنما أخجله أن يعترف بأنه لم يكن يدخن ، بل لم يحلم يوماً بالتدخين !

وضحك (برتو) قائلا : « لم لا تقول بصراحة إن أمك لا تسمح لك بالتدخين ؟.. قل الحق ؟ » — وكانت لهجته منطوية على احتقار يفوق ما ينبغى بين صديقين ! — ثم قدم إلى (أجوستينو) سيجارة ، وهو يقول : « هيا .. دخن أنت أيضاً » .

وكانا قد بلغا حافة البحر ، وأخذا يسيران حافيين على الحصى الخشن بين أحواض الزهور الجافة .. ورفع (أجوستينو) السيجارة إلى شفتيه ، وجذب منها بضعة أنفاس ، دون أن يسمح لغير قليل من الدخان بأن يدخل فمه ، ثم بادر إلى نفثه فى الحال دون أن يبتلعه .: فضحك (برتو) فى استهزاء وصاح : « أو تسمى هذا تدخيناً ؟ ما هكذا يكون .. انظر ..! » .. وتناول السيجارة ، فاجتذب منها الدخان فى عمق ، وعيناه الرواغتان تجولان فى محجريهما ، ثم فغر فاه على سعته ، وقربه من عينى (أجوستينو) .. فلم ير هذا فى فمه شيئاً سوى لسانه وقد التوى عند حلقه : وقال (برتو) وهو يقفل فمه ثانية : « تأمل الآن ! » .. ثم نفث فى وجه (أجوستينو) سحابة من الدخان ، فسعل (أجوستينو) وأخذ

يضحك فى الوقت ذاته فى انفعال .. بينما استطرد برتو : « والآن .. جاء دورك » .

ومر بهما « ترام » يرسل صفيراً ، وستائر نوافذه ترفرف مع النسيم .. واجتذب (أجوستينو) ملء فمه من الدخان ، فابتلعه بعناء كبير ، ولكنه لم يحسن إرساله ، فتولته نوبة قاسية من السعال .. وإذ ذاك أخذ (برتو) السيجارة منه ، ثم ضربه بشدة على ظهره براحة يده ، قائلا : « برافو ! .. ليس من شك فى أنك ستغدو مدخناً » !

وسارا بعد هذه التجربة صامتين ، فاجتازا سلسلة من (البلاجات) طليت كابيناتها بألوان بهيجة ، وتناثرت فى كل نواحيها المظلات المخططة الواسعة ، وأقواس النصر التى لا معنى لها .. وكان الفضاء الممتد بين الكابينات على الشاطىء يزخر بالرواد الذين جاءوا يستمتعون بعطلاتهم ، كما ازدحم البحر المتألق المياه – تحت أشعة الشمس – بالسابحين .. وتساءل (أجوستينو) الذى كان مضطراً إلى أن يغذ السير ليلحق بصديقه الجديد: « أين بلاج (فزبوتشى) ؟ » .

– إنه آخر (البلاجات) جميعاً ..

وبدأ (أجوستينو) يفكر فى أنه يحسن به أن يكر عائداً ، فإن أمه ولا بد تبحث عنه الآن ، إذا لم تكن قد ذهبت مع صديقها :

بيد أن ذكرى تلك الصفعة هدأت من وساوسه .. وخيل إليه أنه ، بذهابه مع (برتو) ، كان ينفذ انتقاماً غامضاً له ما يبرره !

وفجأة ، توقف (برتو) ليسأله : « ما رأيك فى إخراج الدخان من أنفك ؟ . . هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ » .. وهز (أجوستينو) رأسه بالنفى ، فأمسك رفيقه بعقب سيجارته بين شفتيه ، واجتذب نفساً من الدخان ، ثم أطلقه خلال خياشيمه ، واستطرد : « والآن ، سأطلق الدخان خلال عينى .. على أنك يجب أن تضع يدك على صدرى وأن تحدق فى عينى » .. فاقترب (أجوستينو) فى سذاجة تامة ، ووضع يده على صدر (برتو) ، وأخذ يحملق فى عينيه مرتقباً رؤية الدخان وهو ينساب منهما . لكن (برتو) ضغط – فى حركة غادرة – السيجارة المشتعلة على ظهر يد (أجوستينو) فى قوة ، ثم طوح بالعقب بعيداً ، وقفز طروباً وهو يصيح : « واهاً لك أيها الغبى الأبله .. إنك لا تعرف شيئاً على الإطلاق ! » .. وأعمى الألم (أجوستينو) ، وكان أول ما تبادر إليه أن يلقى بنفسه على (برتو) ويضربه . وكأنما أدرك (برتو) ما كان موشكاً أن يحدث ، فصمد فى موقفه ، وأطبق قبضتيه ، ثم وجه إلى بطن (أجوستينو) لكمتين قويتين ، فكاد هذا يعجز عن التنفس .. بينما أردف (برتو) فى انفعال : « لست ممن يقنعون بالكلام .. فإذا فعلت ما يستحق الضرب فلن أتورع عن ضربك » .



وأمسك (برتو) فى هذه المرة برأسه فدست تحت ذراعه حتى كاد يخنقه ..

واندفع (أجوستينو) نحوه مرة أخرى فى سورة من الغضب ، ولكنه أحس بأنه جد ضعيف ، وأيقن من الهزيمة .. وأمسك (برتو) فى هذه المرة برأسه فدسه تحت ذراعه حتى كاد يخنقه .. ولم يقو (أجوستينو) على المقاومة ، فأخذ يتوسل إليه فى صوت مكتوم أن يطلقه .. وأطلقه (برتو) أخيراً ، ثم قفز إلى الخلف ، وثبت قدميه فى الأرض متحفزاً للصراع .. غير أن (أجوستينو) الذى كان قد سمع قرقعة عروق رقبته ، أذهله ما أوتى الغلام من قوة وحشية خارقة .. ولم يكد يصدق أن يلتى فجأة – هو (أجوستينو) الذى طالما أبدى الرفق نحو كل امرئ – مثل هذه المعاملة الوحشية ، والقسوة المتعمدة !.. كان أهم شعور انتابه هو الدهشة لمثل هذه القسوة ، فقد أذهلته .. ولكنها فى الوقت ذاته فتنته بما فيها من طرافة لم يعهدها ، ولأنها فى حد ذاتها كانت عارمة .. وقال لاهثاً ، متلعثماً : « إننى لم أوذك فى شىء .. بل أعطيتك تلك السجاير .. فإذا بك .. » وعجز عن أن يتم العبارة ، إذ اغرورقت عيناه بالدموع .. فقال (برتو) فى جفاء : « آه .. أأنت ممن يبكون ؟ .. أتريد أن أرد إليك سجايرك ؟ » لست أريدها .. خذها وعد إلى أمك ! » .

فقال (أجوستينو) وهو يهز رأسه فى اكتئاب : « لا داع .. إنما ذكرت أمر السجاير عفواً .. أرجو أن تستبقيها ! » .

فقال (برتو) : « إذن ، هيا بنا :: لقد أوشكنا على غايتنا » .

* * *

● وكان الحرق الذى أصاب يد (أجوستينو) يسبب له ألماً مبرحاً ، فرفعه إلى فمه ، وهو يتلفت حـوله .. كان ذلك الجزء من الشاطىء لا يشتمل على غير بضعة كابينات جد قليلة ، لا تكاد تزيد على الخمسة أو الستة ، تناثرت على مسافات متباعدة .. وكانت كابينات حقيرة ، صنعت من الخشب الرخيص .. وكان الشاطىء والبحر ساعتئذ خاليين من الناس ، اللهم إلا بضع نساء أوين إلى ظل قارب جذب إلى البر ليكون بمأمن من المد .. وكان بعضهن واقفات ، والبعض مستلقيات على الرمال ، وقد ارتدين جميعاً ثياباً للسباحة قديمة الطـراز ، ذات سيقان طويلة وشيت حوافها بأشرطة بيضاء مجدولة .. وقد شغلن بتجفيف أجسادهن ، وتعريض أطرافهن البيضاء للشمس . وكانت ثمة لوحة زرقاء تحمل عبـارة (حمام أمريكو فيزبوتشى) .. وكابين صغير أخضر ، منخفض السقف ، هبط عن مستوى الشاطىء غائصاً فى الرمال . وكان من الجلى أن الكابين ملك لحارس (البلاج) فى ذلك الجزء المقفر من الشاطىء الذى كان يمتـد بعد (حمام فيزبوتشى) إلى أقصى مرامى البصر ، دون أن تتخلله أية كابينات أو دور .. فضاء مقفر ، لا تكسوه سوى رمال تذروها الرياح ، بين زرقة البحر المتألقة ، وخضرة أشجار الصنوبر المغبرة ..

وكان أحد جوانب الكابين يستتر بأكمله وراء كثبان الرمال التى كانت فى تلك البقعة أكثر ارتفاعاً منها فى البقاع الأخرى .. فإذا بلغت أعلى هذه الكثبان ، رأيت خيمة مضروبة ، من قماش ذى لون محمر كلون الصـدأ الحائل ، وكأنه اقتطـع من شراع قـديم . وكانت هذه الخيمة مشدودة من أحد أطرافها إلى وتدين غيبا فى الرمل ، ومن طرف آخر مشدودة إلى الكابين ..

وقال (برتو) : « ها هو ذا كهفنا ! » .

وكان ثمة رجل يجلس تحت الخيمة إلى منضدة عرجاء ، منهمكاً فى إشعال سيجارة ، وقد استلقى حوله على الرمال ولدان أو ثلاثة .. واندفع (برتو) فى قفزة عالية فهبط عند قدمى الرجل ، بينما تقدم (أجوستينو) فى حرج واستحياء ، فقال (برتو) مشيراً نحوه : « ها هو ذا بيزا » .. ودهش إذ سمع نفسه يلقب — هكذا سريعاً — باسم كهـذا ، إذ لم تكن قد انقضت بعد خمس دقائق مذ أنبأ (برتو) بأنه ولد فى (بيزا) !

واستلقى (أجوستينو) على الأرض إلى جـوار الآخرين .. فإذا الرمال فى تلك البقعة ليست فى نظافة تلك التى على (البلاج) ، إذ اختلطت بها شظايا من قشور جوز الهند ومن الخشب ، وقطع من الفخار ، وكافة أنواع النفايات .. وكانت كلها قد تجمعت فى لطخ متيبسة هنا وهناك ، بتأثير ما كان يلقى عليها من الكابين من ماء قذر .. ولاحظ (أجوستينو) أن الصبية — وكانوا أربعة —

يرتدون ثياباً بالية .. كان من الجلى أنهم مثل (برتو) ، أبناء ملاحين أو أبناء نفر من عمال الشاطئ ..

وهتف (برتو) ولما يتمالك بعد أنفاسه : « لقد كان فى (سبيرانزا) ، ويقول إنه يريد أن يلعب (عسكر وحرامية) هو الآخر ، ولكن اللعبة انتهت .. أليس كذلك ؟ .. لقد قلت لك إن اللعبة انتهت » .

وفى تلك اللحظة انبعثت صيحة تكرر : « هذا غش !.. هذا غش ! » .. والتفت (أجوستينو) ، فإذا عصبة أخرى من الصبية تجرى مقبلة من ناحية الشاطئ ، فحدس أن أفرادها هم الذين يقومون بدور الشرطة .. وأقبل فى المقدمة فتى قصير القامة ، ممتلئ الجسم ، عريض المنكبين ، فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقد ارتدى ثوباً من أثواب السباحة .. وتلاه – لدهشة (أجوستينو) – غلام زنجى ! .. أما الثالث فكان صبياً أشقر ، أدرك (أجوستينو) من شكله وجمال جسمه أنه أفضل نشأة من الآخرين .. بيد أنه حين اقترب ، ظهر ثوب السباحة الذى كان يرتديه مليئاً بالثقوب ، كما كانت تشوب وجهه المليح ذا العينين الزرقاوين الجميلتين ، مسحة من خشونة ، مما نم عن أنه ينتمى إلى طبقة الآخرين .. ثم تبع هؤلاء الثلاثة أربعة آخرون ، تراوحت أعمارهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة .. وكان الفتى الكبير الضخم ، أكبر سناً من الآخرين بكثير ، حتى لقد بدا من الغريب

– فى البداية – أن يخالط مثل هؤلاء الصبية . بيد أن وجهه المنتفخ الذى كان يشبه فى لونه رغيفاً لم يكتمل نضجه ، وقسماته الضخمة الخالية من أى تعبير ، والموحية بغباء فطرى ، كانت كافية لأن تفسر ملازمته لهؤلاء الصغار .. وكانت رقبته لا تكاد تبين لفرط قصرها ، وجذعه الناعم ، الخالى من الشعر ، يناهز كتفيه فى العرض ..

وعلى حين غرة صرخ هذا الفتى فى (برتو) : « لقد اختبأت فى كابين !.. أنكر إذا كانت لديك جرأة .. إن الكابينات لا تدخل فى نطاق مخابئنا وفقاً لقواعد اللعب » .

فأجاب (برتو) فى مثل فورته : « هذا كذب .. أليس كذلك يا بيزا ؟ » .. وأضاف وهو يلتفت إلى (أجوستينو) ، متسائلا فى إنكار : « هل كنت مختبئاً فى كابين ؟.. لقد كنا نقف معاً بجوار كابين فى (سبيرانزا) ورأيناك تمر بنا .. أليس كذلك يا بيزا ؟ » .

ولم يقو (أجوستينو) على الكذب ، فقال : « إنك لتعرف أنك كنت مختبئاً فى كابينى » .. فصرخ الثالث وهو يهز قبضة يده تحت أنف (برتو) : « أرأيت ؟ .. لسوف أحطم رأسك أيها الكاذب ! » .

وصرخ (برتو) فى وجه (أجوستينو) : « ألم أقل لك أيها الواشى أن تمكث حيث كنت ؟.. عد إلى (ماما) ، فذاك هو

المكان الخليق بك ! » .. وتملكه غيظ جامح .. هيـاج وحشى أدهش (أجوستينو) وأذهله ! .. بيد أن الحركة التى كان يهدده بها ، أدت إلى وقوع إحـدى علبتى السجاير من جيبه ، فانحنى ليلتقطها ، ولكن الفتى الثالث كان أسرع منه — رغم بدانته — فانحنى منقضاً على العلبة ، ولوح بها فى الهواء وهو يصيح فى فرحة الفوز : « سجاير !.. سجاير ! » .

وصرخ (برتو) وهو ينقض عليه : « ردها .. إنها ملكى .. لقد أعطانيها (بيزا) وعليك أن تردها ! » .

فتراجع الآخر خطوة ، وتريث حتى صـار (برتو) فى متناوله ، ثم وضع علبة السجاير بين أسنانه ، وشرع يوجه لكمات محكمة إلى بطن (برتو) بقبضتيه .. وانتهى بأن ركل قدميه ، فألقاه أرضاً ، فى عنف ! .. وظل (برتو) يصيح وهو يتقلب على الرمال : « ردها إلى ! » .. ولكن الفتى أطلق ضحكة معتوهة ، وصاح : « إن معه غيرها .. عليه يا أولاد ! » .. فإذا بالغلمان جميعاً ينقضون على (برتو) فى إجمـاع أدهش (أجوستينو) .. وانقضت لحظة لم يكن يبدو منهم خلالهـا سوى كتلة من أجساد تتقلب عند قـدمى الرجل المتقدم فى السن ، وقد اشتبك بعضها ببعض ، ولفتها سحابة من الرمال الثائرة .. والرجل مستمر فى التدخين عند المائدة ، فى هدوء !

وأخيراً ، تخلص الصبى الأشقر — الذى تبين أنه كان أخفهم حركة — من كومة اللحم المتشابكة ، ونهض ملوحاً بعلبة السجاير الثانية فى انتصار .. وإذ ذاك نهض الآخرون تباعاً . وكان (برتو) آخرهم جميعاً ، وقد اكفهر وجهه الصغير ، القبيح ، الذى شوهه النمش ، ثم صرخ وهو يهز قبضته باكياً : « يا لكم من خنازير !.. لصوص ! » .

وخالج (أجوستينو) شعور غريب ، وطريف ، إذ رأى أن الذى كان يعذبه أضحى بدوره معـذباً ، ولاقى من المعاملة الجاحدة ما لاقى هو من قبـل !.. وعاد (برتو) يصرخ : « خنازير ! .. خنازير ! » .. فتقدم الفتى الكبير منه ، وهبط بقبضته على أذنه فى لكمة عنيفة ، جعلت زملاءه يرقصون طرباً .. وقال : « هل تبغى مزيداً ؟ » .. فاندفع (برتو) كالمجنون إلى ركن الكابين ، وانحنى فأمسك بيديه حجراً ضخماً وطوح به نحو غريمه ، الذى أرسل صفيراً أعرب به عن تحفزه وهو يقفز متفادياً الحجر .. وعاد (برتو) يعوى : « أيهـا الخنزير ! » .. وكان يبكى غيظاً ، ولكنه تراجع متعقلا ، ولاذ بركن من المـكان ، وقد انبعثت شهقاته عالية ، عنيفة ، كما لو كانت تفضفض بعض مرارة فظيعة ملأت نفسه ! .. بيد أن زملاءه كانوا قد كفوا عن الاهتمام به ، وعادوا إلى الاستلقاء على الرمال . وعندئذ فتح الفتى الكبير أحد صندوقى السجاير ، وفتح الصبى الأشقر الصندوق

الآخر . وفجأة قال الرجل ، الذى كان قد استمر جالساً إلى المنضدة لايتحرك أثناء العراك : « ناولانى هذين الصندوقين ! » .

وتطلع (أجوستينو) إليه .. كان طويلا ، بديناً ، فى نحو الخمسين من عمره .. له وجه هادئ الملامح ، يخدع الرائى إذ يوحى بالطيبة ! .. وكان أصلع ، ذا جبهة بارزة غريبة ، كأنها السرج ، وعينين براقتين ، وأنف أحمر معقوف ذى منخارين واسعين ، مفعمين بعروق قرمزية تستبشع النظر إليها .. كما كان له شاربان متدليان ، يستران فماً معوجاً ، وسيجاراً بين شفتيه .. وكان يرتدى قميصاً حائل اللون ، وسروالا — (بنطلوناً) — من القطن الأزرق ، تصل إحدى ساقيه إلى ملتقى الساق بالقدم ، فى حين ثنيت الأخرى إلى ما تحت الركبة ؛ والتف حول بطنه حزام أسود من القماش .. وكانت ثمة ظاهرة غريبة زادت من التقزز الذى شعر به (أجوستينو) نحوه فى البداية .. تلك هى أن (سارو) — وكان هذا اسمه — أوتى ست أصابع فى كل من يديه بدلا من خمس .. وكان هذا يظهره ضخماً ، ويظهر أصابعه كزوائد مبتورة ! .. ولم يستطع (أجوستينو) أن يحول عينيه عن تينك اليدين ، إذ عجز عن أن يبت فيما إذا كانت الأصبع الزائدة تكراراً لأولى الأصابع أو أوسطها أو آخرها ، فقد كانت جميعاً تبدو متساوية فى الطول ، فيما عدا الإصبع الصغيرة التى تدلت من راحته كغصن صغير فى أسفل جذع شجرة وارفة !.. وتناول

(سارو) السيجار من فمه ، وكرر فى بساطة : « ما أمر هذه السجاير ؟ » :

ونهض الصبى الأشقر فوضع العلبة على المنضدة ، فقال (سارو) : « أحسنت صنعاً يا ساندرو » .. وإذ ذاك صاح الفتى الكبير متحدياً : « وهب أننى لم أعطك علبتى ؟ » .

فصاحت بضعة أصوات فى آن واحد : « انزل عنها يا تورتيا ، فهذا خير لك » .. وأجال (تورتيا) بصره حوله ، ثم نظر إلى (سارو) الذى حدجه بنظرة خلال عينيه الضيقتين نصف المغمضتين ، وأصابع يده اليمنى الست على علبة السجاير .. وإذ ذاك تقدم الفتى فوضع العلبة على المنضدة قائلا : « ليكن .. ولكن هذا ظلم ! » .

فقال (سارو) فى صوت ناعم ، رقيق : « والآن ، سأقسم السجاير » .. وبدون أن يحرك السيجار من فمه ، أجال بصره فى الأولاد ، وفتح إحدى العلبتين ، وتناول سيجارة بأصابعه المبتورة التى بدت كما لو كانت عاجزة عن الإمساك بها ، ثم رماها إلى الزنجى قائلا : « إليك يا هومز ! » .. ثم تناول أخرى وألقى بها إلى واحد من الآخرين .. وثالثة طوح بها إلى (ساندرو) الذى ضم أصابعه ليتلقاها .. ورابعة سددها مباشرة إلى وجه (تورتيا) الجامد .. ومضى يوزع السجاير على الباقين .. وسأل (برتو) الذى كان يكتم شهقاته ، بعد أن انضم فى صمت إلى الآخرين : « أتريد

واحــدة ؟ » .. فهز الصبى رأسه فى ذلة ، وإذ ذاك ألقيت إليه
سيجــارة . وإذ هم (سارو) بأن يغلق العلبة التى كانت ما تزال
ممتلئة حتى نصفها ، توقف وقال لأجوستينو : « وأنت يا بيزا ؟ » ..
وود (أجوستينو) أن يرفض ، لولا أن لكزه (برتو) فى ضلوعه
وهمس : « اطلب واحدة أيها الغبى ، كى ندخنها معاً فيما بعد ! » ..
ومن ثم قال (أجوستينو) إنه راغب فى سيجــارة ، فنال بدوره
واحدة .. ثم أقفل (سارو) العلبة ، فصــاح الأولاد جميعاً :
« والباقى ؟ .. والباقى ؟ » .

وأجاب (سارو) فى هدوء : « ستأخذون الباقى فى يوم آخر ..
خذ يا (بيزا) السجاير ، واذهب فضعها فى الكابين » .. وتقبل
الغلمان قراره بصمت تام ، بينما أخذ (أجوستينو) العلبتين وهو
بادى الانفعال ، وتخطى الأجساد المستلقية على الأرض ، وسار إلى
الكابين . وكان الكابين مؤلفاً من حجرة واحدة ، راق له صغرها
– إذ بدت كبيوت القصص الخرافية – وكان لها سقف منخفض
مصنوع من ألواح كسيت بطلاء من الجير الأبيض ، أما الجدران
فكانت من ألواح غير مصقولة . وكانت ثمة نافذتان صغيرتان ،
يتسرب خلالها نور لطيف .. نافذتان كاملتا الحواف ، ذاتا ألواح
زجاجية مربعة صغيرة ، وأكرتين ، وستارين .. بل كان ثمة وعاء
أو اثنان للزهور .. وكان السرير يشغل أحــد الأركان ، وقد نسق
بعناية ، وعليه وسادة ذات كساء نظيف ، ولحاف أحمر .. وفى

ركن آخر ، كانت ثمة منضدة مستديرة وثلاثة مقاعد صغيرة
منخفضة .. وعلى الرخام الذى علا خزانة كبيرة للثياب ، كانت
ثمة زجاجتان من تلك الزجاجات التى تضم فى جوفها نماذج لمراكب
شراعية أو بخارية .. وكانت ثمة أشرعة معلقة إلى مشاجب على جميع
الجدران ، وزوج من المجاذيف ، وبعض لوازم البحر . وشعر
(أجوستينو) بأنه يتمنى لو يمتلك كوخاً بديعاً ، نظيفاً ، مريحاً ،
كهذا . وسار إلى المنضدة التى كان يعلوها وعاء كبير ، مصدوع ،
من الصينى ، امتلأ بأعقاب سجاير لم تدخن إلى نهايتها .. فوضع
العلبتين ، وخرج ثانية إلى ضوء الشمس ..

* * *

● وكان جميع الأولاد منبطحين على وجوههم على الرمال حول
(ساندرو) الذى كان يدخن فى نشوة ظاهرة .. وكانوا وهم فى
ذلك الوضع يتناقشون فى أمر لاح أنهم لم يتفقوا بشأنه ، إذ كان
(ساندرو) فى تلك اللحظة يقول : « أؤكد لكم أنه .. هو » .

فقال آخر بصوت مفعم بالإعجاب : « إن أمه جميلة حقاً ..
إنها أبدع امرأة على الشاطىء ! لقد تسللت و (هومز) يوماً تحت
كابينها لنراها وهى تخلع ثيابها ، ولكن قميصها وقع على الثغرة التى
كنا ننظر خلالها ، فلم نستطع أن نرى شيئاً .. يا لساقيها ! ..
ويا لثدييها ! » .

فقال صوت ثالث : « ما أظن أحداً رأى معها زوجاً ! » .

– لا تحمل هماً ، فهى تعرف كيف تعزى نفسها .. أتدرى مع من ؟ .. مع ذلك الشاب الذى يقيم فى (فيلا سوريسو) .. الشاب الأسمر .. إنه يصطحبها إلى عرض البحر فى قاربه ، كل يوم !

وقال آخر فى خبث : « إنه ليس الوحيد .. فهى لا تتورع عن مصاحبة أى إنسان » .

وهتف آخر فى إصرار : « ولكنى أعلم أن الغلام ليس .. » .

وفجأة ، قال (ساندرو) : « قل لنا يا بيزا .. أليست أمك تلك السيدة التى فى (سبيرانزا) ؟ .. إنها فارعة ، سمراء ، طويلة الساقين ، ترتدى ثوب سباحة مخطط من قطعتين .. ولها شامة على الجانب الأيسر لفمها » .

فتساءل (أجوستينو) فى قلق : « بلى .. لماذا ؟ » .

فصاح (برتو) فى انتصار : « هى .. هى » .. ثم استطرد فى نوبة من الغيرة والازدراء : « وأنت هناك ستار لها .. ألست كذلك ؟ .. إنكم تتنزهون معاً .. هى ، وأنت ، وعشيقها .. إنك الستار الذى يتواريان خلفه .. ألست كذلك ؟ » .. وقهقه الجميع لهذه الكلمات .. حتى (سارو) بدت على فمه ابتسامة ، خلال شاربيه .. فقال (أجوستينو) وقد تضرج وجهه ، وفهم بعض ما قصد الصبى : « لست أدرى ما الذى ترمى إليه ؟ » .

وود أن يحتج ، لولا أن نكاتهم الوقحة أثارت فى نفسه شعوراً غريباً ، غير متوقع ، من الرضى القائم على القسوة ! .. وكأنما ثار

له أولئك الغلمان بتلك الكلمات – دون أن يدروا – مما ألحقته به أمه من هوان وصغار ، فى كل تلك الأيام الماضية ! .. على أنه فى الوقت ذاته بهت جزعاً ، لإدراكهم كل هذا القدر من شئونه الخاصة !

وعاد صاحب الصوت المتخابث يقول : « يا للحمل البرئ الصغير ! » .. وتبعه (تورتيا) فى جد ساخر : « بودى لو أعرف ما يفعلان ، فهما يوغلان دائماً فى البحر .. ألا قل لنا يا (بيزا) ماذا يفعلان .. هل هو يقبلها ؟ .. تكلم ! » .

وألصق ظهر يده بشفتيه ، وطبع قبلة ذات صوت مرتفع .. فقال (أجوستينو) ووجهه يلتهب خجلا : « صحيح إننا نذهب بعيداً عن الشاطىء للاستحمام .. » .

فانبعثت عندئذ أصوات تقول معاً فى سخرية لاذعة : آه .. صحيح .. للاستحمام ! » .

– إن أمى تسبح فى البحر .. وكذلك (رينزو) ..

فقال (تورتيا) مصدقاً على قوله ، وكأنما عثر على خيط كان تائهاً فى ذاكرته : « آه .. أجل .. (رينزو) .. هذا اسمه .. (رينزو) ، الشاب الأسمر الطويل » .. ثم عاد (برتو) يتساءل فجأة : « وماذا يفعل رينزو و (ماما) معاً ؟ .. أهكذا يفعلان ؟ » .. وأشار بيده إشارة ذات معنى ، واستطرد : « وتقنع أنت بالنظر ؟ » .. فهتف (أجوستينو) وهو يجيل البصر حوله فى ذعر : « أنا ؟ » .

وعندئذ انفجروا جميعاً ضاحكين ، وتقلبوا على الرمل فى ابتهاج ومرح : ولكن (سارو) ظل يتأمل الغلام فى اهتمام دون أن يبدى حراكاً : وتلفت (أجوستينو) حوله فى حيرة ، كمن ينشد العون !.. وكأنما تأثر (سارو) لنظرته ، فأخرج سيجارة من فمه ، وقال : « ألا ترون أنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق ؟ » .

وعندئذ انقطع الضجيج فى الحال ، وتساءل (تورتيما) وقد عز عليه أن يفهم ماكان يقصده سارو : « كيف تقول إنه لا يعرف ؟ » :

فكرر (سارو) فى بساطة : « لايعرف .. » .. ثم التفت إلى (أجوستينو) وقال وقد ألان من صوته : « قل لى يا بيزا : ماذا يفعل الرجل والمرأة إذا اجتمعا ؟ :: ألا تدرى ؟ » .

وأمسكوا جميعاً أنفاسهم وأرهفوا أسماعهم .. بينما حملق (أجوستينو) فى (سارو) الذى ظل يدخن ويراقبه خلال أجفانه نصف المطبقة ، ثم التفت مجيلا بصره فى الغلمان ، فإذا هم جميعاً يكظمون الضحك .. فردد فى لهجة آلية ، وقد خيل إليه أن غمامة ترين على بصره : « رجل .. وامرأة ؟ » .

فأجابه (برتو) فى قحة ليزيده إيضاحاً : « أجل .. أمك ورينزو ؟ ! » .

وهم (أجوستينو) بأن يقول : « لا تتكلم عن أمى ! » .. ولكن السؤال أيقظ فى نفسه سرباً من المشاعر والذكريات ، فارتبك وعز

عليه أن يحير قولا ، وإذ ذاك قال (سارو) يحسم الأمر ، وهو يحول سيجاره من أحد ركنى فمه إلى الركن الآخر : « إنه لا يعرف .. من منكم أيها الأولاد ينبئه ؟ » :

وتلفت (أجوستينو) حوله حائراً :: كما لو كان فى مدرسة .. ولكن ، ما أغرب المدرس ! وما أعجب زملاء الدراسة !.. وتصايح الأولاد جميعاً فى وقت واحد : « أنا .. أنا .. أنا ! » .. وطاف بصر (سارو) ، متردداً ، بتلك الوجوه المتحرقة لهفة وتنافساً على الكلام ، ثم قال : « ما أراكم أنتم بدوركم تدرون .. إن ما تعرفونه ليس غير أقاويل .. فدعوا من يعرف ، حق المعرفة ، يخبره » :

ورآهم (أجوستينو) يتبادلون النظرات فى صمت ، ثم صاح أحدهم يرشح من يصلح فى رأيه لهذه المهمة : (تورتيما ! » .. فأشرق وجه هذا الفتى بوميض من زهو مغرور .. وأوشك أن ينهض واقفاً ، لولا أن قال (برتو) والحقد يفيض من صوته : « إن ما سيقوله قصة من تأليفه !.. إنها مجموعة من الأكاذيب ! » .

فصاح (تورتيما) وهو ينقض على برتو : « ماذا تعنى بما سميته مجموعة من الأكاذيب ؟.. إنك أنت الذى تلفق الأكاذيب ، يا ابن الحرام » :: بيد أن (برتو) كان فى هذه المرة أسرع منه حركة ، فراغ منه ، وأخذ من خلف أحد أركان الكابين يلوى قسمات وجهه ، ويخرج لسانه لتورتيما ، وقد طفح وجهه الأحمر المشوه

بالنمش ، بحقد طاغ .. فاكتفى (تورتيا) بأن راح يتوعده بقبضة يده ، وهو يصيح : « ليتك تجرؤ على المجىء ! » .. بيد أن هـذا التدخل من (برتو) أضاع عليه الفرصة لأن يقص ما يعرفه ، فأجمع الأولاد أمرهم على اختيار (ساندرو) لتلك المهمة .. وعقد هذا ساعديه على صدره الأسمر العريض الذى لمعت فيه شعيرات ذهبية ، وتقـدم فى ملاحته ورشاقته إلى حلقـة الأولاد المستلقين على الرمال . ولاحظ (أجوستينو) أن ساقيـه السمراوين القويتين لاحتا – بسبب الشعر الأصفر الثابت فيهما – مغبرتين بتراب ذهبى ، كما بدا بعض الشعر من أطراف ساق ثوب السباحة .. وما عتم الفتى أن قال فى صوت صاف جهورى : « الأمر غاية فى البساطة ! » .

.. ثم أخــذ يتكلم فى تؤدة ، مستعيناً بإشارات كانت واضحة المعانى ، فى غير وقاحة ، شارحاً لأجوستينو ماكان هــذا الأخير يعـرفه من قبل ، وإن كان قد نسيـه ، كأنما كان فى سبات عميق ! .. وكان إسهاب (ساندرو) مصحوباً بإيضاحات أخـرى أقل جدية ووقاراً .. فأخذ بعض الأولاد يشيرون بأيديهم بحركات خليعــة ، وصب بعضهم فى أذنى (أجوستينو) كلمات وقحة بذيئة ، لم يسمعها من قبل ! وقال اثنان منهم : « سنريه ما يفعلان » .. ثم أخــذ كل منهما يتقلب ويتمرغ فى أحضان الآخر على الرمال الساخنة :

* * *

● وإذ اطمأن (ساندرو) إلى أنه نجح فى شرحه ، ابتعد ليفرغ من تدخين سيجارته على انفـراد .. وما أن خفت الضجيج ، حتى تساءل (سارو) : « هل فهمت الآن ؟ » .. فهز (أجوستينو) رأسه بالإيجاب .. والواقع أنه لم يفهم الفكرة بقدر ما امتصها ، كما يمتص المـرء دواء ، أو سماً ، لا يستشعر تأثيره ، وإن كان من المؤكد أن أعراضه لن تلبث أن تظهر فيما بعـد .. ولم تكن تلك الفكرة قـد تسربت إلى عقله الفارغ ، المحير ، المعذب ، وإنمـا تسربت إلى جزء آخر من كيانه .. إلى قلبه المفعم بالمرارة .. أو إلى أعماق صدره الذى تلقاها مشدوهاً .. كانت كجسم لامع ، وهاج ، لا يستطيع المرء أن ينظـر إلى ما يشعه من بريق متألق ، ومن ثم فهـو يقنع – فى تعرف شكله الحقيقى – بالحدس والتخمين !.. بل لقد أحس أن هـذا الشىء كان كامناً فى نفسه دائماً ، وإن لم يستشعره فى دمه إلا الآن !

وسمع صوتاً خلفه يقول : « رينزو ، وأم بيزا .. تعال نجرب .. أنا رينزو وأنت أم بيزا » !.. والتفت فجأة ، فرأى (برتو) يتقدم فى تردد فينحنى لغلام آخر قائلا : «هل يتاح لى أن أحظى بصحبتك فى قاربى يا سـيدتى ؟.. لسوف أخرج للاستحمام فى البحـر .. وسيصحبنا بيزا » .. وإذ ذاك اسـتولى على (أجوستينو) غضب أهوج ، فانقض على برتو صارخاً : « إننى أحرم عليك أن تتحدث عن أمى » !.. وقبـل أن يدرى ما كان يحدث ، ألفى نفسه ملقى على

ظهره فوق الرمال ، وركبة (برتو) تثقل صدره ، بينما انهالت قبضتاه على وجهه باللكمات ! .. وود لو يبكى ، لكنه فطن إلى أن الدموع لن تؤدى إلا إلى إثارة مزيد من السخرية .. ومن ثم كبحها فى جهد كبير ، ثم ستر وجهه بذراعه وجمد فى رقدته كالميت .

وتركه (برتو) بعد برهة ، فأحس بأنه عومل شر معاملة .. وما لبث أن تسلل فجلس عند قدمى (سارو) .. وكان الأولاد منهمكين فى الحديث عن أمر آخر .. وفجأة ، قال أحدهم لأجوستينو : « هل أنت من قوم أغنياء ؟ » :

وداخل (أجوستينو) خوف لم يدر معه ماذا يقول .. على أنه ما لبث أن أجاب : « أظن ذلك » .

— كم لديكم ؟.. مليون ؟.. مليونان ؟.. ثلاثة ملايين ! ؟

وأحس (أجوستينو) بحيرة ، فقال : « لست أدرى » :

— هل لكم دار كبيرة ؟

فأجاب أجوستينو : « نعم » .. وكأنما اطمأن إلى ما سرى فى الحديث من ود واهتمام، وداخله الزهو بما تملكه أسرته، فاستطرد قائلا : « إن دارنا تضم عشرين غرفة ! » .

وانبعث من أحد الأولاد صيحة نمت عن دهشة وإنكار .. ولكن (أجوستينو) مضى قائلا : « لدينا حجرتا استقبال .. وهناك غرفة مكتب أبى .. » .

فانبعث صوت مكذب ساخر : «اها !» .. بيد أن (أجوستينو) أضاف على عجل ، بأمل أن يحملهم على إبداء مزيد من العطف نحوه : « إن أبى ميت ! » .

وساد الصمت لحظة ، ثم قال (تورتيا) : « إذن فأمك أرملة؟ » .. فانبعثت عدة أصوات ساخرة: « أجل .. بالطبع !».. فقال (تورتيا) محتجاً : « ما أخطأت القول .. فقد تكون تزوجت ثانية » .

فقال (أجوستينو) : « لا .. لم تتزوج ثانية » .

— وهل لكم سيارة ؟

— أجل ..

— وسائق ؟

— نعم ..

فصاح أحدهم : « قل لأمك إننى على استعداد لأن أكون سائقاً لسيارتها ! » .

وتساءل (تورتيا) — الذى بدا أن حديث (أجوستينو) كان أكثر تأثيراً عليه منه على الآخرين : « وماذا تفعلون بغرفتى الاستقبال ؟.. هل تقيمون حفلات راقصة ؟ » ..

فأجاب أجوستينو : « إن أمى تقيم فيها حفلات استقبال » ..

فعاد (تورتيا) يقول وكأنه يحدث نفسه : « إنها ولابد تحفل بكثير من الجميلات .. كم من الناس يحضرون تلك الحفلات ؟ » .

– لست أدرى تماماً ..

– كم .. بالتقريب ؟

قال (أجوستينو) وقد اطمأنت نفسه ، بل أحس بنجاحه : « عشرون .. أو ثلاثون » .

– عشرون ، أو ثلاثون .. وماذا يفعلون ؟

فأجابه (برتو) بلهجة لاذعة : « وماذا تتوقعهم أن يفعلوا ؟ .. ما أراهم إلا يرقصون ويلهون .. إنهم أغنياء .. ليسوا مثلنا .. لعلهم يمارسون أساليب الهوى ! » .

فقال (أجوستينو) فى حرارة ، لكى يثبت لهم أنه يعرف ما يقصدون : « لا .. إنهم لا يمارسون الهوى ! » .

ولاح على (تورتيا) أنه مستغرق فى فكرة لم يستطع أن يصوغها فى قالب واضح .. على أنه ما لبث أن قال : « هب أننى فاجأتك بالظهور فى إحدى هذه الحفلات ، فماذا تراك فاعلا ؟ » .

.. وكان قد نهض خلال الكلام وتقدم فى قحة – ممثلا اقتحامه الحفلة – وقد برز صدره إلى الأمام ، واستقرت يداه فى خاصرته ! .. فانفجر الأولاد مقهقهين ، بينما قال (أجوستينو) وقد أطمعه فى الفتى ضحك الأولاد : « إننى إذ ذاك أطلب إليك الانصراف » .

– وهب أننى رفضت الانصراف ؟

– أوعز إلى رجالنا أن يطردوك !

– هل لديكم خدم من الرجال ؟

– لا ، ولكن أمى تستأجر خدماً ليقدموا الشراب والطعام إذا ما أقامت حفلة !

ويبدو أن والد أحد الغلمان كان يعمل ساقياً ، إذ التفت إليه أحدهم قائلا : « آه .. مثل أبيك ! » .. واستطرد (تورتيا) وهو يتقدم نحو (أجوستينو) متحفزاً ، ملوحاً بقبضتيه فى الهواء كما لو كان يصور له ما يعتزم : « وهب أننى قاومت ، وكسرت أنف ذلك الساقى الذى توصيه بى ، ثم سرت إلى وسط القاعة ، وصحت : « إنكم شلة من الأوغاد والعاهرات .. كلكم سواء » .. فماذا تراك فاعلا ؟ » .

وفى هذه المرة انقلب الأولاد جميعاً يصيحون فى وجه (تورتيا) – لا عن رغبة فى حماية (أجوستينو) ، وإنما شوقاً إلى سماع مزيد من التفصيلات عن ثروته الخيالية : « لسوف يركلونك إلى خارج الدار ، وإنهم ليحسنون صنعاً ! » .

وارتفعت الصيحات من كل جانب .. وهتف (برتو) فى سخرية : « مالك وهذا ؟ .. إن أباك نوتى ، وستغدو أنت الآخر نوتياً .. ولو أنك ذهبت إلى دار بيزا ، لما جرؤت على أن تصيح أو تقول شيئاً .. إننى أعرفك تمام المعرفة » .

.. ثم قفز يمثل ما تصوره من ذلة (تورتيا) لدى باب أجوستينو : « لا مؤاخذة .. هل السيد بيزا فى الدار ؟ .. معذرة ..

لقد جئت .. آه ، لا يستطيع أن يستقبلني ؟.. لا بأس .. أرجو
المعذرة .. لشد ما أنا آسف .. سأجيء فى وقت آخر » .. أجل ،
إنى لأكاد أراك فى هذا الموقف .. لسوف تنحنى حتى يكاد رأسك
يمس الأرض ! » .

وانفجر الأولاد كلهم ضاحكين .. ولم يستطع (تورتيا) أن
يحتمل سخريتهم ، فقد كان غبياً بقدر ما كان شرساً ! على أنه
تحول إلى (أجوستينو) متسائلا ، كى يستعيد اعتباره فى أنظار
الآخرين ! : « هل تستطيع أن تتغلب على فى لعبة الذراع
الحديدية ؟ » .

فردد (أجوستينو) قوله فى عجب : « الذراع الحديدية ؟ »
.. وانبعثت عدة أصوات ساخرة : « إنه لا يعرف الذراع
الحديدية ! » .. وأقبل (ساندرو) فأمسك بذراع (أجوستينو)
وثناها ، وشرح له كيف يبقى ساعده منتصباً فى الهواء ، معتمداً
على مرفقه المثبت على الرمل .. وفى تلك الأثناء انبطح (تورتيا)
على الرمل ، وأقام ذراعه فى وضع مماثل .. فى حين استطرد
ساندرو يحدث أجوستينو : « .. عليك أن تحاول ثنى ذراع (تورتيا)
.. بينما يحاول هو أن يثنى ذراعك من ناحيته » .

وأمسك (أجوستينو) بيد (تورتيا) ، فإذا بهذا يثنى ذراعه
بدفعة واحدة ، وينهض فائزاً .. وعندئذ قال برتو : « دعنى أجرب
بدورى » .. وبالسهولة نفسها ، ثنى ذراع (أجوستينو) ونهض ..

فتصايح الآخرون كل بدوره : « وأنا كذلك ! .. وأنا أيضاً ! » ..
وهزموا (أجوستينو) على التوالى ، واحداً بعد الآخر .. إلى أن
حان دور الصبى الزنجى فى النهاية ، فقال أحدهم : « إذا غلبك
(هومز) ، فلابد أن ذراعك قد صيغت من عجين ! » .. فعقد
(أجوستينو) العزم على أن لا يمكن الزنجى من التغلب عليه ..

وكانت ذراعا الزنجى نحيلتين ، فى لون البن المحمص ، فخيل
لأجوستينو أن ذراعيه أقوى منهما .. وقال (هومز) فى تحمس
وتحفز ، وهو يستلقى على الأرض أمامه : « هيا يا بيزا » .. وكان
صوته واهناً ، كما لو كان صوت امرأة .. وعندما قرب وجهه
حتى غدا قاب قوسين من وجه (أجوستينو) ، رأى هذا أن أنفه
لم يكن أفطس ، كما توقع ، وإنما كان معقوفاً تقريباً ، وقد طوى
على نفسه ، كأنه قبضة من لحم لامع ، وقد علت إحدى فتحتيه
شامة ذات لون شاحب يكاد يكون أصفر .. وكان للغلام مقلتان
مستديرتان ، فى محجرين أبيضين واسعين ، تعلوهما جبهة عريضة ،
ذات شعر كث كأنه الصوف القاتم .. وقال وهو يضع يده الرقيقة
ذات الأصابع النحيلة الوردية الأظافر ، فى يد أجوستينو : « أقدم
يا بيزا .. لن أؤذيك ! »

ورأى (أجوستينو) أنه إذا رفع نفسه قليلا ، برفع كتفه ،
تحول ثقل جسمه بسهولة إلى يده ! .. ومكنته هذه الحيلة البسيطة
من أن يظل مسيطراً فى البداية على (هومز) .. وظلا برهة طويلة

يتنافسان دون أن يتغلب أحدهما على الآخر ،وقد أحاط بهما الأولاد معجبين .. وبدا على وجه (أجوستينو) الإجهاد .. كان يركز كل قواه فى الصراع ، بينما كان الزنجى يبتسم ابتسامات رهيبة ، وهو يصر على أسنانه البيضاء ، ويدير عينيه فى محجريهما .. وفجأة ، صاح صوت ملىء بالدهشة : « إن بيزا يوشك أن ينتصر ! » .. بيد أن أجوستينو أحس فى تلك اللحظة بألم حاد مارق سرى من كتفه اليمنى جارياً فى ذراعه ، فلم يعد يحتمل ، واستسلم قائلا : « لا .. إنه أقوى منى » .

وقال الزنجى وهو ينهض ، فى صوت رقيق ، وإن يكن غير بهيج : « لسوف تغلبنى فى المرة التالية » ! .. بينما قال : (تورتيا) فى سخرية لاذعة : « تصور .. حتى (هومز) يغلبك .. إنك لا تصلح لشىء ! » .. بيد أن الأولاد الآخرين كانوا قد سئموا إبداء الزراية بأجوستينو ، فقال أحدهم : « ما رأيكم فى أن نستحم ! » .. فصاحوا جميعاً وقد انطلقوا يثبون ويقفزون على الرمال الساخنة ، نحو البحر : « أجل ، أجل .. لنستحم ! » .. وتبعهم (أجوستينو) عن كثب ، فرآهم يقفزون إلى الماء الضحل ويتقلبون فيه كالسمك ، وهم يصرخون ويصيحون طرباً . وإذ بلغ هو حافة الماء ، برز (تورتيا) منه ، صاعداً بمؤخرته قبل رأسه — كأنه حيوان بحرى كبير — وصاح : « اغطس يا بيزا .. ماذا تفعل هناك ؟ » .



وظلا برهة طويلة يتنافسان دون أن يغلب أحدهما على الآخر ، وقد أحاط بهما الأولاد معجبين ..

فقال أجوستينو : «ولكنى أرتدى ثيابى» .. ورد (تورتيا) فى خشونة : «إذن فاخلع ثيابك» .

وحاول (أجوستينو) أن يتملص ، لكن الفرصة فاتته ، إذ كان (تورتيا) قد أمسك به وأخذ يشده إلى البحر ، وهو يقاوم ، ويجذب غريمه معه .. ولم يفلته الفتى إلا حين أوشك أن يخنقه وهو يضغط على رأسه تحت الماء ! .. وإذ ذاك سبح مبتعداً عنه قائلا : «وداعاً يا بيزا ! !» .

وعلى مسافة فى عرض البحر ، أبصر أجوستينو (ساندرو) واقفاً فى وضع رشيق على قارب ، فى وسط الأولاد الذين كانوا يحاولون التسلق إلى جانبى القارب . وعاد أجوستينو إلى البر مبتلا ، يلهث ، ووقف لبضع لحظات يرقب الزورق وهو يبتعد موغلا فى البحر ، وحيداً تحت أشعة الشمس التى كان وهجها يبهر البصر .. ثم انطلق يسير على الرمال الناعمة ، على مقربة من حافة الماء ، عائداً إلى (بلاج سبيرانزا) ، وهو يحث الخطى !

الفصل الثالث

● لم يكن الوقت متأخراً كما خيل إليه ، إذ لم تكن أمه قد عادت بعد حين وصل إلى (البلاج) .. وكان الشاطىء خالياً إلا من مستحمين قلائل ظلوا يتسكعون فى المياه المتألقة .. أما الغالبية فكانت تسعى تحت شمس الظهيرة فى استرخاء ، وفى صف واحد ، إلى الطريق المرصوفة المفضية من الشاطىء .. ومن ثم جلس (أجوستينو) تحت المظلة الكبيرة ، وانتظر . وخطر له أن أمه قد غابت هذه المرة مدة أطول من المرات السابقة ، ناسياً أن الشاب وصل بقاربه متأخراً عن المعتاد ، وأن أمه لم تكن راغبة فى الانطلاق (وحيدة) مع الشاب ، وإنما هو الذى اضطرها إلى ذلك حين اختبأ عن ناظريها ! .. وجال بنفسه أن الاثنين أفادا من غيابه واستغلاه ليفعلا ما أوحى به (سارو) والأولاد ! .. ولم يعد يستشعر أية غيرة من ذلك ، وإنما سرت فيه رجفة جديدة ، غريبة ، من فضول ، ومن تحبيذ خفى ، كما لو كان هو نفسه شريكاً لها ! .. كان من الطبيعى أن تتصرف أمه مع الشاب مثل هذه التصرفات ، فتخرج معه كل يوم فى القارب ، حتى إذا صارا بمنجى عن الأنظار المتلصصة ، ألقت بنفسها فى أحضانه ! .. كان هذا طبيعياً ، وقد أصبح (أجوستينو) الآن على استعداد تام لتقبل الأمر الواقع !

مرت هـذه الخواطر بباله وهو جالس ينعم البصر فى البحر ، فى ارتقاب عودة العاشقين .. وأخيراً ، ظهر القـارب ، كشظية لامعة على صفحة اليم . وفيما كان يقترب مسرعاً ، استطاع الفتى أن يتبين أمه جالسة أمام الشاب الذى راح يجذف .. وكانت كل حركة من حركات المجذافين ، وهما يرتفعان ثم يهبطان ، تحدث فى الماء خطاً ناصعاً .. وإذ ذاك نهض أجوستينو فسار إلى حافة الماء ، ليستطيع أن يرى أمه وهى تهبط إلى البر ، فيكشف بعض ما يشى بالألفـة التى ساعد هو طـويلا على إنمائهـا دون أن يدرك ، والتى أحس على ضوء ما أبانه له (سارو) والأولاد ، أنها ولابد تفضح نفسها علانية فى تصرفاتهما .. وشرعت أمه تلوح له بيديها والقارب يدنو من البر ، ثم قفزت طروباً إلى الماء ، وسرعان ما كانت إلى جواره ، وهى تقول : « أجائع أنت ؟ .. سنذهب ونتناول شيئاً من الطعـام توآً .. ». ثم التفتت إلى الشـاب وهتفت وهى تلوح له محيية : « مع السلامة ! .. مع السلامة ! .. إلى غد ! » .

وخيل لأجوستينو أنها تلوح أضفى سعادة ممـا ألف أن يراها . ولم يتمالك وهو يتبعهـا على رمـال الشاطىء أن يحس فى صوتهـا إذ ودعت الشاب ، رنة من النشوة الجذلانة .. كأنما حـدث فى ذلك اليوم فعلا ، ما كان وجود ابنها يحول دونه من قبل ! .. على أن ملاحظاته وهواجسه لم تتجاوز هذا الحـد ، ففيما عـدا غبطتهـا السافرة ، التى كانت تناقض بعض الشىء وقارها المألوف ، لم

يستطع (أجوستينو) فى الواقع أن يصور لنفسه ما عسى أن يكون قد جرى وهما بعيدان معاً ، ولا أن يتصور ما صارت إليه حقيقة علاقاتهما .. ومع أنه مضى يتفرس فى وجهها ، ونحرها ، ويديها ، وجسدها ، بإدراك جديد قاس ، إلا أنه لم ير ظاهراً عليها أى أثر للقبـلات أو اللمسات التى قد تكون تلقتهـا .. وأخذ كلما أطـال التمعن ، يزداد شعوراً بالخيبة ! .. وحين اقتربا من الكابين ، قال لأمـه : « كنتما وحيـدين اليوم .. بدونى .. » ، وتمنى لو تقول : « أجل ، واستطعنا أخيراً أن ننعم بتبادل الهوى ! » : بيد أنه لم يبد على أمـه أنها فقهت من قـوله أكثر من إنه إشـارة إلى الصفعة التى بدرت منهـا ، وإلى فـراره بعدها ، فقد قالت وهى تقف وتحيط كتفيه بذراعيها : « لا تثر الحديث مرة أخرى فى هذا الموضوع ! » .. وتأملته بعينيها الضاحكتين ، الطافحتين بالانفعال ، ثم أردفت : « إننى أدرك أنك تحبنى .. ألا قبلنى ولنكف عن إثارة هـذا الموضوع ثانية .. ما رأيك ؟ » .

وأحس (أجوستينو) بغتـة بشفتيه تلاصقان عنقهـا .. العنق الذى طالما استعذب ما كان ينبعث منه من عبير العفة وحرارتها ، والذى خيل إليه الآن أنه يحس بشىء جديد يدب فيه تحت شفتيه ، دبيباً واهنـاً .. كأنه رجفـة خلفها رد فعل قبلات الشاب ! .. وما لبثت أمه أن هرعت تصعد سلم الكابين ، بينما استلقى (أجوستينو) على الرمال ، وقد التهب وجهه بعار لم يدر له كنهاً !

وفيما هما فى طريقهما إلى البيت ، عاد يسترجع هذه المشاعر الجديدة الغامضة إلى ذهنه المضنى .. فبعد أن كانت علاقات أمه بالشاب تبدو له كأنها تنضح بشىء من الإثم الغامض ، حين كان جاهلا بالخير والشر ، ألفى نفسه الآن — وقد فتح (سارو) وتلاميذه عينيه — مفعم النفس بشك مبهم ، وفضول مشبوب ! .. إن الذى أثار أحاسيسه فى البداية لم يكن سوى الغيرة الصريحة التى نشأت عن حبه الصبيانى لأمه .. أما الآن ، وفى وضح ضوء النهار القاسى ، فقد حل محل هذا الحب — وإن ظل عارماً — فضول مرير ، لا سبيل إلى التحايل عليه .. فضول بدت تلك الأحاسيس الأولية الواهنة بالنسبة إليه غير مستساغة ولا مرضية .. ففيما مضى ، كانت كل كلمة وكل إشارة مستهجنة تبعث فى نفسه الألم ، دون أن تفتق إدراكه ، فكان يكتفى بأن يتمنى لو أنه لم يسمعها أو يرها .. أما الآن ، وهو يرتد بذاكرته إلى الوراء ، فقد لاحت له هذه البوادر الممجوجة التى كانت تثير فى نفسه الشعور بالعار ، مجرد توافه .: بل إنه غدا يتمنى لو أنه فاجأ أمه فى بعض الأوضاع الفاجرة التى بصره بها (سارو) والأولاد أخيراً .

* * *

● على أنه ما كان لينتهى بمثل هذه السرعة إلى فكرة التجسس على أمه ، سعياً وراء تبديد هالة الوقار والجلال التى ظلت تلفها حتى الآن ، لو أن المصادفة لم تسقه فى ذلك اليوم بالذات ، إلى أن يتخذ

فى هذا الاتجاه خطوة .. فعندما بلغا البيت ، تناولت الأم والابن غداءهما فى صمت لم يكادا يخرجان عنه .. بيد أن (أجوستينو) أحس فجأة بعد الغداء برغبة لا تقاوم فى الخروج واللحاق بعصبة الأولاد ثانية ، إذ كانوا قد أنبأوه بأنهم سيلتقون فى (بلاج فيزبوتشى) بعد الظهر ، ليضعوا الخطط لمغامرات اليوم .. وكان ، بعد أن غالب خوفه الأول واشمئزازه من تلك الشرذمة من الأشقياء الصغار ، قد بدأ يحس بقوة غريبة تجتذبه إليهم !

.. وفيما هو مستلق على سريره ، والمصاريع الخشبية للنوافذ مغلقة ، والحجرة حارة ، مظلمة .. وقد راح يعبث كعادته بالزر الخشبى للضوء الكهربائى .. كانت تتصاعد إليه من الخارج بضعة أصوات : قعقعة عجلات عربة .: وصلصلة الأطباق والأكواب تصدر من النوافذ المفتوحة للنزول — (البنسيون) — المقابل .. وكانت الأصوات المنبعثة فى داخل البيت تبدو — فى سكون أصيل الصيف — واضحة وكأنها فى عزلة عن سواها .. ومن ثم استطاع أن يسمع أمه وهى تلج الغرفة المجاورة ، وكعبا حذاءيها يطرقان بلاط الأرض .. وكانت تمشى جيئة وذهاباً ، تفتح أدراجاً وتقفل أدراجاً ، وتزحزح مقاعد الحجرة ، وتلمس هذا وتدع ذاك ..

وخطر له خاطر مفاجىء ، وهو يطرح عنه الخمول الذى بدأ يزحف على حواسه : « لقد أوشكت أن تنام ، ولن أستطيع إذن أن أخبرها بأننى راغب فى الذهاب إلى الشاطىء ! » .. فقفز فزعاً

من هذا الخاطـر ، وخرج إلى الردهـة . كانت غرفته تطـل على
الشرفة المواجهة للسلم ، وغرفة أمه إلى جوارها .. فسعى إلى بابها،
وإذا به يجده مواربآ .. وبدلا من أن يطرقه كما اعتاد أن يفعل ،
دفعه فى رفق — ولعله كان مدفوعاً برغبة ، لم يكن يعيها ، فى أن
يتجسس على شئون أمه الخاصة !

كانت غرفة أمه تكبر غرفتـه بكثير .. وقـد قام السرير إلى
جوار الباب ، وفى مواجهة الباب تماماً صوان ذو أدراج ، تعلوه
مرآة كبيرة .. وكان أول ما رآه منظر أمه واقفة أمام الصوان ذى
الأدراج . لم تكن عارية كما كان يتصور — بل وكما كان يرجو
وهو يلج الغرفة فى هدوء — وإنما كانت نصف عارية ، وقد همت
بأن تنزع عنها قلادتها وقرطيها أمام المرآة .. وكانت ترتدى قميصاً
حريرياً شفافاً ، لم يصل إلا إلى منتصف عجـزها .. ولما كانت
تقف فى استرخاء مائلة على أحد جانبيها ، فقد ارتفع أحد ردفيها
فى بروز عن الآخر .. وتحت فخذيـها الممتلئتين فى غير سمنـة ،
انسابت ساقاها الملفوفتان ، البديعتان ، متدرجتين فى الرفع حتى
تنتهيا إلى كعبين دقيقين . وكانت ذراعاها مرفوعتين لتفكا قفل
قلادتها :. وخـلال القميص الحريرى الشفاف ، بدت آثار هذه
الحركة فى كل ظهرها ، وقد أبرزت مفاتن جسدها بدرجة عجيبة ..
ولاح إبطاها — وذراعاها مرفوعتان بهذا الوضع — كأشداق ثعبانين ،
وقد برز منهما الشعر الناعم الطويل ، كألسنة سوداء رفيعة ، سرها

أن أفلتت من ضغط الذراعين الممتلئتين !.. وبدا لعينى (أجوستينو)
المفتونتين كأن جسمهـا الملتف الرائع يفقد صلابته ويستحيـل إلى
جسم إسفنجى متضخم فى ضـوء الغرفة الخافت .. كأنما العرى قد
فعل به ما تفعله الخميرة بالعجين ، فأكسبه قدرة غريبة على التمدد !
وإذا به فى إحدى اللحظات يبدو وكأنه ينتفخ إلى الخارج فى ثنيات
لا حصر لها .. ثم يعود فى لحظة أخرى فيدق ويستطيل حتى يغدو
عملاقاً يملأ الفراغ بين الأرض والسقف !

وكان أول ما خامر (أجوستينو) هو أن يهرع خارجاً مرة
أخرى، بيد أن تلك الفكرة الجديدة التى داخلته : « إنها امرأة ! » :.
تلك الفكرة سمرته فجأة فى مكانه ، وقد اتسعت حدقتاه ، وتشبث
بمقبض الباب .. وأحس بروح البنوة تثور فى نفسه متمردة على
هذا الجمود ، فتحاول أن تجره إلى الخارج .. لكن الوعى الجديد
الذى اشتد فى عقله، وإن ظل حيياً خجولا ، غصب عينيه المتورعتين
على أن تحدقا فى غير استحياء إلى ما لم يكن ليجـرؤ حتى الأمس
على النظر إليه ! .. وفى خـلال هذا الصراع بين التمرد والميـل ،
وبين الذهول والارتياح ، أخذت خطوط الصورة التى كان يتأملها
تزداد وضوحاً وجـلاء .. حركات ساقيها ، وانحناءة ظهرها
المتراخيـة ، وشكل إبطيها .. وبدا أنهـا تتمشى تماماً مع فكرته
الجـديدة التى كانت ترتقب هـذه المدعمـات كى تستولى تماماً على
خياله !

وفى تحوله السريع من الاحترام والتوقير إلى نقيضيهما تماماً ، ود لو يرى مثالب عريها غير المتعمد ، تتطور أمام عينيه إلى خلاعة متعمدة ! .. وتحولت الدهشة فى عينيه إلى فضول . كان الاهتمام الذى شد عينيه إلى جسدها ، والذى خاله منبعثاً عن رغبة فى المعرفة ، يدين بغايته الزائفة فى الواقع إلى الشعور الذى كان يسيطر عليه .. وبينما كان دمه يتدافع إلى رأسه ، ظل يردد لنفسه : « إنها امرأة ! .. ليست سوى امرأة ! » .. وأحس – بكيفية ما – أن هذه الكلمات سياط تنهال على ظهرها وساقيها بالإهانة والسخط !

وإذ خلعت أمه القلادة ووضعتها على السطح الرخامى للصوان ذى الأدراج ، شرعت بحركات رشيقة من يديها تخلع قرطيها .. ولكى يتسنى لها ذلك ، أمالت رأسها إلى أحد الجانبين ، مشيحة قليلا عن المرآة .. وخشى (أجوستينو) أن تلمحه فى المرآة الكبيرة القائمة فى فراغ نافذة بارزة عن مستوى الجدار على مسافة منها – فإنه كان يرى صورته على صفحة هذه المرآة ، وهو فى موقفه المسترق خلف الباب الموارب – ومن ثم رفع يده فى عناء، وطرق الباب هاتفاً : « هل أدخل ؟ » :

وأجابت أمه فى هدوء : « لحظة واحدة يا حبيبى » .. ورآها تتوارى عن بصره فى ركن الحجرة، وسمعها تبحث وتنقب لحظة ، ثم ظهرت فى « روب » حريرى أزرق طويل .. فقال (أجوستينو) دون أن يرفع بصره عن الأرض : «ماما .. سأذهب إلى الشاطىء »

.. فأجابته وهى شاردة البال : « الآن ؟.. ولكن القيظ شديد .. ألا يحسن بك أولا أن تنام قليلا؟ » .. وبسطت إحدى يديها فربتت خده ، بينما سوت باليد الأخرى خصلة نافرة من شعرها الأسود الناعم ..

وعاد (أجوستينو) لتوه طفلا من جديد ! .. فلم يقل شيئاً ، بل ظل واقفاً ، كما اعتاد دائماً كلما رفضت أمه له رجاء ، وقد نكس رأسه ، وألصق ذقنه بصدره ، فى عناد أخرس .. وكانت أمه تدرك تماماً معنى هذا الوضع ، فبادرت تستجيب بالطريقة المعهودة : « حسناً ، إذا كنت جد راغب فى الذهاب إلى هذه الدرجة ، فاقصد إلى المطبخ أولا واطلب إليهم أن يعدوا لك شيئاً تأخذه معك .. ولكن لا تأكله الآن ، بل ضعه فى الكابين .. وحذار أن تنزل إلى الماء قبل الساعة الخامسة ، سيما وإننى سأذهب إلى هناك حوالى هذا الوقت ، فنستحم معاً » .. عين التعليمات التى كانت تصدرها إليه دائماً !

لم يحر (أجوستينو) جواباً ، بل هرع حافى القدمين ، وأخذ يهبط السلم الحجرى : وسمع باب غرفة أمه يغلق خلفه فى رفق .. وفى البهو لبس نعليه ، وخرج إلى الطريق .. وما لبث قيظ الظهيرة أن احتواه فى أتونه الصامت .. وعند نهاية الطريق ، بدا البحر الساكن يأتلق عند الأفق البعيد ، المرتعش .. وفى الناحية الأخرى ،

كانت جذوع شجر الصنوبر الحمراء تنحنى تحت ثقل ثمارها الخضراء المليئة ..

وساءل الغلام نفسه : أيذهب إلى (بلاج فيزبوتشى) عن طريق الشاطىء ، أو يذهب عن طريق الغابة ؟ على أنه آثر الطريق الأولى ، فعلى الرغم من أنه سيكون فيها أكثر تعرضاً للشمس ، إلا أنه لن يمر بالبلاج دون أن يراه ويتعرف عليه .. وهكذا ظل يتبع الطريق طوال امتدادها بمحاذاة البحر ، ثم أخذ يغذ السير بأسرع ما استطاع ، محتمياً بالجدران .. كان يجذبه إلى (بلاج فيزبوتشى) — دون أن يفطن ، وبغض النظر عما فى صحبة الأولاد من طرافة — تلك التعليقات الجارحة التى كانوا يتناولون بها أمه وعشيقها المزعوم !.. وأخذ يدرك أن طبعه السابق قد أخذ يتغير إلى شعور آخر مخالف .. شعور أكثر قسوة ، وأكثر وضوحاً وتبلوراً .. وجال بخاطره أن سخرياتهم المقذعة جديرة بأن تكون بغية ينشدها ويستوعبها ، إذ أنها هى التى عجلت بهذا التغيير .. فلقد اشتدت به الرغبة فى أن يكف عن حب أمه .. بل لقد أصبح يكره نفسه لأنه أحبها !.. ولولا سخريات أولئك الأولاد ماجرؤ على أن يصارح نفسه بهذا .. ولعل شعوره بأنها خدعته ، إذ كان يظنها غير ما هى فى الواقع ، أو لعل عجزه عن أن يمضى فى حبها بنفس السذاجة والبراءة اللتين أحبها بهما من قبل ، جعله يؤثر أن يكف عن حبها بالمرة ، وأن ينظر إليها نظرته إلى أية امرأة أخرى !..

كان ، بدافع غريزى من أعماق نفسه ، يحاول أن يحرر نفسه تماماً من وطأة حبه القديم ، البرىء ، الذى أحس أنه تعرض للغدر دون استحياء .. والذى أصبح يبدو له مجرد حماقة وجهل !

وهكذا ، كانت الجاذبية القاسية التى سمرت بصره منذ دقائق إلى ظهر أمه ، هى عينها التى أخذت تدفعه الآن إلى أن ينشد صحبة أولئك الأطفال ، على ما فيها من إذلال ووقاحة .. أو ليس من المحتمل أن تساعد تعليقاتهم المزرية — كما ساعد العرى الناقص الذى شاهد أمه فيه منذ دقائق — على القضاء على علاقة البنوة القديمة التى أصبحت بغيضة لديه ؟

* * *

● وإذ غدا (بلاج فيزبوتشى) على مرمى البصر ، خفف من إسراعه فى السير .. ومع أن قلبه كان يدق فى عنف ، شق عليه معه أن يلتقط أنفاسه ، إلا أنه اصطنع الهدوء وعدم الاكتراث !

.. وكان (سارو) فى جلسته السابقة ، بجوار منضدته العرجاء التى استقرت عليها زجاجة نبيذ ممتلئة إلى نصفها ، وقدح ، ووعاء احتوى على بقية من حساء السمك .. أما بقية الجماعة فلم يبد أثر لأى فرد منها . . حتى إذا ازداد أجوستينو اقتراباً ، تكشف طرف الخيمة عن جسد الصبى الزنجى (هومز) مستلقياً على الرمال البيضاء .. ولكن لم يكن (سارو) يبدى أى اكتراث بالزنجى ، بل كان يدخن وهو سارح البال ، وعلى رأسه قبعة عتيقة من القش

حائلة اللون ، مالت حافتها على إحدى عينيه.. وتساءل (أجوستينو) فى استياء إذ وصل : « أليسوا هنا ؟ ».. فتطلع إليه (سارو) وتأمله لحظة ، ثم قال : « لقد ذهبوا إلى (ريو) .. وكانت (ريو) بقعة مهجورة من الشاطئ على بعد بضعة كيلومترات ، يصب عندها فى البحر جدول صغير يجرى بين ضفتين رمليتين نما عليهما الغاب ..

وقال (أجوستينو) فى أسف : « آه ! ذهبوا إلى (ريو) .. لماذا ؟ ».

وتولى الزنجى الإجابة ، فقال وهو يرفع يده إلى فمه معبراً عما يقصه : « ذهبوا إلى وليمة ! » .. على أن (سارو) هز رأسه وقال : « إنكم لن تهنأوا أيها الأولاد ، حتى يطلق بعضهم الرصاص عليكم ! » .. كان من الجلى أن « وليمتهم » لم تكن سوى حملة لسرقة الفاكهة من البساتين ! — أو هكذا بدت لأجوستينو — بينما قال الزنجى فى تزلف ، وكأنه ينشد رضى (سارو) : « إننى لم أذهب معهم ».

فقال (سارو) فى هدوء : « لم تذهب لأنك لم ترغب فيما ذهبوا من أجله ! ».

فتمرغ الزنجى على الرمال محتجاً ، وقال : « لم أذهب لأننى أردت أن أبقى معك » .. وكان يتكلم فى صوت عذب كأنه تغريد .. ولكن (سارو) قال فى ازدراء : « ومن أذن لك فى أن تستبيح

رفقتى إلى هذا الحد أيها الزنجى الصغير ؟.: إننا لسنا أخوين ، على ما أعلم ».

فقال الآخر فى غير ارتباك ، بل فى لهجة الفائز ، وكأنما أتاحت له هذه اللمزة ارتياحاً عميقاً : « لا .. لسنا أخوين ».

قال (سارو) : « إذن ، فالزم حدودك » .. ثم التفت إلى (أجوستينو) قائلا : « لقد ذهبوا ليسرقوا بعض الأذرة .. هذه هى وليمتهم التى سعوا إليها ! ».

فتساءل (أجوستينو) فى لهفة : « وهل سيعودون ؟ ».

ولم ينبس (سارو) ببنت شفة ، بل ظل يتأمل (أجوستينو) وكأنه يتدبر أمراً فى باله ، ثم أجاب فى تؤدة : « لن يعودوا سريعاً .. بل سيطول غيابهم . على أننا نستطيع أن نذهب إليهم إن شئت ».

— وكيف ؟

قال (سارو) : « فى القارب ».

وهتف الزنجى وهو يقفز متحمساً : « آه .. أجل ، لنذهب فى القارب » .. واقترب من (سارو) ، ولكن هذا لم يعره التفاتاً ، بل استطرد يقول لأجوستينو : « إن لدى قارباً شراعياً .. ولن نلبث بعد نصف الساعة أن نكون فى (ريو) .. إذا كانت الرياح مواتية » .. فقال (أجوستينو) مغتبطاً : « أجل .. لنذهب .. ولكن ، كيف نعثر عليهم إذا كانوا فى الحقول ؟ ».

قال (سارو) وهو ينهض ويشد الحزام القماشى الأسود حول بطنه : « لا تحمل لهذا هماً .. سوف نجدهم بسهولة » .. ثم تحول إلى الزنجى الذى كان يرقبه فى قلق ملهوف ، وقال : « هيا أيها الزنجى .. ساعدنى على إقامة الصارى ونشر الشراع » .. فهتف الزنجى فى فرح : « ها أنذا يا سارو .. ها أنذا قادم ! » .. وتبع (سارو) إلى القارب .

* * *

● ووقف (أجوستينو) – إذ غدا وحيداً – وتلفت حوله .. كانت ثمة ريح خفيفة تهب من الشمال الغربى ، وقد اكتسى سطح البحر بمويجات واهنة ، واستحال لونه إلى زرقة بنفسجية تقريباً ؛ أما الشاطىء فقد التف بغلالة من وهج الشمس والرمال ، شملته حتى أقصى مرامى البصر . ولم يكن (أجوستينو) يعرف موقع (ريو) ، فسرح بصره يتتبع تعرجات الشاطئ المقفر فى حنين .. ترى أين (ريو) ؟ .. وحدس أنها ولابد تقع فى جزء ما من ذلك الأفق الذى كانت تختلط عنده الأرض بالسماء والبحر فى ضباب قاتم مبهم ، تحت الشمس الحامية .. وأحس بتحمس وشوق إلى الرحلة ، وقد وقر فى نفسه أنه ما كان ليتخلف عنها ولو وهب الدنيا بأسرها ..

وأخرجه من تأملاته صوتا (سارو) والزنجى وهما يبرزان من الكابين ، وقد حمل الأول على إحدى ذراعيه كومة كبيرة من الحبال وقماش الأشرعة ، بينما احتضن بالأخرى زجاجة . وتبعه الثانى يحمل

صارياً طويلا طلى إلى منتصفه باللون الأخضر ، وكأنه يحمل حربة .. وقال (سارو) وهو يتجه إلى الشاطئ ، دون أن يتجشم عناء الالتفات نحو (أجوستينو) : « هيا ، فسوف نقلع » .. وبدا لأجوستينو فى مسلكه تسرع غريب ، يناقض تماماً مالاحظه عليه من قبل .. كما لاحظ أن خياشيمه الحمراء المنتفخة قد ازدادت احمراراً ولمعاناً عما كانت فى العادة ، وكأنما امتلأت جميع ما فيها من عروق متشابكة ، متشعبة ، بفيض طارئ من الدماء .. وأخذ الزنجى يردد وراء (سارو) وهو يقفز على الرمال ، وكأنه يرقص ، والصارى تحت ذراعه : « هيا .. هيا .. » . على أن (سارو) أوشك أن يبلغ الكابينات القليلة التى فى بداية (البلاج) ، فتباطأ الزنجى فى انتظار (أجوستينو) ، حتى إذا اقترب هذا أشار له بأن يقف ، فامتثل (أجوستينو) ، وقال الزنجى فى ألفة وود : « اسمع .. أريد أن أحدث (سارو) فى سر بيننا .. أرجو أن تتكرم .. أرجو .. أن لا تأتى .. اذهب .. أرجوك .. ! » فتساءل (أجوستينو) فى دهشة بالغة : « ولماذا ؟ » .. فقال الآخر فى ضيق ، وهو يدق الأرض بقدمه : « قلت لك إننى أريد أن أتحدث إليه فى خلوة .. أنا وهو فقط ! » .. لكن (أجوستينو) عاد يقول ، دون أن يتزحزح عن موقفه : « يجب أن أذهب إلى ريو » .

– تستطيع أن تذهب فى وقت آخر .

– لا .. لا أستطيع .

فنظر إليه الزنجى وقد نمت عيناه، وخياشيمه المرتعشة، عن انفعال عاطفى مشبوب، أثار اشمئزاز أجوستينو: «اسمـع يا بيزا.. إذا بقيت هنا، أعطيتك شيئاً لم تره من قبل!». ووضع الصارى على الأرض، ودس يده فى جيبه، ثم أخرج مقذافاً — (نبلة) — صنع من فرعين صغيرين مشتبكين من فروع الصنوبر، وشريطين مطاطين، وقال وهو يمسك به: «أليس بديعاً؟».

غير أن (أجوستينو) كان راغباً فى الذهاب إلى (ريو)، كما أن إلحاح الزنجى أثار شكوكه، فقال: «لا.. لا أريده».. فعـاد الآخر يقول وهو يمسك بيد (أجوستينو) ويحاول أن يدس المقذاف فيها عنوة: «خذه وانصرف!».

فردد (أجوستينو) رفضه: «لا.. لا أريده».

وإذ ذاك استطرد الزنجى وهو يدس يده فى جيبه ثانية: «سأعطيك المقذاف وأوراق اللعب هذه أيضاً».. وأخرج من جيبه مجموعة من أوراق اللعب الصغيرة، ذات ظهور وردية اللون، وحواف مذهبة.. وعاد يقول: «خذها جميعاً وانصرف.. تستطيع أن تصيب بالمقذاف طيوراً.. وأوراق اللعب هذه جديدة».

لكن (أجوسـتينو) أجابه فى إصرار: «قلت لك إننى لا أريدها!».

فرمقه الزنجى بنظرة استعطاف وتوسـل، وقـد تلألأت على

جبينه قطرات من العرق، وتقلص وجهه معبراً عن تعاسـة بالغة، وقال فى شبه عويل: «ولماذا لا تريدها؟».

قال أجوستينو: «هكذا لست أريد».. وانطلق فجأة يهرع نحو الرجل الذى كان يقف إذ ذاك إلى جوار القارب. وفيما كان يقترب من (سارو)، سمع الزنجى يصيح وراءه: «ستندم على ذلك!».

وكان القارب يستند إلى كتلتين من خشب البلوط غير مصقولتين، على مسافة من رمال الشاطئ، وكان (سارو) قد ألقى الشراع فى القارب، وبدا عليه أنه فقد صبره على الانتظار.. فسأل (أجوستينو) وهو يشير نحو الزنجى: «ما الذى يبغى؟».. فأجابه أجوستينو: «إنه قادم».

وفعلا أقبل الزنجى يجرى فى قفزات طويلة فوق الرمال، ممسكاً بالصارى تحت ذراعه.. وتناول (سارو) الصارى بأصابع يمناه الست، وأقامه بأصابع يسراه الست، ثم نصبه فى ثغرة تتخلل المقعد الأوسط.. وانتقل بعد ذلك إلى القارب، فربط الشراع إلى الصارى، ثم نشر القماش.. وتحول أخيراً إلى الزنجى قائلا: «والآن لندفعه من أسفل».

ووقف بجانب القارب، قابضاً على حافة مقدمه، بينما تأهب الزنجى لدفعه من المؤخرة.. وأخذ (أجوستينو) يرقبهما وهو لايدرى

ما يفعل .. وكان القارب متوسط الحجم ، نصفه أبيض ، ونصفه أخضر .. وعند المقدمة ، كتب بحروف سوداء اسمه (أميليا) .

وهتف (سارو) : « هيلا .. ليصا ! » .. فانزلقت المركب إلى الأمام مسافة ، ثم قفز الزنجى ودفع القارب حول محوره ، حتى صارت نهايته فى مكان مقدمته ، وهو محتضن العارضتين الخشبيتين بذراعيه .. وتكررت العملية .. ثم دفعة أخرى ، وإذا بمقدم القارب يغطس فى الماء ، ويتزلق طافياً فوق سطح البحر . وقفز إليه (سارو) فوضع المجذافين فى الحلقتين المخصصتين لها ، وما لبث أن قبض على كل منهما بإحدى يديه ، وأشار إلى (أجوستينو) ليقفز — مغفلا الزنجى ، كأنما كان بينهما اتفاق سابق ! — فخاض (أجوستينو) فى الماء حتى ركبتيه، وأخذ يحاول الصعود ، وما كان ليفلح لولا أن الأصابع الست ليد (سارو) اليمنى أمسكت بإحدى ذراعيه بقوة ، وشدته كما لو كان قطاً ! .. ورفع رأسه ، فإذا (سارو) يرفعه بإحدى ذراعيه دون أن ينظر إليه ، لأنه كان منهمكاً فى تسوية وضع المجذاف الأيسر .. وسعى (أجوستينو) حتى جلس فى مؤخرة القارب ، متقززاً إذ أمسكت تلك الأصابع به ، فقال سارو : « حسناً .. ابق هناك . والآن سندفع القارب بعيداً عن الشاطئ » .. فصرخ الزنجى من البر : « انتظرنى .. سآتى أنا الآخر » .. وقفز إلى الماء وقد أرهقه ما قام به من جهد ،

وتشبث بحافة القارب ، ولكن (سارو) قال له : « لا .. لن تأتى » .

فصاح الصبى فى لوعة واستياء: « وماذا ترانى فاعلا ؟ .. ماذا ترانى فاعلا ؟ » .. فأجاب (سارو) وهو يقف فى القارب دافعاً إياه نحو الماء: «استقل الترام فتصل قبلنا .. كن واثقاً من ذلك! ».. لكن الزنجى استطرد معولا وهو يجرى فى الماء بجانب القارب : « ولماذا يا سارو ؟ .. لماذا يا سارو ؟ .. أريد أن أذهب أنا أيضاً » .

ولم ينبس (سارو) ببنت شفة ، بل ترك المجذافين ، وانحنى على حافة الماء فغطى وجه الزنجى براحته الضخمة ، ثم قال فى هدوء : « قلت لك إنك لن تأتى » .. وبدفعة واحدة رد الزنجى فى الماء ، فعاد هذا يقول فى أنين : « لماذا يا سارو ؟ .. لماذا يا سارو ؟ » .

واختلط صوته الحزين باصطفاق المجذافين وهما يضربان سطح الماء ، الأمر الذى كان له وقع سيئ على (أجوستينو) ، أثار فى نفسه شعوراً من الإشفاق المضطرب ، فتطلع إلى (سارو) الذى ابتسم قائلا : « إنه مزعج .. فما شأننا به ؟ » .

وكان القارب قد ابتعد مسافة ما عن الشاطئ ، وتلفت (أجوستينو) فرأى الزنجى يخرج من الماء . . وخيل إليه أنه يهز له قبضته متوعداً ! .. بينما تناول (سارو) المجذافين فى هدوء فأودعهما القارب ، ثم سعى إلى المقدمة ففك الشراع وشده على الصارى ::

وخفق الشراع مضطرباً لحظة ، كأنما كانت الريح تهب على جانبيه فى آن واحـــد . ثم اهتز فجأة بعنف وانتفخ بالريح ، ومال إلى اليسار .. وانصاع القارب لاتجاهه فلزم هو الآخر الجانب الأيسر ، وشرع يطوى الموج ، يسيره نسيم خفيف .. فقال (سارو) :

— والآن ، نستطيع أن نستلقى ونستريح قليلا ..

واستقر فى قاع القارب ، ودعا (أجوستينو) إلى أن يستلقى إلى جواره ، قائلا : « إذا جلسنا فى القاع ، زادت سرعة انطلاق القارب » .. فأطاع (أجوستينو) واستلقى بجواره ، ومضى القارب مسرعاً رغم ثقل بنيانه ، يعلو ويهبط مع الأمواج ، ومؤخرته ترتفع أحياناً ، كدجاجة صغيرة تحاول أن تلتقط شيئاً من الأرض للمرة الأولى .. وكان (سارو) مستلقياً ورأسه مستند إلى المقعد ، وإحدى ذراعيه خلف عنق (أجوستينو) تمسك بالدفة .. وبعد أن ظل برهة لا ينبس ببنت شفة ، قال : « أتذهب إلى المدرسة ؟ » .

وتطلع (أجوستينو) ، فإذا (سارو) نصف راقد ، وقد لاح كأنه يعرض خياشيمه الواسعة الملتهبة لهواء البحر ، كى يبردها .. وكان فمه نصف فاغر تحت شاربيه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وقد كشف قميصه المفتوح الصدر عن شعر قذر ، مشعث ، اختلط البياض فى لونه بالسواد ..

فأجابه (أجوستينو) وقد أخذ يرتجف فرقاً : « أجل » .

— وفى أية سنة دراسية أنت ؟

— فى السنة الثالثة ..

فقال له (سارو) : « هات يدك ! » .. وقبل أن يرفض (أجوستينو) ، أمسك بها .. كانت قبضته تبدو لأجوستينو إثماً . وكانت الأصابع الست القصيرة الغليظة قد أحاطت بيده كلها والتقت تحت راحتها . وقال (سارو) وهو يتزحزح فى اضطجاعته ليتخذ وضعاً أكثر إراحة ، ويغرق فى استغراقة منتشية : « وماذا يعلمونك فى المدرسة ؟ » .

فأجاب أجوستينو متلعثماً : « اللاتينيـة .. والإيطاليـة .. والجغرافيا .. والتاريخ .. » .

فسأله (سارو) بصوت خفيض : « هل يلقنونكم الشعر .. الشعر البديع ؟ » ..

فأجاب أجوستينو : « نعم .. هم يلقنونا الشعر أيضاً » .

— قل لى بعضاً مما تحفظ ..

وانحرف القارب ، فحول (سارو) الدفة ، دون أن يغير من وضعه الذى ارتاح له .. وقال (أجوستينو) وهو يزداد شعوراً بالحيرة والخوف : « لست أدرى .. إننى أحفظ كثيراً من الشعر .. قصائد كاردوتشى .. » .

فأجاب (سارو) بلهجة آلية : « آه ، أجل .. كاردوتشى .. قل لى قصيدة من كاردوتشى » .

فقال (أجوستينو) متسائلا ، وهو فى ذعر من اليد التى لا تبغى

أن تفلته ، رغم محاولته أن يتملص منها شيئاً فشيئاً : « تبغى قصيدة « نافورات كليتونو ؟ » .. فأجاب (سارو) فى لهجة حالمة : « أجل .. نافورات كليتونو ! » .

فشرع (أجوستينو) يردد فى صوت مرتجف : « أشبه بالجبال المرمرية العالية ، منها بالأشجار الهيفاء الداكنة فى مهب الريح » :

... وازدادت سرعة القارب ، وظل (سارو) راقداً فى اضطجاعته المريحة ، مغمض العينين ، رافعاً أنفه فى مهب الريح .. وراح يهز رأسه إلى فوق وإلى تحت وكأنه يستمرئ الأبيات التى تتلى عليه .. وتشبث (أجوستينو) بالشعر وقد رأى فيه الوسيلة الوحيدة التى تتيح له مهرباً من الحديث الذى أحس بغريزته أنه خطر ، غير مأمون ، فواصل ترديد الشعر فى إلقاء بطىء ، واضح .. وظل طيلة الوقت يسعى لتخليص يده من تلك الأصابع الست التى كانت تأسرها ، لكنها كانت تزداد إطباقاً عليها أكثر من قبل ! وتبين فى جزع أن القصيدة أوشكت أن تنتهى ، فلما أعياه التماس الحيلة ، ألحق بآخر سطر من القصيدة ، السطر الأول من قصيدة « أمام القديس جيدو » .. وهنا تجلى الدليل — إذا كان قد أعوزه الدليل — على أن (سارو) لم يكن مهتماً بالشعر ، وإنما كان يبغى أمراً آخر جد مختلف .. أما ما هو ذاك الأمر ، فهذا ما لم يستطع (أجوستينو) أن يدركه ! .. ونجحت التجربة ، وانتقل (أجوستينو) إلى القصيدة الثانية ، دون أن تبدر من (سارو) أنفه

إشارة إلى أنه لاحظ التغير الذى حدث .. وما لبث (أجوستينو) أن كف عن الإلقاء ، وقال فى صوت مغيظ : « دع يدى .. أرجوك » وحاول فى الوقت ذاته أن يجذب يده بعيداً ..

وانتبه (سارو) ، ففتح عينيه وتحول ينظر إليه ، دون أن يفلت يده .. ولعله قرأ على وجه (أجوستينو) من النفور العنيف ، والفزع الظاهر ، ما جعله يتحقق من أن خطته — إذ كانت له بالتأكيد خطة — قد منيت بفشل ذريع .. فأخذ يرفع إصبعاً بعد أخرى — فى تؤدة — عن يد (أجوستينو) التى كانت تنضح بالألم ، وقال بصوت خفيض ، وكأنه يحدث نفسه : « ما الذى تخافه ؟ .. ها قد آن أن نهبط إلى الشاطىء » .. وجر نفسه حتى استوى على قدميه ، فجذب الدفة وأدارها ، وإذ ذاك ولى القارب مقدمه صوب الشاطئ ..

* * *

● ونهض (أجوستينو) من قاع القارب وهو لا يزال يفرك يده المتقلصة العضلات ، دون أن يتفوه بكلمة ، ثم انتقل ليجلس فى المقدمة .. ولم يكن بين القارب والشاطئ إذ ذاك مسافة تذكر ، فاستطاع أن يرى البر .. تلك الرقعة البيضاء من الرمال التى لوحتها الشمس ، والتى كانت متسعة عند المقدمة ، ومن خلفها تجلت خضرة أشجار الصنوبر السامقة ، الكثيفة — إذ كانت (ريو) تقع

فى ثغرة بين الكثبان العالية ، يتوجها غاب ذو لـون أزرق مخضوضر – على أن (أجوستينو) أبصر ، قبل أن يبلغا (ريو) ، جمـاعة من الناس على الشاطئ ، وقد انبعث من وسطهم خيط طويل من الدخان الأسود . فالتفت إلى (سارو) ، الذى كان جالساً فى المؤخرة ، مسيطراً على الدفة بيد واحدة ، وتساءل : « هل سنهبط هنا ؟ » .

فأجاب (سارو) فى غير اكتراث : « أجل ، فهذه ريو » .

وازداد القارب دنواً من الشاطئ ، فرأى (أجوستينو) الجماعة الملتفة حول النار تتفرق فجأة وتتسابق جرياً إلى حافة الماء .. وتبين لتوه أنهم صحابه الغلمان ، ورآهم يلوحون بأيديهم ، ولعلهم كانوا يصيحون ، بيد أن الريح حملت أصواتهم بعيداً .. فتساءل فى انفعال : « أهم هؤلاء ؟ » .

قال سارو : « أجل .. هم ! » .

وازداد القارب دنواً حتى أصبح فى وسع (أجوستينو) أن يميز الأولاد .. كانوا جميعاً هناك : « تورتيا ، وبرتو ، وساندرو ، وجميع الآخرين » . وكان الزنجى « هومز » هناك ، يقفز على طول الشاطئ ، ويصيح مع الآخرين .. وداخل (أجوستينو) ؛ إذ رآه هناك ، شىء من المضض لم يدر مبعثه !

* * *

● واندفع القارب بمقدمه إلى الشاطئ ، ولكن (سارو) حوله بلفة سريعة للدفة ، فاتخذ اتجاهاً عرضياً ، ثم ألقى بنفسه على الشراع فأمسك به بكلتا يديه ، وخفضه إلى السطح .. فدار القارب حول نفسه ثم سكن فى الماء الضحل ، وإذ ذاك تناول (سارو) من قاعه خطافاً للرسو ، ألقى به إلى البحر ، وقال : « هيا بنا إلى الشاطئ » .. ثم تسلق حافة القارب ، وخاض فى المـاء ، ليسعى إلى الأولاد الذين كانوا على الشاطئ فى الانتظار .

ورأى (أجوستينو) الأولاد يلتفون حول (سارو) ، وبدا له أنهم يهنئونه لأمر استقبله بهزة من رأسـه . فلما حان دوره فى الاقتراب ، استقبله الأولاد بتصفيق أشد ، فخيل إليه لحظة أنهم كانوا يرحبـون به فى ود ، بيـد أن ضحكاتهم كانت ساخرة ، لاذعة .. وصاح (برتو) : « إن (بيزا) العزيز يستعذب النزهة فى البحر ! » ، بينما وضـع (تورتيا) أصابعه فى فمـه ، وأرسل صفيراً مستهجناً ، فقلده الآخرون .. حتى (ساندرو) الذى كان متحفظاً فى العادة ، رمق أجوستينو فى ازدراء .. أما الزنجى ، فلم يفعل سوى أن راح يقفز حول (ساندرو) الذى يمر لفوره شطر النار التى كان الأولاد قـد أشعلوها على رمال الشاطئ .. وسـار (أجوستينو) مذهولا ؛ يخالجه خوف مبهم ، إلى حيث جلس بين الآخرين حول النار ::



واندفع القارب بمقدمه إلى الشاطئ ، ولكن (سارو) حوله بلفة سريعة للدفة ، فاتخذ اتجاهًا عرضيًا ، ثم ألقى بنفسه على الشراع ..

وكان الأولاد قد أقاموا ما يشبه الفرن ، من الرمال الرطبة المضغوطة ، أشعلوا بداخله ناراً اتخذوا لها من أكواز الصنوبر وإبره وفروعه وقوداً .. وعند فتحة الفرن ، كانت ثمة كومة من أكواز الأذرة ، تشوى ببطء . كما كانت ثمة فاكهة كثيرة وبطيخ على على ورق من أوراق الصحف ، بالقرب من النار ..

وقال (برتو) حين جلسوا جميعاً : « إنه ظريف .. صديقنا (بيزا) ! .. إنك و (هومز) ندان متشابهان ، فخليق بكما أن تجلسا معاً .. إنكما أخوان .. هو أسود ، وأنت أبيض .. هذا كل ما بينكما من فارق .. وكلاكما يحب النزهات فى القارب ! » .

وضحك الزنجي معجباً ، بينما انحنى (سارو) يقلب أكواز الأذرة أمام النار .. وأخذ الآخرون يضحكون فى استهزاء . وتمادى (برتو) فدفع (أجوستينو) دفعة طوحت به على (هومز) ، فتماس ظهراهما لحظة ، وأحدهما يضحك فى غير ارتياح ، والثانى حائر ، ممتعض .. وقال (أجوستينو) فجأة : « لست أفقه ماذا تعنون ! .. لقد قمت بنزهة فى القارب ، فأى ضير فى هذا ؟ » .

فردد كثيرون فى أصوات ساخرة : (آه .. حقاً ، أى ضير فى هذا ؟ .. قام بنزهة فى القارب .. أى ضير فى هذا ؟ » :

وأمسك بعضهم جنوبهم من فرط استغراقهم فى الضحك ، وعاد (برتو) يلتفت إلى أجوستينو مكرراً : « أجل ، أى ضير ؟ .. لا ضير على الإطلاق ! .. بل إن (هومز) يراها نزهة رائعة ..

أليس كذلك يا هومز ؟ » .. فهز الزنجى رأسه موافقاً وقد بدا عليه الانشراح .. وإذ ذاك بدأت الحقيقة تنبثق فى ذهن (أجوستينو) وئيداً ، فلم يتمالك أن رجح وجود علاقة بين لمزاتهم وبين مسلك (سارو) فى القارب ، فقال : « لست أدرى ما الذى ترمون إليه ، فإننى لم آت خطأ فى القارب : لقد حملنى (سارو) على أن ألقى عليه بعض الشعر .. وهذا كل ما جرى ! » .

... فسمع أصواتهم تنبعث من كل جانب : « آه .. آه ، من تلك الأشعار ! » .. فصاح (أجوستينو) وقد تضرج وجهه : « أليس ما أقول حقاً يا سارو ؟ » .. لكن (سارو) لم يجب بنعم أو لا ، بل قنع بالابتسام ، وهو يرقبه طيلة الوقت فى فضول غريب ! .. وفسر الأولاد مابدا عليه من عدم اكتراث مصطنع ، بأنه ليس فى الواقع سوى ستار لإخفاء غدره وغروره إزاء أكذوبة (أجوستينو) ، فصاحوا معاً : (آه .. طبعاً ! .. إنه يسأل الخمار ما إذا كانت خمره طيبة ، ولن يجسر الخمار على أن يجيب بالنفى ! .. أليس كذلك يا سارو ؟ .. آه ، حيلة لطيفة .. واهاً لك يا بيزا .. يا بيزا ! » .. ووجد الزنجى فى هذا ثأراً يرضى كرامته ، فأحس باغتباط .. وفجأة تحول (أجوستينو) إليه وهو يرتعش لفرط الحنق وقال : « ما الذى يضحكك ؟ » .

فأجاب وهو يتراجع : « لست أضحك » .. وتدخل (برتو)

قائلا : « ما ينبغى لكما أن تتشاحنا .. لسوف يسعى (سارو) كى يعيد الود بينكما » .

* * *

● على أن الأولاد ما لبثوا أن فقدوا اهتمامهم بالموضوع — إذ انتهى إلى غير شجار — فأخذوا يتحدثون فى مسائل أخرى ، ويصفون كيف تسللوا إلى حقل سرقوا منه الأذرة والفاكهة ، وكيف رأوا المزارع يندفع نحوهم ساخطاً ، ممسكاً ببندقيته ، فلاذوا جميعاً بالفرار ، بينما أطلق المزارع عليهم بضع طلقات من بارود (الرش) دون أن يصيب منهم أحداً .. وفى تلك الأثناء كانت أكواز الأذرة قد نضجت على الجمر وغدت شهية الشكل ، فأخرجها (سارو) من الفرن وأخذ يوزعها عليهم بطريقته الأبوية المألوفة : وانتهز (أجوستينو) فرصة انهماكهم فى أكل الأذرة فقفز إلى (ساندرو) الذى كان يجلس على حدة يتناول نصيبه حبة حبة ، وشرع يقول له : « لست أفهم .. » ، ولكن هذا رمقه بنظرة جعلته يوقن من أن لا داعى للكلام ! .. ثم قال (ساندرو) فى تؤدة : « لقد جاء الزنجى مستقلا (الترام) ، وقال إنك و (سارو) خرجتما للنزهة فى القارب » .

— ولكن .. أى ضير فى هذا ؟

فأجاب (ساندرو) وقد غض بصره : « لا شأن لى فى هذا ::

إنه شأنك وشأن الزنجى . أما (سارو) .. » وأمسك عن الكلام ، ونظر إلى (أجوستينو) ، فسأله هذا : « أكمل ! » .

— الواقع إننى لا أجرؤ على الخروج وحيداً مع (سارو) !

— ولكن .. لماذا ؟

فتلفت (ساندرو) حوله فى حذر ، ثم أخذ يفضى فى صوت خفيض ، بالشرح الذى كان (أجوستينو) قد حدسه ، وإن لم يستطع أن يبرره ، بل لم يزد على أن قال : « آه » .. ثم عجز عن أن يضيف شيئاً ، فعاد إلى مكانه بين الآخرين .. وكان (سارو) يجلس وسط الأولاد ، ورأسه الرصين الملامح ، الطيب السمات ، مائل إلى أحد الجانبين ، فبدا تماماً كالأب محوطاً بأبنائه ! .. بيد أن (أجوستينو) أحس — إذ أبصره — بكراهية نحوه فاقت ما كان يكنه للزنجى . وكان مما زاد (أجوستينو) بغضاً له ذلك الصمت الذى التزمه حين استنجد به ، وكأنه كان يبغى الإيحاء للأولاد بأن ما اتهموه به قد حدث فعلا ! .. بل إن (أجوستينو) لم يتمالك أن يلاحظ — إلى جانب هذا — أن احتقارهم وسخريتهم قد حفرا بينه وبينهم هوة واسعة .. عين الهوة التى فطن الآن إلى أنها كانت تفصل بينهم وبين الزنجى ! .. كل ما هنالك من فارق ، هو أن الزنجى بدلا من أن يستشعر مثله هواناً وألماً ، بدا وكأنه يستمرىء الوضع : ولقد حاول أجوستينو أكثر من مرة أن يدير دفة الحديث نحو الموضوع الذى كان يضنى باله ، ولكنه كان يقابل دائماً

بضحك وازورار مهين ! .. ثم إنه فوق ذلك ظل لا يفهم تماماً ما حدث ، رغم شرح (ساندرو) الذى كان واضحاً كل الوضوح ، ولاح له أن ظلاماً يكتنف كل شىء حوله ، ويمتد فى أغوار نفسه ، وكأنما لم تكن تحيط به غير أشباح ، وأشكال غامضة مخيفة ، بدلا من الشاطىء والبحر والسماء ..

وكان الأولاد فى تلك الأثناء قد فرغوا من التهام الأذرة وطوحوا بالأكواز العارية على الرمال ، فهتف أحدهم : « هيا نسبح فى مياه ريو » . وقوبل الاقتراح بموافقة إجماعية فى الحال ، وذهب (سارو) معهم — إذ كانوا قد اتفقوا على أن يحملهم فى القارب عند العودة إلى (بلاج فيزبوتشى) — وفيما كانوا يسيرون على الرمال ، تخلف (ساندرو) عن الآخرين ، وسعى إلى (أجوستينو) فقال له : « إذا كان الزنجى قد أساء إليك ، فلم لا تعلمه كيف يخافك ويحسب لك حساباً ؟ » .

فتساءل (أجوستينو) فى استخذاء : « وكيف ؟ » .

— أذقه « علقة » طيبة .

قال (أجوستينو) وهو يذكر تنافسهما فى مباراة الذراع : « ولكنه أقوى منى .. اللهم إلا إذا عاونتنى » .

— ولماذا أعاونك ؟ .. إن المسألة تخصك .. وتخصه !

وتعمد أن ينطق الكلمات الأخيرة بلهجة أوحت بأنه كان من رأى الآخرين فيما يتعلق بسبب عداء (أجوستينو) للزنجى .. ودهم

فؤاد (أجوستينو) شعور لاذع فظيع المرارة : إذن فقد كان (ساندرو) — الوحيد الذى أبدى له شيئاً من العطف — يؤمن بتلك الفرية ، هو الآخر !

وابتعد (ساندرو) بعد أن أزجى إليه تلك النصيحة ، وانضم إلى الآخرين — وكأنه خشى أن يرى مع (أجوستينو) ! — فدلفوا من الساحل إلى غابة نبتت فيها أشجار صنوبر حديثة العهد ، ثم عبروا درباً رملياً ، وولجوا منابت الغاب .. وكانت أعواد الغاب سميكة ، طويلة ، تتوج كثيراً منها شعيرات بيضاء .. وأخذ الأولاد يظهرون ويختفون وهم يمرقون بين الأعواد الخضراء الطويلة ، متخيرين مواطىء أقدامهم على الأرض اللزجة ، منحين عن طريقهم الأوراق السميكة الوبرية ، التى كانت تحدث حفيفاً خشناً .. وانتهوا أخيراً إلى بقعة انفسح فيها الفراغ بين أعواد الغاب ، وبدت ضفة منخفضة ، موحلة .. وتدافعت عند مرآهم ضفادع كبيرة راحت تقفز من كل اتجاه على سطح الماء المعتم ، الراكد : وإذ ذاك شرعوا جميعاً يخلعون ثيابهم ، كل أمام الآخر ، تحت بصر (سارو) الذى جلس فى كامل ثيابه على صخرة تطل على الحمأة ، وبدا مستغرقاً فى تدخين سيجاره ، لكنه كان فى الواقع يرمقهم طيلة الوقت من خلال أجفانه المسدلة .. وخجل (أجوستينو) من أن ينضم إليهم ، بيد أنه خشى أن يسخروا منه ، فلم يلبث أن شرع

بدوره يفك أزرار سرواله ، متباطئاً فى ذلك ما استطاع ، ومثبتاً بصره على الآخرين فى حيطة ..

* * *

● وكأنما اشتد بالآخرين الفرح للتخلص من ثيابهم ، فأخذ كل منهم يرتطم بالآخر وهو يصيح فى سرور ! .. كانوا يلوحون ناصعى البياض وسط أعواد الغاب الخضراء ، تشوب بياضهم قتامة كالحة فيما بين الفخذين والبطن ، أضفت على مظهرهم لوناً من الخشونة المستهجنة ، كتلك التى تظهر عادة على العمال الذين يشتغلون بأيديهم . وكان (ساندرو) الرشيق ، المتناسق الأعضاء ، ذو الشعر الأصفر النامى على جسمه — والذى كان يضاهى فى اللون شعر رأسه — هو الوحيد الذى لايكاد يبدو عارياً .. ولعل ذلك كان راجعاً إلى أن السمرة كانت موزعة على جسمه كله توزيعاً منسقاً .. وكيفما كان الأمر ، فإن عريه بدا مختلفاً عن ذلك العرى المثير للنفور ، والذى يشاهد فى الحمامات العامة !

وأخذ الأولاد يمارسون كل أنواع اللعب البذيئة قبل أن يغوصوا فى الماء ، فى قحة أذهلت (أجوستينو) ، الذى كان كل ذلك جديداً عليه ! .. وكان هو الآخر عارياً ، وقد اسودت ساقاه بالوحل البارد القذر ، لكنه كان يود لو يلوذ بأعواد الغاب ليختفى بينها ، ولو ليفر من نظرات (سارو) الذى كان يجلس محدودب الظهر ، جامداً — كما لو كان إحدى تلك الضفادع الضخمة التى

تسكن المستنقع – يرمقه خلال عينين نصف مغمضتين !.. بيد أن نفور أجوستينو كان ، كالمعتاد ، أقل من تلك الجاذبية الغريبة التى كانت تشده إلى العصبة ! .. بل لقد كان الشعوران ممتزجين إلى حد لا يمكن معه الفصل بينهما ، ويستحيل عليه عنده أن يميز بين استبشاعه لما يجرى ، واستطابته المسرة التى كانت وراء الاستبشاع .
وأخذ كل من الأولاد يعرض جسمه بدوره ، مزهواً برجولته وقوته البدنية . وكان (تورتيا) أكثرهم غروراً ، لكنه كان رغم قوته الفائقة ، أكثرهم سماجة ، وأقذرهم مظهراً : ومع ذلك فقد أوحى إليه الغرور بأن يصيح فى أجوستينو : « هب أننى ظهرت أمام أمك عارياً – هكذا – ذات صباح بديع ، فماذا تراها قائلة ؟ .. أتراها ترافقنى ؟ » .

فقال أجوستينو : « لا » .. ومع ذلك فقد أردف تورتيا : « بل أؤكد لك أنها ستسعى إلى فى الحال ، ولسوف ترمقنى بنظرة شاملة ، لتستبين مدى صلاحيتى ، ثم تقول : « هيا يا تورتيا .. تعال نخرج للنزهة » ! .. وكان هذا القول من السخف بحيث حملهم جميعاً على الضحك .. ثم ما لبثوا أن توائبوا تباعاً إلى الماء مثل الضفادع التى أزعجوها بمقدمهم . وكان الشاطئ محاطاً بالغاب تماماً ، بحيث لا يلوح للبصر من النهر سوى جزء قصير .. لكنهم ما أن أصبحوا فى عرض المجرى ، حتى رأوا النهر بأكمله ، وقد

انسابت مياهه الداكنة السريعة بحركة لا يلاحقها البصر ، نحو المصب البعيد الذى كان يتوسط الضفتين الرمليتين .
وكان النهر فى الناحية الأخرى يمضى بين خطين من أحراش فضية تلقى ظلالا بهيجة على صفحة الماء ، إلى أن يصل المرء إلى جسر حديدى صغير ، تتكاثف خلفه عيدان الغاب وأشجار الصنوبر والسرو ، إلى درجة تسد الطريق . وكان ثمة بيت أحمر يتوارى بين الأشجار ، كأنه الحارس على الجسر !
وأحس (أجوستينو) بالهناءة لحظة ، وهو يسبح فى ذلك الماء البارد القوى الجريان ، الذى خال أنه يكاد يحمل ساقيه معه ، فنسى كل ما كان يضايقه من إساءات ولمزات . وأخذ الأولاد يسبحون فى كل اتجاه ، ورؤوسهم وسواعدهم تعلو على السطح الأخضر الرقيق ، وأصواتهم تتردد فى الجو الرطب الراكد الهواء .. وكانت أجسامهم تبدو ، خلال الماء الشفاف ، كما لو كانت سيقاناً بيضاء لنباتات تنمو فى الأعماق ، والتيار يعبث بها فيحركها فى هذا الاتجاه وذاك .. وسبح (أجوستينو) حتى بلغ (برتو) الذى لم يكن بعيداً عنه ، وسأله : « هل فى هذا النهر أسماك كثيرة ؟ » .
فتأمله (برتو) وقال : « ما الذى تفعله هنا ؟ .. لم لم تبق لتؤنس سارو ؟ » .. فأجاب (أجوستينو) وقد عاوده الشعور بالشقاء : « إننى أحب السباحة » .. ثم استدار وتولى سابحاً ..

بيد أنه لم يكن سباحاً قوياً ، مدرباً كالآخرين ، فسرعان ما أدركه التعب ، وترك التيار يحمله نحو مصب النهر .. وما لبث أن خلف الأولاد وضجيجهم وراءه ، وأخذ سياج الغاب يبهت رويداً ، وبدأ يرى خلال الماء الصافى ، العديم اللون ، رمال القاع ، والماء يدور حولها فى دوامات صغيرة مستمرة .. وانتهى أخيراً إلى بركة داكنة الخضرة ، كأنها عين المجرى الرقراقة ، فلما اجتازها مست قدماه الرمال ، وبعد أن كافح هنيهة قوة التيار ، صعد إلى الضفة ..
كان الجدول عند انسيابه إلى البحر يلتف حول نفسه ، مكوناً ما يشبه عقدة من الماء ، ثم يفقد كيانه وينتشر كالمروحة ، ويفقد عمقه رويداً حتى يغدو كقناع خفيف سائل على وجه الرمال الناعمة . وكان البحر يندفع إلى النهر فى مويجات مزبدة : وكانت ثمة برك صغيرة فى الرمال المغرقة بالماء ، نسيها التيار ، وانعكست عليها السماء المشرقة ..

* * *

● وأخذ (أجوستينو) يتجول عارياً على الرمال الناعمة اللامعة برهة ، مستمتعاً بأن يطأها بقدميه فيجعل الماء يرتفع إلى السطح ويغرق مواطئ القدمين .. وتولته رغبة قوية ، لم يدر مبعثها ، فى أن يجتاز النهر خوضاً ، وأن ينطلق فى السير على الشاطئ ، مخلفاً الأولاد و (سارو) ، وأمه ، وكل حياته القديمة وراءه .. فمن يدرى ، لعله لو سار قدماً إلى الأمام ، لوصل فى النهاية إلى بلد

لا وجود فيه لتلك الأشياء الفظيعة .. بلد يجد فيه من الترحيب ما يصبو إليه ، ويتاح له فيه أن ينسى كل الأشياء التى تعلمها ، ثم يعود إلى تعلمها من جديد خالية من العار والتقزز ، منطوية على اللطف والتدرج الطبيعى كما كان ينبغى ، فيما بدا له !

وأنعم البصر فى الأفق المعتم ، البعيد ، الذى يمتد إلى أقصى حدود البحر والشاطئ والغابة ، وأحس بأنه مشدود إلى ذلك الاتساع المترامى ، وكأنه منجذب إلى شىء يحرره من قيوده ! .. ولكن مالبثت صيحات الأولاد — وهم يتسابقون على الشاطئ — أن أيقظته من تخيلاته الحزينة . وكان أحدهم يلوح بثيابه فى الهواء ، بينما كان (برتو) ينادى : « بيزا .. إننا منصرفون ! » .. فجمع شتات نفسه ، وسار على حافة الماء ليلحق بالجماعة .

وأخذ الأولاد يتجمعون فى الماء الضحل ، و (سارو) ينذرهم بلهجة أبوية بأن القارب أصغر من أن يضمهم جميعاً ، بيد أنه كان من الواضح أنه لم يكن يقصد سوى مداعبتهم .. إذ لم يلبث الأولاد أن ارتموا على القارب كالمجانين ، متصايحين .. وأمسكت عشرون قبضة بجوانب القارب ، وفى مثل لمح البصر كان قد امتلأ بالأجسام المتزاحمة .. واستلقى بعضهم فى القاع ، بينما جلس بعضهم متلاصقين فى المؤخرة حول الدفة ، وبعضهم فى المقدمة ، وآخرون على المقاعد ، وغيرهم على حواف القارب تاركين أقدامهم مدلاة فى

الماء . وتبين بالفعل أن القارب أصغر من أن يتسع لمثل هذا العدد ، إذ لم يلبث الماء أن بلغ حوافه !

وقال (سارو) فى بشاشة ضافية : « نحن جميعاً هنا .. ألسنا كذلك ؟ » . ثم وقف ونشر الشراع ، فانطلق القارب مسرعاً فى البحر ، والأولاد يحيون رحيله بصيحاتهم . ولكن (أجوستينو) لم يشاطرهم مرحهم ، بل كان يترقب فرصة سانحة ليثبت براءته ويمحو عن نفسه تلك الوصمة الظالمة التى أكربته ! وانتهز فرصة انهماك الأولاد فى نقاش عنيف، فقفز إلى جوار الزنجى –(هومز)– الذى كان يجلس بمعزل، ولوى ذراعه فى قسوة وسأله : « ما الذى ذهبت فأشعته عنى ؟ » .

وكان من سوء الطالع أنه اختار تلك اللحظة ، ولكنها كانت أول فرصة سنحت له ليقترب من الزنجى الذى كان حريصاً على أن يظل بعيداً عنه حين كانا على الشاطىء .. وأجاب (هومز) دون أن ينظر إليه : « إنى قد قلت الحق » .

– وما هو هذا الحق ؟

ووجف إذ أجابه الزنجى : « لا خير فى أن تلوى ذراعى بهذا الشكل .. أنا لم أقل غير الصدق . لكنك إذا ظللت توغر (سارو) ضدى ، فسأفضى إلى أمك بكل شىء .. لذلك يحسن بك أن تكون على حذر يا بيزا » !

فصاح (أجوستينو) وكأنه رأى هـوة عميقـة ، تنفغر تحت قدميه : « ماذا ؟.. ماذا تعنى ؟.. أمعتوه أنت ؟.. أنا .. أنا .. » ، وتلعثم ، وعجز عن أن يقرن بالكلام تلك الصـورة التى رسمها خياله فجأة . على أنه لم يجد فرصة للمضى ، فقد تصاعدت صيحات السخرية من جنبات القارب : وقال (برتو) ضاحكاً : « انظروا إليهما معاً .. تأملوهما ! .. ما أتعس حظنا إذ لم نحضر آلة تصوير لنلتقط صورتهما معاً » !

واسـتدار (أجوستينو) وقد تضرج وجهـه ، فرآهم جميعاً يضحكون .. حتى (سارو) بدت تحت شاربيه ابتسامة ، وهو يدخن سيجاره ، نصف مغمض العينين .. ونأى (أجوستينو) عن الزنجى– وكأنه يبتعد عن أفعى !– وجلس محتضناً ركبتيه بذراعيه، مرسلا بصره إلى البحر ، وقد اغرورقت عيناه !

* * *

● وكانت الشمس عند الأفق آخذة فى المغيب ، تحيط بها سحب نارية ، على حافة بحر بنفسجى ، مطلقة أسهماً من أشعة بللورية مدببة الأطراف . وارتفعت الريح ، فتباطأ القارب ، وقد مال على أحد جانبيه تحت ثقل حمولته من الركاب . وكانت مقدمته تشق البحر ، وكأنها موجهة نحو أشباح الجزر المعتمة ، البعيدة ، التى كانت تلوح خلال الغسق كأنها جبال تحف بهضبة نائية ! .. وأمسك (سارو) البطيخة التى سرقها الأولاد بين ركبتيه ، فشققها

بسكينة ، وقطعها ، ثم راح يوزع أجزاءها على الأولاد بروح أبوية ، فانقضوا عليها فى نهم ، ينهشون اللحم ويلفظون البذور .. ثم أخذت القشور التى جردوها من لحمها تطير إلى البحر واحدة إثر أخرى ..

وحان – بعد البطيخة – دور زجاجة النبيذ التى أخرجها (سارو) فى هدوء ، فدارت على الموجودين فى القارب . واضطر (أجوستينو) بدوره إلى أن يتناول منها جرعة – وكان النبيذ دافئاً، قوياً ، فصعد توآ إلى رأسه ! – حتى إذا عادت الزجاجة فارغة إلى مكانها ، أخذ (تورتيا) يغنى أغنية بذيئة ، فانضموا إليه جميعاً فى وقاحته . وكانوا بين كل أغنية وأخرى يحملون (أجوستينو) على أن يغنى هو الآخر ، إذ لاحظوا جميعاً ما كان عليه من كآبة .. لكنهم بدلا من أن يخففوا عنه ، راحوا يغيظونه وهم يحملونه على الغناء ! وكان هو يحس فى أعماقه هماً ثقيلا ، لم يزده البحر بنسماته ، والشمس الغاربة بلهبها الجميل ، سوى مرارة وقسوة ! .. وبدا له أن من الظلم البشع أن يجرى قارب كقاربهم ، على بحر مثل ذلك البحر ، وتحت سماء كتلك السماء ، محملا بالشر الخبيث ، والقسوة ، والزيف ، والفساد ! .. لقد كان القارب المكتظ بالأولاد – وهم يتمازحون فى قحة كالقرود الماجنة ، وقد جلس بينهم (سارو) السمين ، مغتبطاً – يبدو صورة بشعة ، كئيبة ، وسط هذا الجمال كله ! .. حتى لقد كان الفتى يتمنى فى بعض الأويقات لو يغرق

القارب ، بل كان يؤثر أن يموت هو الآخر ، حتى لا تصيبه عدوى هذا الدنس وأوشابه ! .. ألا ما أطول المدة التى خال أنها انقضت منذ الصباح ، حين قدر له أن يرى للمرة الأولى تلك المظلة الحمراء على (بلاج فيزبوتشى) ؟ ! .. لكأنما كان الصباح يمت إلى عصر فات وانقضى !

وكان القارب كلما ارتفع على موجة عالية ، صرخ الغلمان ، فتسرى فى بدنه قشعريرة .. وكلما تحدث إليه الزنجى فى لهجته المنفرة ، وفى صغار العبيد وريائهم ، حاول أن لا يصغى إليه ، وتزحزح ممعناً فى البعد عنه ! كان يحس – فى غير وضوح – بأنه انتقل فى ذلك اليوم المشئوم إلى عهد حافل بالصعاب والتعاسات ، لم ير لنفسه منه مهرباً ! .. وما أن مس القارب الشاطىء ، حتى هرع (أجوستينو) منه دون أن يودع أحداً .. لكنه لم يلبث أن خفف من سرعته قبل أن يمضى بعيداً ، والتفت خلفه فرأى الأولاد يساعدون (سارو) على جذب القارب إلى الشاطىء .. وكان الظلام قد هبط رويداً رويداً على الفضاء .

الفصل الرابع

● كان ذلك اليوم بداية عهد معتم، مضطرب، بالنسبة لأجوستينو. ففى ذلك اليوم فتحت عيناه قسراً ، فإذا الذى تعلمه أكثر مما يتسع له ذهنه .. كان عبئاً فوق ما يستطيع أن يحمـل ! .. ولم تكن طرافة الأشياء التى تعلمها ، وجدتها ، هى التى أضنتـه وسممته ، وإنما كان الذى أضناه وسممه : نوعها ! .. كانت أفظع وأبشع من أن يهضمها ويستوعبها .. فلقد خطر له ــ على سبيل المثال ــ أن علاقاته بأمه لن تلبث ــ بعد الأمور التى تكشفت له فى ذلك اليوم ــ أن تصفو وتتضح ، وأن عـدم الارتياح ، والامتعاض ، بل الاشمئزاز ، وغير ذلك من المشاعر التى أيقظها حنانها فى نفسه ، لن تلبث ــ بعـد الشرح الذى أزجاه له (سارو) ــ أن تتلاشى وتهدأ ، وتستحيل بسحر ساحر إلى إدراك مستكين ..

بيـد أن الأمر لم يتم على هذا النحو ، إذ بقى عـدم الارتياح ، والامتعاض ، والاشمئزاز ، مسيطرة على نفسه ، غير أن هـذه الأحاسيس كلها .. كانت فى البداية منبعثة عن الصدمة المحيرة التى أصابت حبه البنوى نتيجة لإدراكه المبهم لأنوثة أمه .. فإذا بهـذه المشاعر تصبح ــ بعد ذلك الصباح الذى قضاه فى خيمة (سارو)ــ منبعثة عن شعور مرير من الفضول الآثم ، لا قبـل له باحتماله ، من فرط ما كان يسيطر عليه من احترام تقليدى لأمه !.. وبعد

أن حاول فى البداية أن يتحلل من تلك العاطفة ــ دون أن يفطن ــ لائذاً بنوع من الكراهية الظـالمة ، أصبح الآن يرى من واجبه أن يفصل المعلومات التى اكتسبها أخيراً ، عن الشعور برابطة الدم التى تربطه إلى شخص لم يعد يود أن يعتبره أكثر من .. امرأة !

أجل ، أصبح يحس أنه لو استطاع أن لا يرى فى أمه أكثر مما كان يرى (سارو) والأولاد : مجرد امرأة حسناء ! .. فإن كل شقوته لن تلبث إذ ذاك أن تتبدد .. ومن ثم أخذ يسعى، بكل ما أوتى من جهد ، وراء المناسبات التى لم تثبته على عقيدته هذه : غير أن النتيجة الوحيدة لسعيه تمثلت فى أن توقيره وحبه السابقين تحولا إلى قسوة وحساسية مرهفة !

وفيما كانت هذه « المعركة » تدور فى نفسه ، كانت أمه ــ فى البيت ــ لا تخفى عنه من نفسها أكثر مما اعتادت أن تستر من قبل، ولذلك لم تحس بأى تغير فى مسلكه نحوها ! .. لم تكن ، وهى أمه، لتشعر باستحياء منه . أما هو ، فصار يراها مثيرة للاشتهاء ! .. كان يسمعها تناديه ، فى بعض الأحيان، فيذهب إلى غرفتها ليجدها أمام مائدة الزينة ، فى قميص شفاف يكشف عن نصف ثدييها .. أو ربما استيقظ من نومه فرآها منحنية عليه تطبع قبلة الصباح على جبينه ، وقد انفرج شقا ثوب المخدع فسمحا له بأن يرى بجلاء شكل جسمها خلال قميص النوم الشفاف ، المتغضن .. ولقد تروح وتغدو أمامه ــ وكأنه غير موجود ــ ترتدى جوربيها أو تخلعهما.

أو تلبس ثيابها وتتعطر .. أو تأخذ زينتها .. وما إلى ذلك من أعمال كان (أجوستينو) — من قبل — يراها طبيعية ، فأصبحت تبدو له الآن مظاهر أو علامات واضحة لحقيقة أكثر شمولا وأخطر شأناً !.. ومن ثم أصبح ذهنه موزعاً بين الفضول والألم . وظل يقول لنفسه متكلفاً استخفاف الخبير العارف : « إنها ليست سوى امرأة ! » .. بيد أنه كان لا يلبث فى اللحظة التالية أن يشعر بالعجز عن احتمال ما كانت تبديه ، كأم ، من عدم الكلفة والتحفظ .. أو ما كان يجد نفسه مسوقاً إليه من تأمل ومراقبة لحركاتها ، فيود لو يصرخ فيها : «استرى جسمك .. اخرجى ولا تدعينى أراك ثانية ، فإننى لم أعد كما كنت من قبل ! » .

* * *

● على أن أمله فى أن لا يعتبر أمه أكثر من امرأة ، سرعان ما تصدع .. إذ لم يلبث أن تبين أنها وإن صارت بالنسبة إليه امرأة ، إلا أنها ظلت فى نظره — رغم ذلك — أمه ! .. وتبين أن الشعور القاسى بالعار ، الذى انبعث فى البداية عن مشاعره الجديدة ، لن يفارقه بعد اليوم !.. تبين أنها ستظل دائماً — بالنسبة له — المرأة التى أحبها ذلك الحب المطلق الطاهر .. ستظل دوماً تمزج بحركاتها الأنثوية ، مظاهر الحنان الخالص التى لم يكن يعرف طيلة عمره سواها .. أبداً لن يستطيع أن يفرق بين رأيه الجديد فيها ، وبين الذكريات الجريحة الخاصة بما كان لها من وقار وتبجيل فى نفسه !

.. لم يداخله الشك لحظة فى أن علاقتها بالشاب كانت بالفعل كما صورها الأولاد فى خيمة (سارو) !.. وأخذ يعجب فى نفسه من التطور الذى أصابه : فهو فى البداية لم يشعر بغير الغيرة على أمه ، والنفور من الشاب ! — وكان الشعوران على السواء ، مستخفيين ، وغير واضحى المعالم — بيد أنه ، فى جهاده ليحدد مشاعره ويهدئ من نفسه ، أصبح يرجو لو أنه أحس بالعطف على الشاب ، وبعدم الاكتراث لأمه ! .. لكن ذلك العطف بدا له نوعاً من التواطؤ ، كما بدا له عدم الاكتراث نوعاً من التهور والطيش !

* * *

● وأصبح لا يخرج معهما للنزهة فى القارب إلا نادراً ، إذ غدا يحرص عادة على أن يتفادى كل فرصة لأن يدعواه لصحبتهما . على أنه كان كلما ذهب معهما ، يدرس فى انتباه حركات الشاب وكلماته ، كأنما يود لو أنه تخطى حدود آداب المجتمع .. وكان يرقب أمه ، وكأنه يأمل أن يبدر عنها ما يؤكد وساوسه ! وكانت هذه المشاعر — فى الوقت ذاته — تنطوى على إرهاق لا يحتمله ، لأنها كانت على العكس تماماً مما كان يجب أن يشعر به .. ولأنه كان يود أن يشعر مرة أخرى بالرثاء الذى أثاره مسلك أمه النزق ذات يوم فى نفسه .. فقد كان الرثاء أقرب إلى

العواطف الإنسانية من هذا التربص وهذه المراقبة ، المجردين من الإشفاق .

* * *

● وأسلمته هذه الأيام الحافلة بالصراع النفسى ، إلى شعور مضطرب بالدنس .. أحس أنه لم يستبدل بطهره وسذاجته القديمين ما كان يرجوه من طمأنينة الرجولة ، وإنما استبدل بهما حالة كئيبة ، قلقة ، لم يجد فيها من الميزات ما يعوضه عما فيها من عناء ، بل كان يقابل فيها معميات جديدة تحيره إلى جانب الطلاسم القديمة !.. فما جدوى أن تتضح له الأمور ، إذا كان هذا الوضوح لا يجلب عليه سوى ظلال أشد قتامة من سابقتها ؟ .. وكان يسائل نفسه أحياناً : « أكان من يكبرونه سناً من الصبية يبقون على حبهم لأمهاتهم ، إذا ما علموا عنهن ما علمه عن أمه ؟ وكيف ؟ » .. وخرج من تساؤله إلى أن هذا العلم ولابد كفيل بأن يقضى فوراً على عاطفة البنوة فى نفوسهم !.. بيد أن هذا لم يحدث عنده ، وإنما قام العلم إلى جانب البنوة معاً فى ارتباط بغيض !

وكما يحدث فى بعض الأحيان ، أصبح مسرح هذه المكتشفات ، وذلك الصراع — وهو بيته — سجناً لا يطاق ! ففى خارج البيت ، كان البحر ، والشمس ، وجموع السابحين ، ومواكب النساء ، تشغل كلها باله ، وتفل من إرهاف أحاسيسه . أما بين جدران داره الأربعة ، ومع أمه — وحدهما — فقد كان يشعر بأنه معرض

لكل لون من ألوان الوساوس ، وبأنه موزع بين شتى أنواع التناقض !.. كانت أمه على (البلاج) امرأة كبقية النساء الكثيرات اللاتى يستمتعن بحمامات الشمس .. أما فى البيت ، فكانت تبدو قاهرة ، فذة ! وكما يبدو الممثلون على مسرح صغير ، أكبر من أحجامهم الطبيعية ، كانت كل بادرة أو كلمة من أمه تبدو واضحة بشكل غير عادى .. ولقد كانت ثمة روابط عاطفية وخيالية حية تربط (أجوستينو) إلى كل الأشياء المألوفة فى البيت .. كان منذ حداثته يرى لكل ردهة ، ولكل ركن أو حجرة ، شخصية غريبة لا يستطيع تحديدها تماماً .. كانت جميعها أماكن تستطيع أن توفق فيها إلى أغرب المكتشفات ، وأن تعيش فى أكثر المغامرات إغراقاً فى الخيال ، أما الآن ، وبعد أن التقى بأولئك الصبية فى الخيمة الحمراء ، فقد أصبحت تلك المكتشفات والمغامرات من نوع جديد ، ومن ثم لم يعد يدرى هل يزداد استغراقاً فيها ، أو فزعاً منها ؟!.. لقد اعتاد فيما مضى أن يتصور فى قطع الأثاث وفى الجدران مكامن ، وأشباحاً ، وأرواحاً ، وأصواتاً .. أما الآن ، فإن خياله — الذى ازداد نشاطاً عما كان عليه فى طفولته الغريرة — اتجه إلى الحقائق الجديدة التى خيل إليه أن الجدران ، وقطع الأثاث ، بل جو البيت كله ، زاخراً بها . وبدلا من الانفعالات البريئة التى كانت تنشأها قبلة أمه على خده — قبيل النوم — والنعاس الخالى من

الأحلام .. بات الغلام يتعذب فى لهب فضولى معيب كان يزداد جبروتاً فى الليل ، وكأنه كان يجد فى الظلام وقوداً لناره المدنسة !

كان يلوح لأجوستينو أنه يلمح فى كل مكان من البيت آثار وجود امرأة . . المرأة الوحيدة التى عرفها وألفها .. وكانت هذه المرأة هى أمه ! كان يحس وهو معها – وبطريقة ما – كما لو كان قد غدا حارساً يرقبها .. فإذا اقترب من بابها أحس بأنه يتجسس عليها .. وإذا لمس ثيابها ، أحس كأنه يلمسها هى ، لأن الثياب تضم جسدها .. وكان يحلم ليلا وهو مفتوح العينين ، وتراوده أضغاث تعذبه .. فيتصور نفسه أحياناً وقد ارتد طفلا ، يخاف كل صوت ، ويخشى كل خيال ، فيقفز من سريره يعدو ، كيما يلوذ بحمى فراش أمه ! .. ولكن ، ما أن تمس قدماه الأرض ، حتى يتبين – رغم خدر النعاس الجاثم على حواسه ، ورغم تشتت خواطره – أن خوفه لم يكن سوى قناع يستر ، فى إحكام ، فضوله .. وأنه لو ارتمى بين أحضان أمه فلن تلبث أوهامه الليلية أن تكشف للتو عن غرضها الحقيقى !

وكان يستيقظ أحياناً على حين غرة ، فيسائل نفسه عما إذا كان من المحتمل أن يكون الشاب صاحب القارب – فى تلك اللحظة بالذات – فى غرفة أمه التى لا يفصلها عن غرفته سوى جدار رقيق ! .. وكان يخال أنه يسمع أصواتاً تؤكد ريبه ، وأخرى تنقضها ، فيتقلب فى فراشه برهة متململا ، ثم لا يلبث فى النهاية أن يجد نفسه

فى الردهة – دون أن يدرك كيف بلغها – وقد وقف فى ثياب النوم عند باب مخدع أمه – يتسمع ويتجسس ! .. وذات مرة ، لم يقو على مقاومة الإغراء الذى كان يوسوس إليه بدخول الغرفة دون استئذان ، فاقتحمها ووقف فى وسطها جامداً ، تحت ضوء القمر الباهت المنساب خلال النافذة المفتوحة ، وقد علقت عيناه بالسرير ، حيث استطاع أن يتبين شعر أمه الأسود منتثراً على الوسادة ، وأطرافها المديدة ، الملفوفة ، الرقيقة ، مستكينة على الفراش ..

وسألته أمه إذ استيقظت : « أهذا أنت يا أجوستينو ؟ » .. فاستدار وهرع إلى غرفته دون أن يتفوه بكلمة ما !

* * *

● وكان عزوفه عن البقاء وحيداً مع أمه يدفعه إلى الإكثار من التردد على (بلاج فيزبوتشى) : لكنه كان يجد هناك أيضاً – فى ارتقابه – ألواناً من الضنى جعلت المكان بغيضاً إلى نفسه ، كالبيت تماماً ! .. ذلك أن مسلك الأولاد نحوه ، منذ خرج وحيداً مع (سارو) فى القارب ، لم يتغير البتة .. بل إنه اتخذ فى الواقع شكلا نهائياً واضح المعالم ، وكأنه قام على يقين ثابت ! .. فقد كان من المستحيل عليهم إقصاء هذه الفكرة عن عقولهم مادام الغلام قد قبل تلك الدعوة وذلك الإيثار المشئومين من (سارو) ! ومن ثم ، فإلى جانب الغيرة والكراهية اللذين استشعرهما الغلمان نحو (أجوستينو) منذ البداية ،

لثرائه ، قام سبب آخر حفزهم على ازدرائه : ذلك هو فجوره الذى توهموه !.. وبدا لعقولهم الموبوءة أن كلا من السببين يبرر الآخر ، وأن كلا منهما ينبعث عن الآخر ! بل لاح من معاملتهم المهينة ، القاسية ، أنهم يعتقدون أنه ما دام الصبى غنياً ، فمن الطبيعى أن يكون خليعاً ، فاسداً !.. ولم يحتج (أجوستينو) إلى طويل وقت كى يتبين العلاقة الخبيثة بين هذين الاتهامين ، فتولاه شعور غامض بأنهم كانوا يثأرون منه لأنه يختلف عنهم ، بل أرقى منهم !.. فقد كان الفارق الاجتماعى بينه وبينهم ، وارتفاع مستواه عنهم ، يتجليان فى ثيابه ، وفى حديثه عن الترف الذى يتوفر فى داره ، وفى ميوله وتأدبه فى الحديث . ولقد حفزه اختلافه الخلقى وسموه عنهم ، على أن ينكر ما اتهم به من أنه على أية علاقة بسارو ، فضلا عما كان يبدو عليه من تقزز من أخلاق الصبية وعاداتهم ، ومن ثم فقد انتهى ، بدافع المذلة التى ألفى نفسه فيها ، ودون ما اختيار حر من تلقاء نفسه ، إلى أن يقرر أن يصبح كما بدا أنهم يريدونه أن يكون : أن يصبح .. مثلهم !

وهكذا شرع يرتدى أقدم ثيابه وأقذرها ، الأمر الذى أثار دهشة بالغة فى نفس أمه — وكانت قد بدأت تلاحظ أنه لم يعد يعتز بمظهره ! — كما صار يحرص على أن يتجنب ذكر ما يحيطه من رفاهية فى بيته .. وراض نفسه على أن يشعر بمتعة ومسرة من وراء أساليب وعادات كانت حتى ذاك اليوم تثير اشمئزازه ! بل إنه

توسل يوماً بكل ما لديه من جهد ليهيىء أعصابه للإقدام على ما هو أنكى من ذلك كله ، فبينما كان الصبية يسلقونه يومئذ بنكاتهم المعتادة ساخرين ، متغامزين عن خروجه فى القارب وحيداً مع (سارو) ، اندفع هو قائلا إنه قد سئم الإنكار ، وأن ما اتهموه به قد حدث فعلا !.. وأنه لا يحفل بما إذا كانوا يعرفون أو لا يعرفون !.. وبهت (سارو) لهذا الإقرار الكاذب ، ولكنه لم ينكره ! — ولعله خشى أن يفضح فشله ! — واشتد الذهول فى البداية بالأولاد ، إذ سمعوا (أجوستينو) يعترف بحقيقة التخرصات التى تراءى لهم من قبل أن مجرد الإشارة إليه كان يعذبه — فقد كان شديد الخجل والحياء ، وما خطر لهم قط أن له مثل هذه الجرأة ! — بيد أنهم مالبثوا أن انهالوا عليه بالأسئلة عن حقيقة ما حدث ، وإذ ذاك فقد ما فرض على نفسه من اصطناع ، فاحمر وجهه ، ورفض أن ينبس بكلمة ما ! وكان من الطبيعى أن يؤول الأولاد صمته وفق هواهم ، فعزوه إلى الشعور بالعار ، وليس إلى جهله وعجزه عن الاختلاق !.. ومن ثم ازدادت سخريتهم ولمزاتهم قسوة عن ذى قبل ..!

* * *

● على أن الغلام كان قد تغير بالفعل ، فإن مجرد إنفاقه وقتاً طويلا مع الأولاد فى كل يوم ، لم يلبث أن انتهى به — دون أن يفطن ، بل دون أن يحاول — إلى أن يصبح شديد الشبه بهم ، ففقد

ذوقه وميوله القـديمة ، دون أن يكتسب ميولا جديدة فى الواقع . وكم من مرة استبد به الاشمئزاز من (بلاج فيزبوتشى) والثورة عليه ، فكان ينضم إلى صبية (بلاج سبيرانزا) ، يشاركهم ألعابهم البريئة ، ويتقرب إلى من اتخذهم أنداداً فى أوائل الصيف . ولكن ، لشد ماكان هؤلاء الصبية ذوو النشأة الحسنة يبعثون فى نفسه من ملل وسأم .. وماكان أضيقه بهدوئهم وتورعهم أمام أهلهم ومربياتهم.. وما أتفه ما أصبحت تبدو له أحاديثهم عن المدرسة ،وعن مجموعات طوابع البريد ، وعن الكتب والمغامرات الساذجة ، وما إليها .. ذلك لأن العصبة الأخرى ، وأحاديث صبيتها عن النساء ، وعن حملات السرقة من البساتين ، بل وأعمالهم المنطوية على البطش والعنف ، والتى كان هو نفسه من ضحاياها ، قد بدلته تبديلا لم يعد يستطيب معه صحبة أصدقاءه القدامى !

وما لبث أن حدث ما جعله يشعر بهذا التطور ويزداد انسياقاً له . ففى ذات صباح ، وصل متأخراً إلى (بلاج فيزبوتشى) ، فلم يجد أحداً ، إذ كان (سارو) قد رحل لأمر خاص به ، ولم يظهر فى المكان أحد من الصبية . ومن ثم سار الغلام فى اكتئاب إلى الشاطئ ، واتخذ لنفسه مجلساً على أحد القوارب . وفيما كان يرسل بصره على طول الساحل ، أملا فى أن يرى (سارو) مقبلا ، وقع بصره فجأة على رجل ومعه صبى يصغره هو بنحو عامين . وكان الرجل قلة فى الجسم ، ذا ساقين سمينتين ، قصيرتين – قامتا تحت

بطن متكرش – ووجه مستدير ، وأنف مدبب تعلوه (نظارة) بدون إطار ، وكان له مظهر الموظف الحكومى، أو العالم .. أما الصبى فكان نحيلا شاحباً ، يرتدى ثياباً متهدلة تكبره حجماً ، وقد احتضن كرة جلدية كبيرة كان مظهرها ينم عن الجدة .

وسار الرجل إلى (أجوستينو) ممسكاً ابنه بيده ، وتأمله برهة فى تردد ، ثم سأله أخيراً عما إذا كان من الميسور أن يجذف بهما فى البحر للنزهة ، فأجاب (أجوستينو) دون تردد : « بالطبع ! ».. وإذ ذاك حدق فيه الرجل من فوق حافتى عدستيه ، فى ارتياب ، ثم سـأله عما يطلب كأجر للنزهة مدة ساعة فى قاربه . وكان (أجوستينو) قد ألم بفئات الأجـر التى كان يتقاضاها الغلمان ، فأنبأه . وعندئذ فقط فطن إلى أن الرجل ظنه ، خطأ ، ابن حارس الشاطئ ، أو أحد الصبية التابعين له .. فأحس أجوستينو بشئ من الغبطة لذلك ، فى حين قال الرجل : « حسن جداً .. سنركب معك ».

ولم ينتظـر (أجوستينو) أن يكرر الرجل قـوله ، بل بادر فتناول كتلة خشنة من خشب الصنوبر تستعمل كرافعة يتزلق عليها القارب إلى الماء ، ودسها تحت مقـدم القارب ، ثم أمسك حافتى عوامتيه بكلتا يديه ، وقد منحته المناسبة اعتزازاً بنفسه ضاعف من قوته ، فدفع القارب إلى الماء ، ثم ساعد الصبى وأباه على أن ينتقلا إليه ، وقفز خلفهما ، فأمسك بالمجذافين وشرع يجذف برهة دون أن يتكلم : وكان البحر فى تلك الساعة المبكرة خالياً تماماً ، وأخـذ

الراكب الصبي يضم الكرة إلى صدره وهو لا يحول عينيه الباهتتي اللون عن (أجوستينو) . أما أبوه فقد جلس مستكيناً ، وقد فرق بين ركبتيه ليفسح مكاناً لكرشه ، وأخذ يدير عنقه السمين متلفتاً حوله ، ومظهره ينم عن استمتاع بالنزهة .. وأخيراً ، سأل (أجوستينو) عمن يكون ، وهل هو ابن حارس الشاطئ ، أو أنه أجير لديه .. ثم تساءل : « وكم عمرك ؟ » .

فأجاب أجوستينو : « ثلاث عشرة سنة » .

فالتفت الرجل إلى ابنه قائلا : « انظر ، إن هذا الصبي يكاد يكون فى مثل سنك ، ومع ذلك فهو يشتغل ليكسب » ! .. ثم قال لأجوستينو : « وهل تذهب إلى المدرسة ؟ » .. فأجاب الغلام وهو يصطنع لهجة النفاق التى سمع الأولاد يتخذونها حين يسألون مثل هذا السؤال : « كان بودى .. ولكن ، كيف يتسنى لى ذلك ياسيدى ؟ .. إننا مضطرون للعمل كى نعيش ياسيدى » !

فقال الأب لابنه : « هل سمعت ؟ .. إن هذا الصبي لايستطيع الذهاب إلى المدرسة لأنه مضطر للعمل ، فهل لك بعد هذا وجه كى تشكو من دروسك وتتذمر ؟ » .. فقال (أجوستينو) وهو يجذف بقوة : « إن أسرتنا كثيرة العيال ، وكلنا نشتغل » .. فسأله الرجل : « وكم تكسب فى اليوم ؟ » ؟

أجاب (أجوستينو) : « هذا يتوقف على الظروف . فعندما يكثر الوافدون ، يصل كسبي إلى نحو عشرين أو ثلاثين ليرة » ..

فأردف الرجل : « وطبعاً تسلمها جميعاً لأبيك » .. ورد (أجوستينو) دون ماتردد : « بالطبع .. فيما عدا ما أناله من عطاء كبقشيش ! » .

ولم يشأ الرجل فى هذه المرة أن يضرب به المثل لابنه ، بل هز رأسه فى تقدير . أما ابنه ، فلم يقل شيئاً ، بل ضم الكرة إلى صدره أكثر من ذى قبل ، وظل مثبتاً عينيه الشاحبتين ، الدامعتين ، على (أجوستينو) .. وعلى حين غرة سأل الرجل أجوستينو : « هل تحب أن تكون لك كرة من جلد كهذه يا فتى ؟ » .

وكانت لأجوستينو كرتان جميلتان ، أهملهما فى غرفته مع غيرهما من اللعب منذ أمد طويل .. لكنه مع ذلك قال : « إننى أتمنى بالطبع ، ولكن أنى لى بواحدة ؟ .. إننا مضطرون لأن نبتاع الحاجيات الضرورية أولا » !

فالتفت الرجل إلى ابنه قائلا : « اسمع يا بيتر :: ألا أعط كرتك لهذا الولد الذى لا يملك كرة ما » :. ولعله صدر فى قوله هذا عن شيء من الدعابة ، لكن الولد تطلع إلى أبيه ، ثم إلى (أجوستينو) ، وما لبث أن ضم كرته فى حرص الشحيح ، دون أن ينبس ببنت شفة . فسأله أبوه فى رفق : « أو لا تريد ؟ » فقال الصبي : « إنها كرتى » .. فعاد الأب يلح عليه : « أجل ، إنها كرتك : لكنك لو شئت نزلت عنها ، فهذا الولد المسكين لم يتح له مثلها طيلة حياته .. أفلا تحب بعد هذا أن تمنحه إياها ؟ » .

فأجاب ابنه فى إصرار : « لا » .. وعند ذلك ، تدخل (أجوستينو) قائلا فى ابتسامة المتسامح القانع : « لا بأس .. إننى فى الحق لا أريدها ، فما أرى لدى وقتاً لألعب بها .. بخلافه هو » .

وابتسم الأب لهذه الكلمات ، وقد سره أن وجد مثل هذا الدرس النافع لابنه ، ثم قال وهو يمسح رأس ولده : « إنه خير منك .. فهو على فقره لا يريد أن يأخذ كرتك ، وإنما هو يتركها لك .. على أننى أرجو أن تذكر — كلما شئت أن تتذمر وتشكو — أن فى العالم أولاداً كثيرين على شاكلة هذا الصبى ، يضطرون إلى العمل ، ولا يحظون قط بكرات أو ألعاب يسعدون بها ! » .

فرد الصبى فى عناد : « إنها كرتى » .. وتنهد الرجل وهو شارد الذهن ، وقال : « أجل ، إنها كرتك » .. ثم تأمل ساعته ، وقال آمراً : « لقد حان وقت العودة ، فارجع بنا يا غلام » .

ووجه (أجوستينو) مقدم القارب نحو الشاطىء دون أن يفوه بكلمة .. حتى إذا أشرفوا على البر ، لمح (سارو) يقف فى الماء يرقب حركاته فى انتباه ، فخشى أن يفضحه ! بيد أن (سارو) لم يقل شيئاً — ولعله أدرك ما حدث ، أو لعله لم يكن يحفل — واكتفى بأن أعان (أجوستينو) على جذب القارب إلى البر .

وقال الرجل وهو يعطى (أجوستينو) الأجر الذى اتفقا عليه ، ومبلغاً فوقه : « هاك ! » .. فتناول أجوستينو النقود وأعطاها إلى (سارو) ، قائلا فى لهجة الراضى عن نفسه : « على أننى سأحتفظ

بالعطاء » .. فلم يقل (سارو) شيئاً ، بل دس النقود فى الحزام المحيط ببطنه وهو لا يكاد يبتسم ، وسار متمهلا على الشاطىء نحو (كابينه) ..

* * *

● ومنح هذا الحادث البسيط (أجوستينو) شعوراً واضحاً ، قوياً ، بأنه لم يعد يمت إلى ذلك العالم الذى يعيش فيه الصبية الذين نشأوا نشأته .. فلقد ألف العيش مع الفقراء حتى غدا يضيق برياء سواهم من الناس .. بل لقد أحس فى الوقت ذاته بأسف لأنه لم يكن بالفعل مثل غلمان العصبة — فإنه ظل شديد الحساسية ، على خلافهم ! — وكان يفكر فى نفسه أحياناً ، فيرى أنه لو كان مثلهم فعلا ، لما تألم كثيراً لنكاتهم المقذعة ، الوقحة ، ومن ثم بدا له أنه فقد وضعه الأول ، دون أن يوفق إلى اكتساب وضع جديد !

الفصل الخامس

● وذات يوم ، حوالى نهاية الصيف ، ذهب (أجوستينو) مع الغلمان إلى غابات الصنوبر ليصطادوا طيوراً ، ويجمعوا نبات(عش الغراب) — وكانت هذه (الحملات) أمتع مغامراتهم فى نظر (أجوستينو) — فدخلوا الغابة ، وساروا أميالا على أرضها الرطبة ، فى دروب طبيعية ، بين (أعمدة) حمراء من جذوع الشجر ، وهم يتطلعون إلى السماء ، ليتبينوا ما إذا كان ثمة شىء يتحرك بين أغصان الصنوبر .. فإذا لمحوا طائراً ، عمد (برتو) أو (تورتيا) أو (ساندرو) — وهم أمهر الجميع — إلى شد الخيط المطاط فى مقلاعه (نبلته) وأطلق حجراً قوياً فى الاتجاه الذى يظن أن الطائر يكمن فيه !.. وفى بعض الأحيان كان يهوى بالفعل عصفور كسير الجناح ، ويظل يترنح وهو يرسل أنيناً يثير الإشفاق ، حتى يمسك به أحد الغلمان فيلوى عنقه بين أصابعه !

على أن الصيد كثيراً ما كان ينتهى بغير ثمرة ، فكان الصبية يوغلون فى الغابة على غير هدى ، وقد طوحوا برؤوسهم إلى خلف ، وعلقت عيونهم بنقطة بعيدة فوقهم .. ويمضون قدماً حتى ينفذوا إلى الأشجار الصغيرة ، وإلى أحراش متشابكة من النباتات الشوكية تنتشر فى التربة العارية ، الرطبة ، التى تكسوها الأوراق

والثمار الساقطة الجافة .. وما أن يبلغوا منطقة الأشجار الحديثة النبت ، حتى يشرعوا فى البحث عن النباتات الفطرية ..

وكان المطر قد ظل يهطل يوماً أو يومين قبل أن يخرجوا إلى الغابة فى ذلك اليوم ، فكانت أوراق الشجيرات لا تزال مخضلة بالماء ، والأرض محتفظة برطوبتها ، وقد كستها أعشاب حديثة النمو .. وبين الحشائش الكثيفة ، كانت الفطريات الصفراء تتناثر ، والماء يتلألأ عليها .. منها ما كان منفرداً رائع الشكل ، ومنها ما كان صغيراً ، وقد نما فى مجموعات كبيرة .. وأخذ الغلمان يمدون أيديهم خلال الأعشاب فيقتطفون الفطريات فى رفق ، ممسكين رؤوسها بين إصبعين ، حريصين على أن يقطعوا سيقانها التى كان الوحل والطحالب تعلق بها .. ثم أخذوا ينظمونها — « يلضمونها » — كحبات العقد ، فى أعواد من القش الجاف .. وكانوا فى العادة يمضون على هذا المنوال ، من بقعة إلى أخرى ، حتى يجمعوا عدة كيلوجرامات من الفطريات تكفى عشاء لـ (تورتيا) ، الذى كان — بوصفه أقواهم — يستأثر بما يجمعون ! .. وقد كان محصولهم فى ذلك اليوم وفيراً ، إذ كانوا قد عثروا على دغل بكر لم ترتده قدم من قبل ، وقد نمت فيه الطحالب بوفرة فى مستنقعاتها .. وهكذا ولت ساعات النهار وهم لم يجمعوا سوى نصف ما كان موجوداً ، فلم يجدوا بداً من أن يتحولوا عائدين بخطى مثقلة وئيدة ، مصطحبين عدداً كبيراً من الأعواد المحملة بالفطريات ، عدا طائرين أيضاً أو ثلاثة ..

وكانوا فى العـادة يسلكون درباً يفضى مباشرة إلى الشاطىء ، ولكنهم فى ذلك المساء انساقوا مبتعدين عن ذلك الدرب ، يطاردون عصفوراً مخادعاً ظل يحوم بين الأغصان المنخفضة ، موحياً إليهم بأنه سهل المنال .. وهكذا انتهت بهم المطاردة إلى أن ساروا بمحاذاة طول الغابة حتى بلغوا طرفها الأقصى الواقع خلف البلدة مباشرة . وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله حين تجاوزوا شجيرات الصنوبر الأخيرة ، ووصلوا إلى مساحة تتوسط ضاحية نائية ، وقد تناثرت فيها أكوام من الفضلات والعوسج والقش ، وتخللتها بضعة دروب غـير واضحة ، كثيرة التعرج والتثنى .. وكانت بعض الأشجـار المضطربة النمو تقوم على مسافات حول الساحة ، ولم يكن ثمة أرصفة تحيط بها ، وإنما كانت تحـد جوانبها حدائق مغبرة ملحقة بالمنازل الصغيرة – (الفيلات) – القليلة التى تفصل بين الواحد والآخر منها أرض فضاء ، يضمها سياج مهدم .. وكان قيام الدور الصغيرة متباعدة حول الساحة ، ومنظر السماء المترامية الأطراف فوقها ، يزيدان من الشعور بالعزلة ، والقـذارة التى كانت تطبـع المكان بطابعها ..

* * *

● واجتاز الأولاد الساحة من أحـد أركانهـا إلى الركن المقابل ، وهم يسيرون أزواجاً ، كل اثنين معاً ، وكأنهم فى موكب دينى .. وفى نهـاية الصف سـار (تورتيا) و (أجوستينو) : وكان هذا

يحمل عودين طويلين محملين بالطحالب ، بينما أمسك (تورتيا) فى يديه الكبيرتين عصفورين تدلى رأساهما المخضبان بالدم .. فلما بلغـوا أقصى الساحة ، لكز (تورتيا) بمرفقـه (أجوستينو) ، وأشار إلى إحدى (الفيلات) الصغيرة ، وقال فى ابتهاج : « هل ترى هذه ؟ .. أتدرى ما هى ؟ » .

وأرسل (أجوستينو) بصره .. فإذا (الفيلا) لا تكاد تفترق عن مثيلاتهـا فى شىء ، سـوى أنهـا أكبر من الأخريات قليـلا ، إذ كانت تتألف من ثلاثة طوابق ، وسقف محدودب من القرميد ؛ وكانت واجهتها معتمة ، مدخنة ، ذات نوافذ بيضاء مغلقة بإحكام ، بينما كانت الأشجار الوارفة القـائمة فى الحـديقة تكاد تخفيهـا عن الأنظار ، ولم تبد الحديقة واسعة ، وكان السياج الحجرى المحيط بها مكسواً بالنباتات المتسلقة .. فإذا تطلـع المرء خـلال البوابة الخارجية رأى درباً قصيـراً تحف بجانبيه الشجيرات القصيرة ، وباباً ذا مصراعين يعلوه قوس من البناء على طراز قديم . وكف (أجوستينو) عن السير ، قائلا لزميله فى لهجة تنم عن تساؤل : « إنهـا مهجورة ، لا أحد فيها » .. فضحك (تورتيا) وقال : « لا أحد ! ؟ » .. وبكلمات قلائل ، حدث (أجوستينو) عمن كان يعمـر البيت ! .. وكان (أجوستينو) قد سمـع الأولاد مراراً يتحدثون عن بيوت لا يعمرها سوى نسوة يحتجبن بداخلها طيلة النهار ، حتى إذا جن الليل تأهبن لاستقبال أى طارق ، فى مقابل

أجر معلوم !.. ولكن (أجوستينو) لم يكن قد رأى بيتاً منها من قبل، ومن ثم أيقظت كلمات (تورتيما) فى نفسه كل ماكان قد خالجه من عجب ودهشة وحيرة حين سمع الغلمان يتحدثون عن هــذه الدور لأول مرة .. فأحس اليوم – كما فى المرة الأولى – بأنه لا يكاد يصدق أن هناك ، حقاً ، مجتمعاً يذهب فى كرمه إلى درجة أنه يتيح للجميع ، دون إيثار أو محاباة ، ذلك « الحب » الذى كان يلوح له عزيز المنال ، بعيــد الوجود !.. ومن ثم أخــذ يرمق « الفيلا » الصغيرة بنظرات مستريبة ، وكأنه يتمنى لو وجد على جدرانها شيئاً ينم عما يجرى فى داخلها من حياة عز عليه أن يصدق وجودها!

كان البيت يلوح عتيقاً ، واضح الكآبة – إذا ما قورن بالصورة التى ارتسمت فى خيال (أجوستينو) لحجراته التى يشرق فى كل منها سناء امرأة عارية ! – فقال أخيراً وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ، وإن كانت دقات قلبه قد أخذت تزداد سرعة : « آه .. أجل » .

فقال (تورتيما) : « .. إن هذا البيت أغلى ما فى البلدة أجراً ! » .. ومضى يسرد بعض البيانات عن المكان ، وعـدد النسوة القاطنات فيه ، والناس الذين يرتادونه ، والوقت الذى يسمح لك بأن تقضيه فيه ، ولم ترق هذه المعلومات لأجوستينو ، فقد حلت بواقعيتها محل بعض تفصيلات الصورة المضطربة التى رسمها خياله حين سمع عن تلك الأماكن « المحــرمة » للمرة الأولى !.. على أنه أخــذ يوجه لصاحبه كثيراً من الأسئلة – فى لهجة تظاهر فيهـا بفضول فاتر –

إذ قفز إلى ذهنه فجأة ، بعد الدهشة والاستياء اللذين داخلاه لأول وهلة ، خاطر لم يلبث أن استبد به .. وبسط له (تورتيما) الذى بدا على دراية واسـعة بالأمر – كل ما تاق إليـه من بيانات .. وعبرا الساحة وهما مستغرقان فى الحديث ، حتى لحقا بالآخرين . وإذ كان الظلام قد هبط تماماً ، فإن عقـد الجماعة أخذ فى الانفراط ، فأسلم (أجوستينو) حمله من الفطريات إلى (تورتيما) وانطلق إلى داره ..

* * *

كان الخاطر الذى راوده على أثر ذلك واضحاً ، بسيطاً – رغم أن منشأه كان معقداً ، غير جلى – فلقد قر رأيه على أن يذهب إلى تلك « الفيلا » فى الليلة ذاتها ! ولم يكن الأمر مجـرد رغبة مبهمة ، وإنما كان قراراً حاسماً ، بل ملحاً ، إذ أحس أن هــذه هى السبيل الوحيدة التى تتيح له الفرار من ذلك الاتهام المهين الذى سبب له كثيراً من العذاب طيلة الصيف . فلو أنه استطاع أن يضاجع امرأة من أولئك النسوة ، لكان فى ذلك – كما خطر له – الدليل الحاسم على سخف الفـرية التى ألصقها به الصبية .. بل إن ذلك كفيل – فى الوقت ذاته – بأن يوهن الخيط الرفيع الذى ما زال يربطه إلى أمه .. خيط الشعور الشهوانى الضال، القلق ! .. ومع أنه لم يكن يجرؤ على أن يعترف – ولو بينه وبين نفسه – بحقيقة هـذا الشعور ، إلا أن الهدف الأول لحياته فى الآونة الحاضرة بدا فى صورة الرغبة فى أن

يشعر بأنه أصبح إلى الأبد مستقلا ، فى غنى عن حب أمه !.. سيما وأنه كان قد صادف فى اليوم ذاته واقعة بسيطة – وإن كانت حافلة بالمعانى – أقنعته بهذه الضرورة : تلك هى أنه حتى ذلك الحين كان وأمه ينامان فى غرفتين منفصلتين ، لكنهما فى ذلك المساء كانا يرتقبان صديقة لأمه ستقضى معهما أسبوعاً ، ولما كان البيت صغيراً ، فقد رؤى أن تفرد غرفته هو للضيفة ، على أن يعد له سرير صغير – من أسرة المعسكرات – فى غرفة أمه . ولقد شعر فى ذلك الصباح باشمئزاز وهو يرى السرير الصغير يقام إلى جوار سرير أمه الذى لم يكن قد سوى بعد ، والذى تناثرت عليه ثياب نومها ..

ولم يزده النوم مع أمه فى غرفة واحدة سوى كراهية للمشاعر المختلطة المضطربة التى كانت تخالجه نحو أمه . وخطر له أن هذا التطور الجديد الذى يزيده قرباً منها ، لابد أن يكشف له من أمرها كل ما كان حتى الآن مجرد شك غير واضح .. إذن فعليه أن يبحث عن علاج سريع ، وسريع جداً ، وأن يقيم بينه وبين أمه طيف امرأة أخرى يحول إليها أفكاره ، إن لم يكن بصره أيضاً .. ولن يكون هذا الطيف الذى يقف ستاراً بينه وبين عرى أمه، ويرد إليها مهابتها ويحجب أنوثتها ، سوى إحدى نساء « الفيلا » القائمة فى الساحة ! .. أما كيف يتاح له أن ينفذ إلى ذاك البيت ، وكيف يختار المرأة ويخلو إليها ، فكانت مسائل لم يعرها أى تفكير .. بل إنه لو أراد لما استطاع أن يتصورها ! .. فعلى الرغم مما زجاه إليه (تورتيا) من معلومات ،

ظل البيت وأهله وكل ما يمت إليه ، محوطاً بجو كثيف من عدم الاحتمال ، وكان المرء إذ يفكر فيه لا يفكر فى حقيقة ، وإنما يفكر فى أغرب افتراض شاذ لن يلبث فى اللحظة الأخيرة أن يتكشف عن خيال زائف !.. كان نجاح مشروعه يتوقف فى ذهنه على استنتاجات منطقية : إذا كان هناك بيت، فهناك أيضاً نساء .. وما دامت هناك نساء، فهناك إمكان لقاء إحداهن :: غير أنه لم يوقن بجلاء بأن للبيت والنساء وجوداً حقيقياً ، لا لأنه كان يرتاب فى صدق (تورتيا) ، وإنما لأنه كان يفتقر تماماً إلى أشياء يقيس إليها .. فما كان بين كل ما فعل أو رأى من قبل ، شىء يشبه أقل الشبه ما كان يوشك أن يقدم عليه ! ومن ثم ، فكما يتصور الهمجى الفقير قصور أوربا – حين يسمع عنها – كنوع من الأكواخ يشبه كوخه ، وإن كان يكبره حجماً :: كذلك لم يسع (أجوستينو) – وهو يحاول أن يتصور أولئك النسوة وما يقدمن من عواطف – سوى أن يرسم صورة لأمه ، مع بعض تعديلات وفوارق تافهة .. وأن يتصور المضاجعة كمجرد رغبة مبهمة ، خيالية !

ولكن تجربته هذه بالذات ، أفضت به – كما يحدث عادة – إلى أن يشغل باله بنواح « عملية » للمسألة ، كأنما كان حل هذه النواحى كفيلا بأن يمكنه من أن يحل ما يحيط بها من غموض وعدم واقعية .. وكانت من بين هذه النواحى التى شغلته ، مشكلة النقود بوجه خاص ، فلقد بين له (تورتيا) بتفصيل تام ما سوف ينبغى

عليه أن يدفع ، ولمن يدفعه ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يستوعب هذه المسألة تماماً : إذ ما العلاقة بين النقود — التى تستخدم عادة فى الحصول على أشياء محددة ذات صفات ملموسة — وبين عواطف أية امرأة .. ولحمها العارى ؟

وبدت له فكرة دفع نقود فى مقابل المتعة المخجلة ، المحرمة ، فكرة قاسية ، غريبة ، مهينة ، قد تبدو لمن يدفع النقود مستعذبة .. لكنها ولابد مؤلمة للطرف الآخر الذى يتلقى النقود !.. فهل من الصحيح حقاً أنه مضطر إلى أن يدفع النقود للمرأة مباشرة ، وفى حضورها ؟ .. وأحس بأن من الخليق به أن يخفى النقود بطريقة ما ، وأن يترك المرأة وهى تخال أن علاقتهما بريئة من كل مصلحة !.. ثم ، ألم يكن المبلغ الذى ذكره (تورتيا) زهيداً جداً ؟ .. إن أى مبلغ — مهما يبهظ — لن يكفى لأن يكون ثمناً لمثل هذه التجربة .. التجربة التى تختم إحدى مراحل حياته ، لتبدأ بعدها مرحلة أخرى !

إزاء هذه الهواجس قرر أن يتبع ما قاله (تورتيا) بحذافيره — حتى لو تبين أنه خطأ — إذ لم تكن لديه معلومات أخرى يبنى عليها خطة يتصرف بمقتضاها . كان قد عرف من صديقه كم تكلفة زيارة (الفيلا) ، ولم يكن المبلغ يربو على ما ادخر منذ أمد طويل فى (الحصالة) المصنوعة من الفخار .. فهو ولابد قادر على أن يجمع من العملات الصغيرة والنقود الورقية — التى احتوتها الحصالة — المبلغ اللازم ، بل وقد يجد أكبر منه . وتمثلت خطته فى أن يستخرج

المبلغ من (الحصالة) ثم يتريث حتى تذهب أمه إلى المحطة لاستقبال صديقتها ، وإذ ذاك يخرج بدوره فيبحث عن (تورتيا) ، ويقصد معه إلى (الفيلا) ! ولابد من أن يحمل معه مبلغاً يكفى لتورتيا أيضاً ، إذ كان يعرف أنه فقير ، وأنه ما كان ليؤدى له صنيعاً ما لم يحصل لنفسه على مقابل له على الأقل ..

كانت هذه خطته ، ومع أنها ظلت تبدو له مستبعدة وغير محتملة ، إلا أنه عقد العزم على أن يتأهب لها ، بنفس العناية والدقة اللتين يعد بهما العدة للانطلاق فى نزهة بالقارب ، أو فى رحلة إلى غابات الصنوبر !

الفصل السادس

• وقطع كل المسافة بين الميدان النائى وبيت أمه، جرياً ، فى لهفة وانفعال، وقد تحرر للمرة الأولى من سموم الندم، وتأنيب الضمير، والتردد ! .. وكان الباب الأمامى للبيت موصداً ، ولكن نوافذ قاعة الجلوس كانت مفتوحة ، وقد انسابت منها أنغام موسيقية . كانت أمه توقع على المعزف ..

ودخل ، فإذا المصباحان الخافتان القائمان على المعزف يلقيان ضوءهما على وجهها ، بينما كانت بقية الحجرة غارقة فى الظلام .. وكانت أمه على مقعد المعزف، وعلى مقعد آخر – بجوارها – جلس الشاب صاحب الزورق . وكانت هذه أول مرة يراه فيها (أجوستينو) فى بيتهما ، فداخله إحساس مفاجىء ملك عليه أنفاسه ! وبدا أن أمه أحست بوجوده ، بإلهام ما ، إذ أدارت رأسها بحركة هادئة فيها دلال غير متعمد – دلال أحس (أجوستينو) أن الشاب هو المقصود به دونه ! – وكفت فى الحال عن العزف حين رأته ، ونادته إليها قائلة : « ما معنى قدومك فى هذه الساعة يا (أجوستينو) ؟.. تعال هنا » ..

وتقدم من المعزف فى بطء ، وقد فاضت نفسه بالسخط والحيرة ؛ فشدته أمه إليها ، وأحاطته بذراعها . ولاحظ أن عينى أمه على غير عهده بهما : براقتين ، متألقتين ، تفيضان شباباً ..

وبدا كأن الضحك يوشك أن يتفجر من خلال شفتيها ، مما أظهر أسنانها اللامعة ، وأزعجته بالشدة التى اجتذبته بها إليها ، إذ بلغت مبلغ العنف ، وكأنها كانت ترتجف اغتباطاً ، وكان واثقاً من أن هذه الظواهر لا تمت إليه شخصياً بصلة .. على أنها –لفرط دهشته– ذكرته بالانفعال الذى كان يساوره قبل دقائق ، وهو يجرى إلى إلى البيت ملهوفاً مشوقاً إلى أخذ مدخراته والذهاب مع (تورتيا) إلى (الفيلا) .. والاستمتاع بامرأة !

ومضت أمه تقول ، فى صوت جمع بين الحنان ، والقسوة ، والاغتباط : « أين كنت ؟ .. أين كنت كل هذا الوقت أيها الولد العديم النفع ؟ » .. ولم يحر (أجوستينو) جواباً ، بل شعر أن أمه لم تكن تتوقع جواباً فى الواقع ، وإنما كانت تحدثه كما اعتادت أن تخاطب القط فى بعض الأحيان ! وكان صاحبها الشاب منحنياً إلى الأمام، محيطاً ركبتيه بيديه، وبين إصبعيه سيجارة ، وقد راح يحدق فى صديقته بعينين باسمتين متألقتين كعينيها .. وعادت هى تردد لابنها : « أين كنت ؟ .. ما أكثر إهمالك إذ تستسلم للعب والفراغ بهذا الشكل ؟ » .

وعبثت بشعره على جبينه ثم أعادت تسويته بيدها الدافئة ، الرشيقة ، فى حركات حنون – كان يخالطها شىء من العنف ، لم تجد حيلة لمقاومته ! – ثم قالت فى فخر وهى تلتفت إلى الشاب : « أليس غلاماً جميلا ؟ » .. فأجاب الشاب : « إنه جميل ، كأمه » ..

وابتسمت فى دلال لهذه المجاملة ، بينما تملص (أجوستينو) ليتخلص من عناقها ، وقد امتلأت نفسه اشمئزازاً وخجلاً ، فقالت له : « اذهب فاغتسل .. وتعجل لأننا لن نلبث أن نذهب إلى العشاء بعد قليل » .. فحيا (أجوستينو) الشاب بانحناءة خفيفة وغادر الغرفة . وسمع الموسيقى تستأنف تواً من حيث قطعها بوصوله ..

* * *

● على أنه لم يكد يصل إلى الردهة حتى سمر فى مكانه ، ينصت إلى الأنغام التى كانت أصابع أمه تعزفها . وكانت الردهة مظلمة ، وفى نهايتها امتد بصره خلال الباب المفتوح إلى المطبخ الواضح الضياء ، حيث كان الطاهى بزيه الأبيض يروح ويغدو بين المنضدة وأدوات الطهو . وكانت أمه سادرة فى العزف ، وقد بدت الأنغام لأجوستينو مرحة ، صاخبة ، مشرقة ، كذلك الوميض الذى كان يلمع فى عينى أمه وهى تضمه إلى جانبها .. ربما كانت الأنغام بطبيعتها كذلك .. وربما بث فيها أمه شيئاً من النار المضطرمة فى نفسها ، ومن إشراقها ، ومرحها .. وكانت الموسيقى تتردد فى جنبات البيت كله ، فألفى (أجوستينو) نفسه يفكر فى أن كثيراً من الناس قد وقفوا ولابد فى الطريق ينصتون ، ويعجبون للخلاعة المشينة التى كان كل نغم يفيض بها ؟

ثم توقف الصوت فجأة فى منتصف إحدى النغمات ، وأحس

(أجوستينو) عن يقين — لم يستطع أن يدرى مبعثه — بأن العاطفة التى وجدت فى الموسيقى تعبيراً عنها ، قد وجدت فجأة متنفساً آخر ؟ .. وتقدم خطوتين ، ووقف جامداً على عتبة باب قاعة الجلوس .. ولم يدهشه كثيراً ما رأى : كان الشاب واقفاً يطبع قبلة على شفتى أمه . أما هى فكانت مائلة إلى الخلف ، على المقعد الذى كان أصغر من أن يتسع لجسمها ، وما زالت إحدى يديها على مفاتيح المعزف ، بينما طوقت اليد الأخرى عنق الشاب ؟ وبالرغم من خفوت الضوء ، فإنه استطاع أن يرى جسمها فى تقوسه إلى الوراء ، وقد نفر صدرها إلى الأمام ، وانثنت إحدى ساقيها خلفها ، بينما امتدت الأخرى نحو قاعدة المعزف : وعلى النقيض من إسرافها فى استسلامها العاطفى ، كان الشاب محتفظاً بما اعتاد أن يظهر به من بساطة واتزان : وكان من الواضح أنه إذ أحاط عنقها بإحدى ذراعيه — وهو واقف — فإنما صدر ذلك عن خوف عليها من أن تقع ، أكثر من انسياق لعاطفة عارمة .. وكانت ذراعه الأخرى إلى جانبه ، وما زالت السيجارة بين إصبعيه ، بينما كانت ساقاه فى سروالها الأبيض ، وقد ثبتتا فى وقفتهما منفرجتين ، تعبران عن اعتداد وسيطرة تامة على الموقف .

ودامت هذه القبلة طويلا ، وقد بدا لأجوستينو أن أمه كانت تتشبث بشفتى الشاب فى نشوة متزايدة كلما هم بأن يضع لها نهاية ؟ ولم يتمالك (أجوستينو) أن شعر أنها كانت جائعة ، منهومة فى القبلة ،

كشخص طال به الجوع إلى الطعام أياماً ؟ .. وما لبث أن انبعث فى الحجرة نغمتان أو ثلاث نغمات حلوة ، بحركة عابرة من يدها . وفجأة ، افترقا .. فاتخذ (أجوستينو) خطوة إلى الأمام ، وقال : «ماما» .. واستدار الشاب على عقبيه وسار إلى النافذة فوقف عندها ، وساقاه منفرجتان ، ويداه فى جيبه ، متظاهراً بالنظر إلى الخارج .

وقالت الأم : « أجوستينو ؟ » .. فتقدم منها ابنها ، وكانت تتنفس فى عنف – حتى لقد كان يرى بجلاء ثدييها خلال ثوبها الحريرى وهما يرتفعان وينخفضان – وكانت عيناها أكثر تألقاً من قبل ، وشفتاها منفرجتين ، وشعرها مضطرباً ، وقد تهدلت منه على صدغها خصلة ناعمة مدببة ، كأنها ثعبان حى؟ .. ورددت فى صوت خفيض ، متهدج ، وهى تبذل وسعها لتسوى من شعرها : « ماذا بك ياأجوستينو ؟ » .. وأحس الفتى بدفعة مفاجئة من إشفاق ممتزج باشمئزاز ، وود لو يصرخ فيها : « هدئى من روعك .. لا تلهثى هكذا .. لا تحدثينى بهذا الصوت ؟ » .. ولكنه بدلا من ذلك اصطنع صوتاً صبيانياً ، وقال فى لهفة مغالى فيها : « ماما .. هل أفتح (حصالتى) ؟ .. إننى أريد أن أبتاع كتاباً » .

فأجابت : « أجل يا عزيزى » .. ومدت يداً تربت بها مقدم رأسه ، فلم يتمالك (أجوستينو) أن أجفل للمستها ؟ وكانت حركاته من الضآلة بحيث يتعذر الإحساس بها ، ولكنها لاحت له من العنف بدرجة أحسها الجميع .. فقال : « حسناً جداً .. إذن سأفتحها » .

وبادر إلى مغادرة الغرفة دون أن ينتظر جواباً .. لقد كانت فكرة (الحصالة) مجرد حجة انتحلها ، حين رأى أمه فى ذلك المنظر فلم يدر ماذا ينبغى أن يقول !

* * *

● وكانت غرفته مظلمة ، و (الحصالة) على منضدة فى الطرف الأقصى .. وقد انساب خلال النافذة المفتوحة شعاع من مصباح الشارع ، وقع على الجزء الوردى المنبعج من (الحصالة) وعلى ثغرها الأسود الواسع المبتسم ..

وأضاء (أجوستينو) نور الحجرة ، وتناول (الحصالة) وطوح بها إلى الأرض بعنف متهوس ، فتحطمت للتو ، وتبعثرت من ثغرتها الواسعة كمية من النقود من كل فئة — فقد كانت بها أوراق نقدية عديدة مختلطة بالقطع المعدنية — فركع على يديه وركبتيه ، وشرع يحصى النقود فى لهفة ، وأصابعه ترتجف ، وصورة أمه وصديقها فى قاعة الجلوس تختلط بالنقود المبعثرة على الأرض ، وهو يجمعها ويحصيها .. صورة أمه منحنية إلى الوراء على مقعد المعزف ، والشاب منحن عليها .. على أنه لم يلبث أن تبين – إذ فرغ من العد – أن النقود لا تصل إلى المبلغ الذى كان يحتاج إليه !

ترى ماذا يفعل ؟ .. ولمع بخاطره أنه قد يستطيع أن يحصل على الباقى من أمه ، إذ كان يعرف أين تحفظ نقودها ، ولن يكون ثمة أسهل من الوصول إليها .. ولكنه استنكر هذه الفكرة ، وقرر أن

يسألها نقوداً بصراحة .. ولكن ، أى عذر يبديه ؟ .. وخطر له فجأة عذر مناسب ، بيد أنه فى تلك اللحظة سمع الدقات النحاسية المعلنة لإعداد العشاء ، فبادر يخفى (ثروته) فى أحد الأدراج ثم هبط إلى الطابق الأسفل .

وكانت أمه تجلس إلى المائدة ، والنافذة مفتوحة على مصراعيها ، وفراشات مخملية كبيرة تنساب خلالها قادمة من الحديقة ، لتضرب بأجنحتها المصباح الأبيض . وكان الشاب قد انصرف ، واستردت المرأة وقارها المهيب المعتاد . وعجب (أجوستينو) وهو يتأملها ، كيف أن فمها لم يكن يحمل أثراً للقبلات التى طبعت عليه منذ بضع دقائق مضت ؟ ! تماماً كما عجب فى المرة الأولى التى خرجت فيها مع الشاب فى زورقه . وماكان بوسعه أن يحدد الأحاسيس التى أيقظتها هذه الفكرة فى نفسه : فمن شعور بالعطف والرثاء نحو أمه التى بدا أن تلك القبلات كانت غالية لديها ، ومبعث اضطراب لها ! .. إلى شعور آخر – فى الوقت ذاته – بالتقزز والاستنكار ، لا لما رأى ، وإنما للذكرى التى بقيت فى نفسه ! .. ولكم ود الغلام أن يقصى تلك الذكرى عن باله ، وأن يتناساها إطلاقاً . ترى كيف يتسنى لهذه المناظر المزعجة ، المؤثرة ، أن تنفذ إلى النفس خلال العين ؟.. لقد أدرك (أجوستينو) مقدماً أن هذا المنظر سيظل إلى الأبد مطبوعاً على صفحة ذاكرته !

* * *



لقد كانت فكرة (الحصالة) مجرد حجة انتحلها ، حين رأى أمه فى ذلك المنظر فلم يدر ماذا ينبغى أن يقول !..

● وإذ فرغا من العشاء ، نهضت أمه عن المائدة ، فصعدت إلى الطابق العلوى : وخطر لأجوستينو أنه لن يصادف لحظة خيراً من هذه ليطلب منها نقوداً ، فتبعها إلى غرفتها . وجلست أمه إلى منضدة الزينة ، وأخذت تتأمل وجهها فى المرآة صامتة .. فهتف بها (أجوستينو) : « ماما » .. فقالت وهى شاردة الذهن : « ماذا ؟ » .

— أريد عشرين ليرة .

— لماذا ؟

— لأبتاع كتاباً !

فقالت فى رفق وهى تنثر (البودرة) على وجهها : « ألم تقل إنك ستكسر (حصالة) نقودك ؟ » .. فاصطنع (أجوستينو) عذراً صبيانياً ، إذ قال : « بلى ، ولكن لن تتبقى لى نقوداً إذا كسرتها .. إننى أريد أن أشترى كتاباً دون أن أكسر الحصالة » .

فضحكت أمه فى ود قائلة : « يالك من طفل ! » .. وتأملت نفسها فى المرآة لحظة أخرى ، ثم قالت : « ستجد كيس نقودى فى الحقيبة على فراشى . خذ عشرين ليرة ، ورد الكيس إلى الحقيبة » ؛

وسار إلى السرير ، ففتح الحقيبة ، وأخذ الكيس ، فتناول منه عشرين ليرة .. ثم ، ضم قبضته على الورقتين الماليتين ، وألقى بنفسه على السرير الصغير الذى أعد له بجوار سرير أمه . وكانت هى قد فرغت من زينتها ، فاقتربت منه قائلة : « ما الذى تنتوى فعله الآن ؟ » .. فقال وهو يتصفح كتاباً يتضمن بعض قصص

المغامرات ، وجده مصادفة على المنضدة المجاورة للسرير ، ففتحه عند أحد الرسوم : « سأقرأ هذا الكتاب » .

— حسناً ، ولكن ، لا تنس أن تطفىء النور حين تنام .

وكانت لا تزال تروح وتغدو فى الغرفة ، فظل مستلقياً يراقبها ، وقد أسند رأسه إلى ذراعه : وخامره شعور غير واضح بأنها لم تكن قط فى مثل جمالها فى تلك الليلة ! كان ثوبها الحريرى الأبيض اللامع ، يظهر سمرة بشرتها المشوبة بتورد وافر من أثر الشمس .. وكأنها — بإنعاشها شخصيتها السابقة ، دون أن تفطن أو تتعمد — قد استردت ، على ما ظهر ، كل ما اعتاد أن يكون لها من وقار عذب ، مهيب .. بل وأضفت عليه نفحة من هناء لا سبيل إلى وصفه ! .. لقد كانت طويلة القامة ، بيد أن (أجوستينو) لم يرها من قبل فى مثل مابدت فيه إذ ذاك من تناسق : وكأنما كان وجودها يملأ الحجرة ، وهى تروح فيها وتغدو فى جلال ، كطيف أبيض ، وقد استوى رأسها برشاقة على عنقها البديع ، واستقرت عيناها هادئتين تحت حاجبيها الساجين .. ثم أطفأت جميع الأضواء عدا المصباح القائم على المنضدة المجاورة للسرير ، وانحنت تقبل ابنها .. وعب (أجوستينو) مرة أخرى عبق العطر الذى كان خبيراً به ، حتى إذا مس عنقها بشفتيه لم يتمالك أن ساءل نفسه ، عما إذا كانت أولئك النسوة .. اللاتى فى (الفيلا) :: فى مثل جمال أمه ، وعبيرها؟!

وإذ خلا إلى نفسه ، تريث حوالى عشر دقائق ليستوثق من

انصراف أمه ، ثم نهض عن السرير الصغير ، فأطفأ النور ، و... إلى حجرته الخاصة على أطراف أصابع قدميه .. حتى إذا بلغها ... يتحسس طريقه فى الظلام إلى المنضدة المجاورة للنافذة ، ففتح درجها ، وملأ جيوبه بالعملات المعدنية والورقية ، ثم تحسس بيده كل ركن فى الدرج ليتأكد من خلوه .. وغادر الحجرة !

* * *

● وما أن خرج إلى الطريق ، حتى شرع يجرى .. وكان (تورتيا) يقيم فى الطرف الآخر للبلدة ، فى حى العمال والملاحين : ومع أن البلدة كانت صغيرة ، إلا أنه قطع مسافة طويلة للوصول إلى مقصده. وكان يختار الدروب المعتمة التى تمتد على حواف غابات الصنوبر ، ويغذ السير أحياناً ، ويعمد إلى الجرى فى أحيان أخرى ، ماضياً قدماً ، حتى لاحت له ، بين دارين ، أشرعة المراكب التى كانت رهن الإصلاح فى الحوض الجاف . وكان منزل (تورتيا) بعد الحوض مباشرة ، خلف الجسر الحديدى المتحرك الذى كان يقوم على القناة المفضية إلى الميناء : وكانت البقعة تتراءى فى النهار ، منسية ، خربة ، تتناثر على حواف أرصفتها الواسعة المهجورة ، التى تلهبها أشعة الشمس ، مخازن ومحال متداعية ، ويعبق جوها بروائح السمك والقار ، وتبدو مياه البحر عندها خضراء ، زيتية ، راكدة ، تجثم فيها مراكب الآلات الرافعة ، ومراكب نقل الحصى :: أما فى تلك الساعة ، فقد جعلها الليل تبدو كبقية أرجاء

البلدة ، لو لم تنم عن وجود مياه المرفأ خلف البيوت ، مركب شراعية كبيرة ظهرت جوانبها المنتفخة وأشرعتها فوق حافة الرصيف.

وعبر (أجوستينو) الجسر ، ويمم شطر صف من الدور على الجانب الآخر للقناة . وكانت مصابيح الطريق المتباعدة ، تلقى أضواءها على جدران تلك البيوت الصغيرة ، على مسافات غير منتظمة .. ووقف (أجوستينو) أمام نافذة مفتوحة على مصراعيها ، ينبعث النور منها ، وتتصاعد من خلفها أصوات أفراد ، وصلصلة أطباق ، وكأن هناك قوماً يتناولون الطعام . ودس الغلام أصابعه فى فمه ، وأرسل صفيراً عالياً مرة ، وخافتاً مرتين — وهى الإشارة المتفق عليها بين صبية العصابة ! — وسرعان ما ظهر شخص فى النافذة ، فقال (أجوستينو) بصوت خافت ، خجول : « أنا .. بيزا » : فأجاب الشخص — وكان (تورتيا) بالذات : « أنا قادم » .

وهبط (تورتيا) وهو لا يزال يلوك فى فمه اللقمة الأخيرة من الطعام ، وقد احمر وجهه من النبيذ الذى كان يشربه ، فقال (أجوستينو) : « لقد جئت كى نذهب إلى (الفيلا) .. إن معى النقود .. مبلغاً يكفى كلينا » .. فتطلع (تورتيا) إليه وهو يبتلع بعناء ما فى فمه ، وقد بدا أنه لم يفهم ؟.. فأردف (أجوستينو) : « الفيلا التى فى الجانب الآخر من الميدان .. حيث توجد النسوة » .. فقال (تورتيا) وقد فهم مقصده أخيراً : « آه .. لقد ظللت تفكر فى الأمر ؟ .. مرحى يا بيزا .. سألحق بك بعد لحظة » . وهرع إلى

داخل البيت ، فأخذ (أجوستينو) يخطر جيئة وذهاباً فى انتظاره ، وقد علقت عيناه بنافذة الدار . وطال انتظاره أمداً ، بيد أن (تورتيا) ما لبث أن ظهر فى النهاية، فلم يكد (أجوستينو) يعرفه !.. كان قد عهده دائماً « غلاماً كبيراً » ، فى سروال ثنيت ساقاه إلى أعلى ، أو نصف عار ، على ساحل البحر أو فى مائه .. أما الآن ، فقد رأى أمامه شاباً من الطبقة العاملة فى ثياب النزهة الداكنة : سروال طويل الساقين ، وصديرى ، وقميص له ياقة وربطة عنق .. كما أنه بدا أكبر سناً مما اعتاد أن يراه ، بسبب (البريانتين) الذى نسق به شعره ، وقد كان فى العادة أشعث مضطرباً .. وأضفت عليه الثياب العادية التى كان يختال فيها للمرة الأولى ، مظهراً يدعو للسخرية !

وقال (تورتيا) وهو ينضم إلى مرافقه : « أنذهب الآن ؟ » .. فقال (أجوستينو) وهو يغذ السير إلى جواره ، عابرين الجسر : « هل حان وقت الزيارة ؟ » .. فأجاب (تورتيا) ضاحكاً : « كل وقت ملائم للزيارة هناك ! » .

* * *

● وسلكا طريقاً غير ذاك الذى قدم منه (أجوستينو) ، ولم يكن الميدان بعيداً .. ولم يلبث (أجوستينو) أن تساءل : « لكن .. هل ذهبت إلى هناك من قبل ؟ »

– ذهبت إلى بيوت مشابهة .. ولكنى لم أذهب إلى هذا البيت :

ولم يكن يبدو على (تورتيا) أى تعجل ، بل راح يسير فى خطوته العادية ، قائلا : « كأنى بهن الآن أوشكن على الفراغ من العشاء ، ولن يكون ثمة زائرون .. إنه موعد ملائم » .

فسأله أجوستينو : « ولماذا ؟ »

– لماذا ؟ .. ألا ترى أن بوسعنا فى هذه الحال أن نختار من يحلو لنا اختيارها منهن ؟

– وكم واحدة هناك ؟

– أوه .. أربع أو خمس ..

وتاق (أجوستينو) إلى أن يسأله عما إذا كن جميلات ، ولكنه أحجم .. ثم قال فى تهيب : « وماذا علينا أن نفعل ؟ » .

وكان (تورتيا) قد أخبره من قبل ، بيد أن الشعور بأن الأمر كله بعيد عن الواقع والحقيقة ، كان قد استبد به ، وجعله يصبو إلى أن يسمع من جديد ما يؤكد واقعيته ! ..

وقال (تورتيا) : « ماذا تفعل ؟ .. ليس هناك ماهو أسهل من هذا الأمر : تدخل ، فتخف النسوة إليك ، ويعرضن أنفسهن أمامك .. فتقول : « مساء الخير يا سيداتى » ، ثم تصطنع حديثاً ما برهة من الزمن ، لتتيح لنفسك مهلة كافية لتأملهن .. ثم تختار واحدة : أهذه هى المرة الأولى لك ؟ » .

فشرع (أجوستينو) يقول : « الواقع .. » . ثم أسكته الخجل ،

فصاح (تورتيا) فى تحد : « تكلم ! .. ما أظنك تجـرؤ على أن تقول لى إنها ليست المرة الأولى .. قل هـذا للآخرين إن شئت ، ولكن ليس لى ! ومع ذلك ، فلا تخف .. إنها ستفعل كل شىء دون أن تحيرك .. اترك الأمر لها » .

ولم يقل (أجوستينو) شيئاً ، إذ لذت له الصورة التى أوحى إليه بها (تورتيا) .. صورة المرأة وهى تعلمه الحب .. وخيل إليه أن نفحة من الأمومة تمازجها ! .. ومع كل ذلك ، فقد ظل غير مصدق . وفجأة وقف مسمراً فى مكانه ، وهو ينظر إلى ساقيه العاريتين ، وتساءل : « ولكن .. ولكن ، هل تظن أنهن سيقبلننى هناك ؟ » .

وحار (تورتيا) لحظة إزاء هذا السؤال ، ثم قال فى اعتداد زائف بنفسه : « هيا بنا ، وسنعمل إذ نصل هناك على إدخالك » .

* * *

● وأفضت بهما حارة ضيقة إلى الميدان ، فإذا به مظلم بأكمله ، فيما عدا ركن من أركانه قام فيه مصباح وحيد يلقى ضوءاً خافتاً على مساحة من الأرض الخالية ، تكسوها الرمال . وتجلت لهما السماء فوق الميدان ، فإذا القمر هلالا ، وقد بدا ضارباً للحمرة ، وكساه الضباب بغلالة كالدخان ، انساب منها خيط رفيع لاح كأنه يشطر الهلال نصفين .. وفى أشد الأركان عتمة ، اهتدى (أجوستينو) إلى

(الفيلا) ، إذ لمح مصاريع نوافذها البيضاء ، وكانت كلها مغلقة ، لا يتسرب منها ضوء ما . وعبر (تورتيا) الميدان إلى (الفيلا) فى غير تردد ، لكنه حين بلغ وسط الميدان — تحت القمر تماماً — سأل أجوستينو : « هل معك النقود ؟ :: أعطنيها ، فمن الأفضل أن تكون معى » .

— ولكن .. وأنا .. ؟

... ولم يتم (أجوستينو) عبارته : إنه لم يكن شديد الاطمئنان إلى (تورتيا) ، بيد أن هذا ألح قائلا فى خشونة : « هل ستعطينيها؟ » .. وأحس (أجوستينو) باستحياء لأن معظم المبلغ تألف من عملات صغيرة .. ولكنه انصاع لإنذار (تورتيا) ، فأفرغ فى يديه ما كان فى جيوبه ، وإذ ذاك قال الفتى : « والآن ، اعقل لسانك فى فمك وتعال معى » .

وأخذ الظلام يخف وطأة كلما اقتربا من (الفيلا) ، فاستطاعا أن يتبينا حافتى الباب الخارجى ، والدرب الذى يمتد خلال الحديقة الباب الأمامى لمبنى الدار ، ثم البـاب ذاته والمظلة الزخرفية التى تعلوه . ولم يكن الباب الخارجى موصداً ، فدفعه (تورتيا) ونفذ إلى الحـديقة .. وكان مصراعا الباب الخارجى مواربين ، فصعد (تورتيا) الدرجات المفضية إليهمـا ، ونفـذ خلالها مشـيراً إلى (أجوستينو) بأن لا يحدث صوتاً : وتلفت (أجوستينو) حـوله فى فضول ، ثم نظر خـلال البـاب فرأى ردهة خاوية ، قام عند

نهايتها باب ذو مصراعين زانهما زجاج أحمر وأزرق انعكست عليه أضواء منبعثة من خلفه ، فبدا منظره بهيجاً ..

* * *

● ووشى بدخولها رنين أجراس ، فبـادر إلى النهوض خيـال ضخم لشخص كان يجلس وراء الباب الزجاجى ، وبرزت لها فى إطار الباب امرأة . كان يبدو أنها خادم ، فى أوسط العمر ، مفرطة السمنة ، ذات صـدر واسـع ضخم ، وقد ارتدت ثوباً أسود ، وأحاطت وسطها بمرولة بيضاء ، وتقدمت نحوهمـا يسبقهـا بطنهـا المكرش ، وذراعاها يهتزان إلى جانبيها . وكان لها وجه منتفخ ، وعينان متجهمتا النظرات ، تتطلعان فى توجس من تحت شعر غزير .

وقال تورتيا : « ها قد وصلنا » .. لكن أجوستينو اشتم من صوته ومسلكه أنه هو الآخر أحس بحرج واستخذاء ، رغم ما كان يبديه من جسارة ! .. وتأملتهمـا المرأة لحظـة ، ثم أشارت تدعو (تورتيا) إلى الدخول ، فابتسم وقد استرد اعتداده ، وأسرع نحو الباب الزجاجى . وإذ ذاك هم (أجوستينو) بأن يتبعه ، ولكن المرأة ألقت يدها على كتفه قائلة : « أنت .. لا » .

فصاح (أجوستينو) وقد نسى خوفه فى الحال : « ماذا ؟ .. لماذا يدخل هو ولا أدخل أنا ؟ » .. فقالت المرأة فى حزم : « الواقع أنه ليس لكليكما نصيب هنا ، ومع ذلك فهو قد أشرف على السن المناسبة ، أما أنت .. فلا » .

وقال (تورتيا) ساخراً ، وهو يفتح الباب ويختفى وراءه : « إنك جـد صغير يا بيزا » .. وظل شبحه يبدو خلف الزجاج لحظات ، ثم تلاشى فى الضوء الباهر ! .. فقال (أجوستينو) فى إلحاح وقد هاله غدر تورتيا : « وماذا سيكون من أمرى ؟ » .. فقالت المرأة : « هيا اخرج ياولد .. عد إلى بيتكم » .. وسارت إلى الباب ففتحته على سعته ، وإذا بها ترى نفسها وجهاً لوجه أمام رجلين كانا يهمان بالدخول . وكان أحدهما ذا وجه أحمر ، بشوش ، وقد ابتدرها بقوله : « مساء الخير .. مساء الخير » ، ثم التفت إلى زميله ــ وكان شـاباً نحيـلا شـاحباً ــ وقال : « إذن ، اتفقنا ! .. إذا كانت (بينا) غير مشغولة ، فستكون من نصيبى .. فلا تدع مجالا للجدل السخيف فى هذا الصدد » . فقال الآخر : « اتفقنا » .

وعاد ذو الوجه البشوش يقول للمرأة مشيراً إلى أجوستينو : « ما الذى يفعله هذا الفتى الصغير هنـا ؟ » .. فقالت المرأة وقد قفزت إلى شفتيها ابتسامة مترددة : « لقد أراد أن يدخل ! » .. فصاح الرجل ملتفتاً إلى أجوستينو : « إذن فقد أردت أن تدخل ؟ .. إن البيت هو المكان اللائق بمن فى عمـرك فى هذه الساعة ! » .. ثم صاح به ملوحاً بذراعيه : « هيا إلى البيت » .

قالت المرأة : « هذا ما قلت له » .. فتدخل الشاب الآخر : « ولماذا لا ندعه يدخل ؟ .. لقد كنت فى مثل سنه أطارح الخادم الهوى ! » .. فصاح الآخر مبهوتاً ، مستنكراً : « ويلى ! .. هيا إلى

البيت يا غلام .. إلى البيت .. إلى البيت ! » .. ثم انساب خلال
الباب الزجاجى ، يتبعه الشاب المنصف .. وارتد الباب خلفهما فى
قوة . وألفى (أجوستينو) نفسه فى الحديقة — خارج الدار — دون
أن يدرى كيف بلغها ! .. ألا ما أسوأ ما انتهت إليه الأمور جميعاً .
لقد غرر به (تورتيا) فأخذ كل نقوده ، ثم تركه يطرد خارج
الدار ! .. وإذ لم يدر التعس ما ينبغى أن يفعل ، سار فى الدرب
المفضى إلى الباب الخارجى ، وهو يلتفت طيلة الوقت نحو باب
المبنى الذى كان موارباً ، والمظلة الزخرفية التى كانت تعلوه ،
وواجهة المبنى بمصاريع نوافذها البيضاء . وخالجه شعور من الاستياء
راح يلهبه كالسياط ، سيما بعد ماكان من ذينك الرجلين اللذين
عاملاه كما لو كان طفلا ! .. ولاح له أن ضحك الرجل المرح ،
والطيبة الباردة التى أبداها زميله — صاحب التجربة — لم يكونا أقل
إذلالا له من ذلك العدوان البغيض الذى قابلته به المرأة ! .. واتجه
إلى الباب الخارجى وهو ما يزال يتلفت خلفه ، وحوله ، متأملا
الأشجار والشجيرات التى كانت فى الحديقة . ومالبث أن رأى أن
الجانب الأيسر من (الفيلا) كان مضاء بنور قوى بدا منبعثاً من
نافذة مفتوحة بالطابق الأرضى : وخطر له أن يحظى على الأقل بنظرة
إلى مافى داخل الدار خلال تلك النافذة ، فاتجه صوب الضوء ، وهو
يحرص على أن لاتصدر عنه إلا أقل ضجة ممكنة :

* * *

● وصح ما دار بحدسه .. كان النور ينبعث من نافذة مفتوحة
على مصراعيها فى الطابق الأرضى . ولم تكن حافة النافذة مرتفعة ،
فسعى للوصول إليها فى هدوء ، وهو يلتزم ركناً لا يتسنى لأحد أن
يراه فيه .. ثم أرسل بصره خلال النافذة إلى الداخل ..

كانت الغرفة صغيرة ، متألقة الأضواء ، وقد كسيت جدرانها
بورق ذى زخارف أنيقة تمثل زهوراً كبيرة يمتزج فيها اللونان
الأخضر والأسود . وفى مواجهة النافذة ، كان ثمة ستار أحمر ،
يتدلى من حلقات خشبية حول قصبة نحاسية ، ويكاد يخفى باب
الحجرة : ولم يكن يبدو للبصر أثاث ما ، بيد أن ثمة شخصاً كان
يجلس فى ركن إلى جوار النافذة ، إذ استطاع (أجوستينو) أن يلمح
ساقين استندت إحداهما إلى الأخرى ، وقد اختفت قدماهما فى
حذاءين أصفرين : وأدرك الغلام من وضعهما أنهما ساقا رجل
استلقى فى مقعد وثير : وساءه أن لا يستطيع أن يرى أكثر من هذا ،
فلما هم بأن يغادر مكمنه ، انفرجت الستار .. وبرزت امرأة !

كانت فى ثوب سابغ من الحرير الأزرق الباهت — ذكر
(أجوستينو) بقميص نوم أمه ! — وكان شفافاً ، يصل إلى قدميها :
ومن مظهر أطرافها خلال القماش السماوى الشفاف ، كان يخيل
للرائى أنها تطفو فى ماء صاف نمير ! .. وبهت (أجوستينو) إذ رأى
ياقة الثوب ، بحيلة من حيل التصميم ، قد قصت على شكل بيضاوى

امتد حتى خصرها ، ولاح خلاله ثدياها الممتلئان المتماسكان ، يجاهدان كى يفلتا من الضغط الذى أحاطهما به الثوب .. وكان شعرها البنى المتموج يسترسل على كتفيها .. ووجهها الشاحب ، العريض ، يجمع بين الطفولة والإثم فى وقت واحد !.. وعلى عينيها الكليلتين ، وشفتيها المكتنزتين ، المخضبتين ، بدت أسارير تنم عن أن صاحبتها متقلبة الأهواء !

وأقبلت من خلف الستار ويداها خلف ظهرها ، وصدرها بارز إلى الأمام ، فوقفت لحظة جامدة ، دون أن تتكلم ، وكأنما كانت ترقب ما سوف يصدر عن الرجل من تصرف ، إذ بدت شاخصة إلى الركن الذى كان مضجعاً فيه .. ثم تحولت فجأة ، بنفس الهدوء الذى أقبلت به ، واختفت .. تاركة طرفى الستار منفرجين : وللتو ، تحركت ساقا الرجل فغابتا عن بصر (أجوستينو) ، وسمع حركة نهوض :: فابتعد عن النافذة مذعوراً !

وعاد إلى الدرب المؤدى إلى الباب الخارجى ، فدفع هذا الباب ، وانفلت إلى الميدان :: وقد خامره شعور بالاستياء الحاد لفشل محاولته ! كما أحس — فى الوقت ذاته — بجزع مما يترقبه فى الأيام التالية : إن شيئاً ما لم يحدث ، فهو لم يضاجع امرأة ما ، وإنما استولى (تورتيا) على كل نقوده ، ولن تلبث النكات الهازئة المألوفة أن تنبعث من جديد بين صبية العصبة فى الغد ، تصحبها

تلك السخرية الواخزة التى تدور حول علاقته بأمه !.. لقد كانت تفصل بينه وبين ذلك العمل من أعماق التحرر الذى خرج يسعى إليه الليلة ، أعوام وأعوام من الفراغ الخاوى ، والخيبة !.. ولسوف يتحتم عليه — فى الوقت ذاته — أن يظل فيما كان فيه من حياة :: ومن ثم فقد تمردت نفسه على الفكرة المريرة التى راحت توحى إليه بأن ما كان يرجوه قد غدا مستحيلا ، استحالة قاطعة !

* * *

● وإذ بلغ البيت ، دخل دون ما ضجة .. ورأى متاع الزائرة فى الردهة ، وسمع أصواتاً تنبعث من غرفة الجلوس ، فبادر صاعداً إلى الطابق العلوى ، وألقى بنفسه على السرير الصغير فى مخدع أمه .. ثم ما لبث أن راح ينزع ثيابه عنه فى عنف ، فى الظلام ، ويطوح بها على الأرض .. واندس بين أغطية الفراش ، عارياً ..

وبعد برهة ، سرى التخدر إلى جوارحه ، ثم استسلم فى النهاية للنوم : وفجأة ، استيقظ مجفلا ، فإذا مصباح الغرفة مضاءاً ، ينعكس على ظهر أمه .. وكانت فى قميص نومها ، وقد ارتكزت بإحدى ركبتيها على السرير ، تهم بالصعود إليه . فقال على حين غرة ، فى صوت مرتفع إلى درجة تقرب من العنف : « ماما » .

فسارت أمه إليه ، وانحنت قائلة : « ماذا بك ؟ .. ماذا هناك ياحبيبى ؟ » .. وكان قميصها هى الأخرى شفافاً ، كقميص المرأة

التى فى (الفيلا) ، تراءت خلاله خطوط جسمها وثنياته ، كما كانت تتراءى خطوط وثنيات جسم المرأة الأخرى .. فقال فى صوت عال ، مهتاج ، وهو يحاول أن يقسر بصره على أن يعلق بوجهها ، فلا يروغ إلى جسدها : « إننى أريد أن أسافر غداً » .

فجلست أمه على حافة السرير ، وتأملته فى دهشة ، ثم تساءلت : « ولماذا ؟ .. ماذا جرى ؟ .. ألست سعيداً هنا ؟ » .. لكنه ردد قوله : « أريد أن أسافر غداً » .. فمرت بيدها على جبينه فى رفق ، وكأنهـا خشيت أن يكون محموماً ، ثم قالت : « لنر ما هنالك .. ماذا بك ؟ .. ألست كما ينبغى ؟ .. لماذا تريد أن تسافر ؟ » .. وكان قميص نومها يذكره بثوب تلك المرأة التى فى (الفيلا) : نفس الشفافية ، واللـون الباهت ، ونفس اللحم المتراخى فى إذعان واستسلام .. كل ما كان هنالك من فارق ، هو أن ثوب أمه بدا مجعداً غير متسق ، مما زاد من إضفاء جو من الألفة والتكتم على هذه العورة .. وجال بفكر (أجوستينو) أن طيف تلك المرأة لم يقف حائلا بينه وبين أمه — كما كان يرجو — وإنما بدا أنه ، على العكس ، زاد من إظهار أنوثة أمه !

وعادت تسأله : « لماذا تريد السفر ؟ .. ألا تحب أن تكون معى ؟ » .. لكنه بدلا من أن يجيبها على سؤالها ، قال فجأة ، دون أن يدرى لقوله داعياً : « إنك تعاملينى دائماً كأننى طفل ! » .

فضحكت أمه وربتت على خده قائلة : « جميل جـداً .. من الآن فصاعداً سأعاملك كأنك رجل .. فهل يرضيك ذلك ؟ .. والآن يجب أن تنام ، فنحن فى ساعة جد متأخرة » .

وانحنت فقبلته ، ثم أطفأت النور .. وسمعها (أجوستينو) تندس فى فراشها ..

ولم يتمالك أن يفكر قبل أن يستغرق فى النعاس : « كأنك رجل » ! .. ولكنه لم يكن رجلا .. بل ما أطول وأتعس الوقت الذى يجب أن ينصرم قبل أن يصبح .. رجلا !

« تمت القصـــة »



البرتو مورافيا

فتاة من الأقاليم

الفصل الأول

● منذ سنوات ، كانت تعيش فى إحدى مدن إيطاليا الوسطى أرملة فى أواسط العمر تدعى (جاشينتا فوريزى) ، وابنتها (جيا) . وكانت المدينة التى تقطناها ، من تلك المدن المعتمة ، التى تتطاول بأبراجها فوق ربوة عالية .. وكان يخترقها من أدناها إلى أقصاها شارع رئيسى يسمى (الكورسو) ، تنتصب فيه الكتدرائية وأجمل القصور ، وتنحدر منه إلى اليمين وإلى اليسار أزقة ضيقة ومتاهات من السلالم المتحدرة : وفى أحد هذه الأزقة المسمى (ألاباسيون) — وقد يرجع الاسم إلى التمثال القديم المنحوت فى زاوية أحد المبانى ، والذى يمثل صلب المسيح — كانت السيدتان (فوريزى) تشغلان الطابق الأعلى من منزل منهار ، خرب ، يعود طراز بنائه إلى عهد الإقطاع . وكانت المدينة — بوصفها مركز الإقليم — تستمد حياتها من وجود عدد كبير من الموظفين والضباط وأصحاب المهن الحرة فيها .. وكانت السيدتان فوريزى — لفقرهما الذى يشاركهما فيه الكثيرون ، تحاولان الإفادة من هؤلاء الأجانب ، فتؤجران أفضل حجرتين أو ثلاث من شقتهما ، تلك التى لا تطل على الزقاق بل تفتح على الحدائق المضيئة ، غير المعتنى بها ، التى تمتد وراء البيت ..

وكانت الأم فى نحو الخمسين ، قصيرة ، مكتنزة ، متواضعة الملبس ، منكسرة غير متعنتة فى عاداتها ، وإن كانت يداها الرقيقتان ،

البيضاوان ، الناعمتان ، وشعرها المحتفظ بسواده، والمصفف بعناية، يضفى عليها بعض أناقتها الجميلة فى الأيام الغابرة .. كما كان وجهها الذى احتفظت قسماته برقتها – رغم ترهل خفيف – وعلى الأخص عيناها الزرقاوان زرقة منطفئة هادئة ، واللتان كانتا تسطعان فى بعض الأحيان بنظرة جريئة ضاحكة .. كلها تدعو إلى الظن بأنها « كانت » منذ عشرين سنة جميلة ، مختلفة كل الاختلاف عما صارت إليه !

وكانت ترتدى الملابس الشائعة التى ترتديها ربات البيوت فى الأقاليم، مئزرة سوداء أو رمادية، منسدلة إلى القدمين ، وياقة عالية، وحول كتفيها قطعة وشاح تلتئم على الصدر، وما من شبهة للمساحيق على خديها .. لكن من يراها يحس أن مسحة خفيفة من الحمرة ، وثوباً أكثر أناقة ، يكفيان لتغيير مظهرها !

وكانت عاكفة على بيتها ، فإذا لم تكن مشغولة فى مطبخها أو فى أشغال إبرتها ، وضعت حول رقبتها فراء منتوف الشعر ، وعلى رأسها قبعة صغيرة سوداء ، وذهبت إلى الكنيسة . وهناك – وهى منزوية فى الظل ، خلف عمود ، وبغير حماس أو متعة – كانت تتلو فى خفوت ، بحركات شفتيها ، صلوات طويلة ، معقدة .. غير أنها لم تكن مع ذلك ربة البيت الكاملة ولا المتدينة المثلى ، بل كان يبدو أنها مذعنة لطراز من الحياة ليس هو طرازها . وكان بريق «الشقاوة»

لا يفتأ يعاود الظهور من حين إلى حين فى عينيها . ومن مجموع شخصيتها كان يشع طابع خبث خفيف ، لئيم !

* * *

● على أنه إذا كان مظهر الأم، وما لها من رقة فى الملامح وهيئة توحى بحرصها على الكتمان ، لم يكن ليثير الملاحظة ، فإن رؤية الإبنة كانت تكفى للتنبه إلى المفارقة بين حياة المرأتين المتواضعة الراهنة ، وماضيهما المجهول !

كانت (جيا) عاطلة من الجمال وخفة الروح ، لكن ملامحها الواضحة النبيلة كانت تفضح منبتاً غير سوقى ، وتضفى عليها فى بعض الأحيان نوعاً من الحسن العريق !.. كانت طويلة ، ممشوقة ، ذات أفخاذ طويلة نحيلة ، وصدر صغير – وإن كان عريضاً ككتفيها – وكان وجهها شديد النحول، شاحباً ، باستثناء الوجنتين، فهما دائماً أميل إلى الحمرة . أما عيناها فكبيرتان ، بطيئتا الحركة ، وجفناها مسترخيان يخفيان الحدقتين ، ويضفيان على نظرتها مسحة كبرياء حزينة مترفعة !.. وكان لها أنف معقوف ، وفم واسع مطبوع بطابع الازدراء ، وشعر مجعد ، أما لون بشرتها فكان رقيقاً شفافاً، وإن ظهرت فيه فى بعض الأحيان بقع حمراء .. وكان الشعر الخفيف الزغبى الذى ينتشر على ذراعيها وقفاها يعلن عن جسد «مشعر» ، مفعم بالنار !.. ولقد أخذت (جيا) من أمها الشىء القليل ، فيما عدا الأنف المعقوف .. أما من أبيها، فلا شىء على الإطلاق – إذا حكمنا،

على الأقل، بمقتضى الصورة الفوتوغرافية المعلقة على الجدار، والتى تظهر رجلا قصيراً ، أقطش ، ممتلئاً ، لين العريكة .. وكان الأب تاجراً وأفلس ، وقد مات بعد إفلاسه بقليل، تاركاً امرأة بلانقود، وابنته طفلة صغيرة .. ومهما يكن من شيء فإن (جيا) ، بنحولها وشحوبها وقامتها المشرعة، لم يكن فيها شيء من فتاة الأقاليم، بل كان من يراها يحسبها إحدى النساء «الأنيميات» — المصابات بفقر الدم — من عرائس المجتمع ، ساكنات المدن، والموهوبات لحياتها .. اللاتى يقضين يومهن مسترخيات على أريكة ، ولا يخـرجن إلا فى ثوب السهرة!.. مخلوقات مصنوعات لحياة الليل، قصيرات العمر، لاحول لهن ولا قوة !

.. لكن هـذا المظهر ، من بين كل المظاهر ، كان أكثرها خداعاً ! فما عرفت (جيا) قط غـير ملابسها الفقيرة الداكنة ، تضغطها حول قوامها كى تمنح جذعها المهزول قليلا من التجسيم .. أما حياتها التى تحياها فكانت أقصى ما يمكن تصوره من الرتابة والتزمت ، حتى فى مدينة صغيرة ، فى أطراف الأقاليم ..

* * *

● وكانت المرأتان، رغم فقرهما وما تؤجرانه من حجرات بيتهما، تتمتعان فى المدينة بقدر من الاعتبار — وإن كان ، والحق يقال ، قدراً غير وطيد ولا مضمون : كانتا معروفتين من الجميع ، تستقبلان فى كل مكان .. وكان يقال فى مدحهما أنهما لا «تفرضان» نفسيهما،

وتعرفان كيف تلزمان مكانهما !.. وكانت أسباب هذا التقدير — الذى لا يظفر به من هم أغنى وأعز نفوذاً منهما — كثيرة ومتعددة، لكنها غير واضحة دائماً . ومن هذه الأسباب ، بلا ريب، تواضعهما، وربما طابع الأصالة والامتياز ، الذى كان يجعلهما تظهران كأنما هوت بهما الأيام من عز قديم .. مع أن أحداً فى الحقيقة لم يرهما فى درجة من السلم الاجتماعى أعلى من تلك التى تشغلانها!.. أما الحاسدون — ولكل الناس حاسدون ، حتى أقلهم حظاً مما يحسد عليه — فكانوا يزعمون أنهم يعرفون سر ذلك الطابع العريق .. وكانت تقولاتهم قائمة كلها على أمر واحد : علاقة (جيا) بأسرة غنيـة فى الريف !

وكانت (جيا) بالفعل ، تذهب فى كل صيف إلى ضيعة قريبة لقضاء العطلة فيها ، وكانت الأسرة صاحبة الضيعة مكونة من الأب، وابن ، وابنتين تقاربان (جيا) فى العمر . وقد كانت (جيا) طفلة عندما قادتها أمها عدة مرات إلى ذلك البيت ، لقضاء فترات قصيرة لا تتجاوز الأيام .. لكن هـذه الزيارات البعيدة صارت ذكريات يبلغ من بعدها وانطماسها أن (جيا) نفسها كانت ترتاب فى أمرها، سيما وأن أمها لم تكن تشير إليها ، أو تدعها تفهم سبب ترددها على ذلك البيت !

.. ثم صارت جيا بنتاً كبيرة ، فعادت إلى ذلك البيت وحدها، لتقضى فيـه كل صيف شهرين على الأقل ، وهكذا ارتبطت مع

ابنتى البيت بصداقة ثانوية تحولت شيئاً فشيئاً مع السنين ، إلى علاقة « تبعية » . كانت البنتان تخلعان عليها الفساتين التى لم تعودا ترتديانها وتكلفانها بالخدمات الدقيقة الصعبة التى لا يمكن طلبها من مربية .. وهكذا كانت ، بالنسبة لها ، لا صديقة بمعنى الكلمة ، وإنما شيئاً وسطاً بين الرفيقة والمربية . وفى مقابل هذا كانت تستمتع بميزة لها قدرها عندها : أن تجد نفسها على قدم المساواة ، على الأقل فى الظاهر ، مع جميع من يترددون على البيت ، وهم فى الغالب من جيران الريف ، مع نسائهم وأطفالهم .. وكان ذلك الريف عالماً شائخاً ، يجمع بين البساطة والغرور ، ويثير الرثاء والتقـزز فى وقت واحد .. ولكن هـذه الألقاب التى غدت بلا بريق ، وهـــذه الزينة المستوحاة من مقترحات صحف الأزياء الباريسية ، والمنفذة كيفما اتفق .. وهـــذه الأحاديث التى تشـير إلى أمور كانت هى تجهلها .. كانت كلها بالنسبة لجيا ذات النشأة المتواضعة ، تبدو أشياء رائعة ومرغوبة ، ومليئة بخفاء السر وروعته !

أما سيد البيت فكان يجعل دائماً بينها وبينه مسافة لا تتجاوزها ، ويعاملها بطيبة عاطفية وأبوة تقليـدية ، كما لو كان يعامل أختاً فى الرضاع لإحدى ابنتيه . وما من مرة واحدة ، فى كل هذه الأعوام ، سألها عن أنباء أمها . والشهران اللذان كانت جيا تقضيهما كل سنة فى تلك الضيعة كانا ، فى نظرها ، الحدث الرئيسى والتسلية الوحيدة فى حياتها !.. لكن الاعتياد والألفة كانا قد أضفيا عليها مظهر عدم

الاكتراث بذلك النعيم !.. فلم يكن يفوتها أن تجيب صديقاتها اللاتى كن يسألنها أين ستقضى الصيف ، بقـولها : « كالمعتاد ، سأذهب إلى (لاشيناى) :: » .. وإذا سئلت عما تصنعه هناك ، أجابت فى فتور : « أوه ! إننا نحيا هناك حياة بسيطة جداً ، بل مملة ! » .

ولم تكن تلحظ ضحكات مكتومة تصدر من رفيقاتها الخبيثات اللاتى ما كن يلقين عليها هـذه الأسئلة إلا ليرينها إذ تتخذ هيئتها المتعالية وعدم اكترائها السأمان !.. فقد كان بها ، فى الواقع ، ميل طبيعى لايكبح إلى الترف ، وإلى غرور الحياة الاجتماعية :. وخجل من وضعها الحاضر ، ومن فقرها ، ليس أقل من ميلها الأول قوة وتأصلا فى طبيعتها !

وانسياقاً مع حلمها بذلك الفردوس التى كانت تعلم أنها منبوذة منه — وكم ودت أن تدخله — كانت كثيراً ماتمزج الحقيقة بأحلامها ، وتخلط ما تملك بما تتوق إليه ، والحاضر بالمستقبل .. وتخترع ببلاهة ، وهى مندفعة على منحدر نزوتها العنيفة الواهمة ، حكايات غير معقولة تسردها دون أن تطرف : فالملابس التى كانت تعطى لها كمنحة ، بعد استغناء صاحبتيها عنها ، كانت تتحول بقـدرة قادر إلى ملابس تصنعها لها ، بأمر منها ، خياطة بارعة فى (فلورنسا) !.. أما أمها فمليلة بيت نبيل يمت بالقرابة إلى المرحومة زوجة رب تلك الأسرة التى تزورها فى عـــزبة (لاشيناى) ! وهى نفسها رفضت طلباً للزواج من شاب غنى جداً ، وله شهرته ! وفى الشتاء المقبل سوف

تكون فى روما ، تلبية لدعوة تلقتها من (مركيزة) !.. ومائة خرافة أخرى من وحى الغرور !

ومع أن (جيا) كانت بطبيعتها خجولا ، فقد كانت تمعن فى الجرأة وهى تردد أكاذيبها وترهاتها ، متحدية الاستهزاء والخزى ، أمام أشخاص يسعهم بسهولة أن يكذبوها ، ولكن هـذه الجرأة المثيرة الموجودة من كل سـند كانت تدهش هؤلاء الأشخاص وتسكتهم فى النهاية .. وربما جعلتهم يرتابون فى ذاكرتهم !

والواقع أنها ماكان ليسعها هى نفسها أن تقول كيف وصلت إلى الانسياق بهذا الشكل وراء تلك اللذة الشائهة ! .. لعل كذبتها الأولى كانت أدنى إلى الحقيقة مما تلاها من أكاذيب ، فدفعتها إلى المنحدر السيىء الذى تمادت فيه بعد ذلك .. أو لعلها اعتقدت أنها تستطيع أن تخدع الآخرين كما اعتادت أن تخدع نفسها ، فما لبثت آن غدت معروفة بين أهل البلدة جميعاً ، وخاصة بين صديقاتها ، بوصفها كذابة مزمنة ، مضحكة ، ونادرة الجرأة ، وخارجة حقاً عن المألوف !.. كانت أولئك الصديقات يتعمدن تغذية قابليتها هذه بالأسئلة ، وبالطعم يلقينه لها ، وبالشباك ينصبنها لها .. فلقد كانت تسليتهن الكبرى أن يرينها تتخذ هيئة التعالى و « التفوق الاجتماعى » التى يعرفنها فيها :. وكجهاز يبدأ فى العمل عندما تدخل فيه قطعة نقود ، كانت تنطلق من فورها – فى ثقة رائعة – تسرد أكاذيبها الفادحة الضخامة !.. وكانت رؤيتها وهى تكذب لعبة ممتعة تزجى

بها صويحباتها الوقت ، على حد قولهن .. سيما وقد كان هناك نوع من الإتقـان المسرحى فى ذلك الولع التعس الذى أولعت به ، وفى الطريقة « الآلية » التى يعبر بها عن نفسه !.. وهكذا انتهت (جيا) التائهة فى أحلامها ، دون أن تلحظ ، إلى أن خلقت حولها جواً من السخرية القاسية ومن الازدراء المسلى !

ومن جهة أخرى ، كانت أمها صاحبة اليد الطولى فى دفعها إلى منحدر ذلك الولع بالكذب المزهو بدلا من أن تكون أول من يمنعها ويحذرها !.. ذلك أن الأرملة (فوريزى) ، تحت مظهر من البساطة والتواضع ، كانت تخفى جنوناً معادلا لجنون ابنتها .. مع فارق وحيد، هو تجارب الأم القديمة التى اضطرتها إلى كبح المطامح التى لا تزال الابنة ، القليلة الخبرة ، تظهرها بشكل « مفتوح » .. ولو أن الأم كانت تكبت هـذه المطامح دون أن تتنازل مع ذلك عنها !.. وماكانت الصديقات الخبيثات اللاتى يجعلن من (جيا) لعبتهن ، لينجحن فى إسقاط أمها فى الخدعة نفسها ، إذ كانت شديدة الحذر والخوف ،تتوهج فى نفسها ذكريات هزائمها القديمة .. وكما يرى السياسى المهزوم – الذى لم يستسلم – فى ابنه مدافعاً عن سمعته ، ومنتقماً لشخصه وعمله ، كانت مدام (فوريزى) تنظر إلى شطحات ابنتها نظرة عطف ، إن لم تكن نظرة تشجيع !

* * *

● وعندما كانت (جيا) تعود من الضيعة ، كانت الأم تنفق

شهراً كاملا فى حثها على سرد أضأل الوقائع التى جرت هناك ، وكان على (جيما) أن تروى لها أتفه ما قيل من كلام، وتصف لها بالتفصيل الدقيق مظهر ومركز جميع الأشخاص الذين حظيت بمتعة القرب منهم ! .. وعنـدئذ ، كانت عيناها الزرقاوان اللتان أطفأت الأيام بريقهما تلمعان لهـذه « التقارير » ، وتستعيدان بريق الشباب الضاحك .. كانت تغـدو امرأة أخرى .. وبأنصاف كلمات ، وبإيماءات من رأسها ، لم تكن تكف عن تأييد أحاديث ابنتها والتعليق عليهـا .. فإذا كان فى الأمر خيانة زوجية أو اشـتباك عاطفى بين أشخاص رأتهم جيما أو سمعت عنهم كلاماً ، تقبلت أمها أحاديث تلك الأقاويل بتهلل وفضول ، مع أنها ما كان ليفوتها أن تقسو فى حكمها على مثل هـذه الأخطاء لو أنها وقعت من أناس صـغار من جيرانها ! .. وكانت كلماتها القليلة المحبذة تنم عن إيمانها بأن مثل هذا الخروج على العرف ، عنـد طبقة معينة من الناس ، شىء مسموح به ! .. بل — أكثر من هذا — إن هـذا الخروج « واجب » ، إلى حد ما ، شأنه شأن حمل الحلى أو اقتناء سيارة ! .. وكانت هـذه الصورة الوهمية ثابتة فى ذهن الأم ، تدق وتستعصى على العلاج ، أكثر مما هى بالنسبة للابنة التى لا تزال ساذجة وصريحة .. الصورة الوهمية لعالم فيه رجال نبلاء ونساء حسان وأغنياء تنعقد بينهم خيوط اشتباكات خفية ، ويعيشون فى مساكن مفعمة بالبذخ ، ويبعثرون ثروات حسب أهـواء نزواتهم .. وبالإجمال يمنحون أنفسهم كل

المسرات الممكنة خارج نطاق كل قاعدة خلقية ، وفى جهل بالواجبات الاجتماعية ! .. وكان يتضح من كلام الأم أن تلك المسرات محرمة فى العادة على السواد الأكبر من الناس ، وعلى من كان مثلهما قد هبط به الحال وصار من واجبه أن يعيش خاضعاً لقواعـد مستقرة وقاطعة فى تمشيها مع التقاليد .. وقد كانت هذه الأفكار ترجع إلى عهد الشباب الأول لمدام فوريزى ، إلى حقبة كانت هـذه الأفكار فيهـا منتشرة على نطاق عالمى ، بحيث تسيطر على العادات وتوحى بطراز كامل من الأدب .. وقد ظلت أم جيما ، وهى التى لم تتثقف أو تعرف شيئاً مما فى الكتب ، وفية لروح تلك الحقبة ، وفاءها للقبعة التى بطل استعمالها ومع ذلك استمرت هى تضعها على رأسها كلما قصدت إلى الكنيسة ..

* * *

● وكانت (جيما) تستروح فى حنين أمها عزاء و «قوتاً» لمطامحها وأكاذيبها ! .. فقد كان التوافق بينهما فى هـذا المضمار كاملا ! .. وعنـدما كانتا تخوضان معاً فى تلك الأحاديث، كانتا تنسيان أنهما تسكنان فى سطح منزل ، وتنسيان أثاثهما المتواضع ، والزقاق المعتم الذى تفتح عليه نافذتهما ، وسكان « البنسيون » النائمين فى الحجرات المتلاصقة ، وكل أوجه حيـاة الضيق التى تعيشانهـا .. وتنتقلان ، كما بسحر ساحر ، إلى العالم الخيالى الذى تحلمان به ، عالم رغباتهما الباطنة . وأحياناً كانت الأم تطلق تنهدة أسى ، كأنها تريد أن تقول

« آه ! عندما كنت فى شبابى .. » .. لكنها كانت دائماً تسيطر على نفسها ، وتسكت .. بعكس ابنتها (جيا) ، التى تجلس على الغطاء القطنى للسرير الحديدى الصغير ، وتمضى تتكلم بلا توقف ، وبتلك الحيوية الحارة وذلك الحماس المعهود فى ذوات المشاعر الساذجة !

... وترتفع أغنية خشنة من مخمور يمر تحت النافذة متسانداً على الحائط .. و (جيا) تتكلم .

وتموء قطط ويطارد بعضها بعضاً فى سلالم الزقاق ، و (جيا) تتكلم ..

ومن ناقوس الكاتدرائية ترن دقات انتصاف الليل ، ثقيلة وموحشة ، و(جيا) دائماً تتكلم !

وكانت الأم ، فى كل مساء تقريباً ، تنهض فى عذوبة ودون أن تقول شيئاً ، وتقف أمام المرآة المائلة ، وتأخذ فى حل تصفيفة شعرها المعقدة وهى تجاوب ابنتها ، وتضع دبابيسها ، واحداً بعد الآخر ، فوق الرخامة الرمادية التى تعلوها المرآة .. وعندما تصير فى قميصها ، كانت تقاطع ابنتها فى عز كلامها ، فى منتصف عبارة ، فتمنحها قبلة وتبعث بها إلى فراشها !.. عندئذ كانت (جيا) تهوى من حالق ، لكنها كانت تطيع وتمضى إلى غرفتها فى مرارة وخيبة رجاء ..

لكنها ، هناك ، وقد أطفىء مصباحها وانكمش جسدها النحيل المتوقد تحت الأغطية ، لم تكن تتأخر فى استرداد نفسها .. فإن هى إلا لحظة أخرى حتى تتوه مع الأحلام من جديد ، ثم تنام قريرة العين !

الفصل الثانى

● وحدث ، ذات صيف ، أن تنبه ابن سيد العزبة فجأة إلى وجود (جيا) ، كما يحدث أن يكتشف المرء بعد طول السكن فى غرفة ، لون ورق الجدران .. أو رسم الأرضية !

.. كانت علاقته بصديقة أختيه ، إلى ذلك الحين ، بريئة من كل خاطر دفين ، على نحو ما كانت فى صغرهم حين كانوا جميعاً يلعبون معاً . وكانت الألفة القديمة قد جعلت وجه (جيا) فى عينيه، كوجهى أختيه ، سابحاً فى جو طاهر محايد .. فما لحظها قط باهتمام وهو يعيش بالقرب منها ! ولو أنه سئل عن تكوينها لأعياه الجواب، ولكان كل رده أنها طويلة ، وليست بالمفتقرة تماماً إلى الجمال . ثم إن (جيا) كانت فى نظره ، كما كانت عند جميع من يترددون على (الفيلا) التى فى العزبة ، شبه (مربية) ، وأدنى إلى مرتبة الخدم منها إلى مرتبة الضيفة .. كانت من أولئك الأشخاص الذين ينظر المرء إليهم دون أن يراهم ! .. ولكن فجأة ، اختفت كل هذه الاستهانة ، وتغير كل شىء ..

وقد حدث هذا فى يوم من شهر أغسطس ، فى أشد أوقات السنة حراً . وكان (باولو) قد التمس النعاس عبثاً فى حجرته، حيث كان يختنق بين نوافذها المغلقة ، فخرج من البيت مع العصر يبغى العثور على ركن ظليل يهنأ له فيه النوم .. وكانت (الفيلا) القديمة

الرحبة ذات الأبهاء والشرفات قائمة فى حديقة ، وسط الحقول ، وواجهتها تشرف على سهل واسع مزروع ، ترتفع من روائه التلال المكسوة بالأشجار .. فترك (باولو) البيت الهاجع وسعى إلى التلال ، إذ كان يعرف غابة صغيرة من أشجار (القرو) تقع فى قلب أحد الوديان ، على مسافة قريبة — وكان اسم العزبة (لاشيناى) قد اشتق من اسم أشجارها — ثم أمعن فى ممر يتلوى فى التل كالثعبان ، منكس الرأس تحت وهج الشمس ، مرهقاً بالحـر ، لا يفكر فى شىء . وكان يرى (الفيـلا) عالية فوق مستواه ، بنوافذها اللامعـة فى الشمس ، ومن روائها السهل يترامى إلى الأفق الذى شاع فيـه اللون الأبيض من بخار الصيف ، وقد تناثرت فيه أشجار الزيتون ..

فلما بلغ الغابة مشى تحت الأغصـان الخفيضة باحثاً عن مكان يستلقى فيه ، وكانت الأرض رخوة ، سوداء ، أسفنجية ، مغطاة بالأوراق الجـافة والثمـار والأعواد الصغيرة المتعفنة .. ولم يكن الجو فى الغـابة أروح من غيرها ، بل كان الهواء المحبوس الذى يهيم فيه الذباب الصغير يبدو ثقيلا خانقاً .. وإن يكن فيه مفر من الشمس الساطعة الملتهبة ، ومن انعكاس ضوئها الشديد الذى يعشى العيون .. وتلفت الشاب ، فلمح صخرة مكسوة بخضرة العفن ، قائمة بين جذعى شجرتين ، فخطر له أن وراء هذه الصخرة مكاناً طيباً ، فاعتمد عليها

بيـديه وانحنى إلى الأمام .. وعنـد ذلك رأى (جيما) مستلقية على الأرض ، نائمة ..

كانت نائمة على جنبها وذراعاها المرفوعتان تستران رأسهـا ، وكان ثوبها الخفيف من الحرير الأحمر يشف عن جزئيات جسمها النحيل ، المخروطة .. ولحظ رشاقة الفخذ وانسيابه — فلقد كان من الخصر إلى الركبة ، مرسوماً بتمامه ! — وكان من الطول بحيث يبدو غير متناسب مع الجسم كله .. كما لحظ التناقض الفريد بين بشرة الذراعين العاريتين ، الباردة ، الشاحبة ، وبين الشعر الغزير الرطب المشتعل الذى يظلل الإبطين .. وأدهشته هـذه التفصيلات ، كما لو كانت (جيما) لم تعد فتاة كل يوم ، بل امرأة أخرى ، مجهولة منه ، ومرغوبة !.. وود أن يرى وجهها أيضاً ، متسائلا تحت تأثير ذلك الإحساس المحير عما إذا كان سيجد فيه ما ألفه من ملامح وسمات .. فالتقط غصناً دقيقاً وراح فى لطف يدغدغ به ذراعى الشابة النائمة .. وهزت جيما كتفيها قليلا ثم خفضت ذراعاً ، فكشفت وجهها الملتهب المتورد وخصلاتها السوداء المتهدلة على الخدين . وظهر الوجه لباولو غريباً غير مألوف ، غرابة الجسم ذاتها .. بل لقد رأى فى وجه الفتاة مسحة من جمال مترفع لم يلحظه من قبل !.. وكانت جيما فى نومها تقطب حاجبيها وطاقتى أنفها المعقوف ، بينما ترتسم تقطيبة خفيفة على شفتيها المنفرجتين ، وقـد لحظ أنهما ممتلئتان ، غضتان ، لهما لون الفـاكهة الحمراء الداكنة ، وكان تنفسها الهادئ أثنـاء النوم

قد ملأهما حياة وحيوية .. فإذا هما تشعلان فيه ، على حين غرة ، رغبة بلغ من عنفوانها أنه لولا عقبة الصخرة لانحنى فوضع عليهما شفتيه ..

وأراد أن يوقظها ، فناداها مرات باسمها ، فى صوت مضطرب ، بدا خافتاً ثم أخذ يعلو .. حتى استيقظت أخيراً بحركة استولت على حواسه :: حركة مليئة بالفتور الناعس .. وتلفتت برأسها وصدرها نحو مصدر الصوت :

– آه ! هو أنت !

قالتها بلهجتها المألوفة ، لكن عيونهما التقت فى اللحظة نفسها ، فاعتدلت جالسة فى وثبة مرتبكة ، وأردفت وهى تخفض رأسها :

– كنت نائمة ..

ثم نفضت ثوبها كى تسويه ، بضربات جافة من يديها المعروقتين .. وقد راحت تفكر من فورها فى تلك النظرة التى بغتتها فى عينى الشاب .. واندفعت بكل ما لخيالها الساذج من عنف ، نحو ذلك الطريق الذى ما خطر من قبل ببالها ، والذى بدا أنه يتفتح فجأة أمامها .. فأدارت نحو (باولو) وجهاً أدهشه ، يختلف عن ذاك الذى يعرفه .. وجهاً مفعماً بالدلال العابث ، غير المطمئن .. ثم قالت :

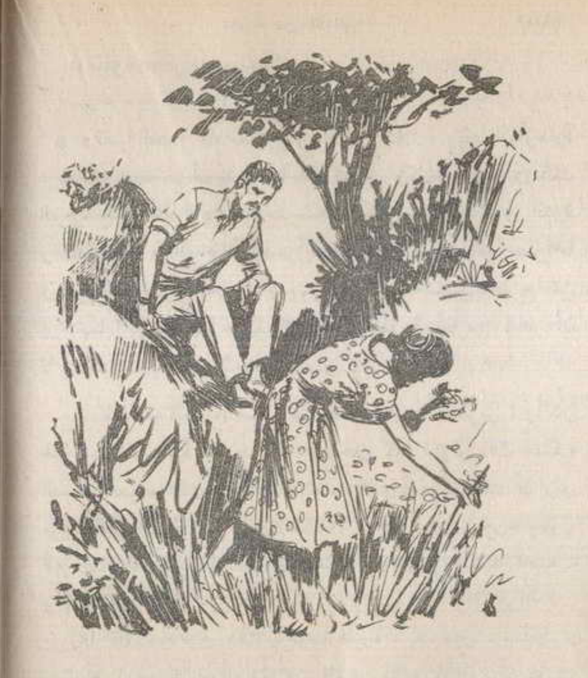
– كنت نائمة .. ولكن ما دمت قد أيقظتنى ، فتعال على الأقل كى أتأنس بصحبتك !

وبقفزة صار إلى جانبها ..

* * *

● وقضيا العصر كله معاً ، يتنزهان بين التلال ، ويقطفان أزهاراً برية ، أرادت جيا أن تجمع منها باقة كبيرة . وكان حديثهما فى ذلك اليوم شبيهاً بما ألفا تبادله من حديث ، ولكن الجدة كانت فى النبرة والقسمات .. وكان اتفاقاً مضمراً قد عقد بينهما منذ التقى بصراهما فى تلك النظرة ، بداية لعهد جديد يحمل بذرة مستقبل خارج عن إرادتهما ! .. وكأنهما منذ تلك اللحظة اتفقا على أن من الخير أن لا يتعجلا الأمور ، ولا يستحثا القدر ..

:. وكانت (جيا) أسرع منه اندفاعاً فى هذا الطريق ، وأكثر لهفة ، وأشد تأهباً للمزيد !.: على حين كان لباولو ذلك الذكاء البسيط الصريح الذى ينعم به العقلاء ، والذى يتيح لصاحبه أن يرى من اللمحة الأولى كل نتائج أعماله !.: كان وهو يسايرها يحاول قمع اضطرابه كلما عاوده قائلا لنفسه : إن جيا هى صديقة أخته ، وأن علاقته بها – حتى ذلك الحين – كانت تشبه صلة القرابة !.. بل إنها كانت – فوق ذلك – قريبة فقيرة ، بلا معين ، تستقبل فى بيت أسرته من باب « الصدقة » ، إلى حد ما .. فكان مركزها فى ذلك البيت أدنى من أن تكون له نداً ! .. لذلك كله فرض الفتى على نفسه الحرص ، كى لا ينساق إلى خطأ يضعه ويضع جيا قبله فى مركز حرج .. فكان يجاوب إيماءاتها المتوددة مراعياً أن لا يتخطى



وقضيا العصر كله معًا ، يتنزهان بين التلال ، ويقطفان أزهارًا برية ،أرادت جيما أن تجمع منها باقة كبيرة ..

حدود المسموح به !.. ولم يكن هو يخفى أحاسيسه ، وإنما حرص على أن لا يعبر عنها بإحدى تلك الحركات التى إن صدرت منه فلا علاج لها .. والتى كانت نفسه تراوده فى بعض اللحظات على أن يستسلم لها !

كانت لعبة خطرة ، فلقد لمحت (جيما) تحفظه ، فأمعنت فى وخزه بحيلها الساذجة !.. وهكذا انقضى يومهما فى ضحك ودعابة .. ثم عادا قبيـل المساء إلى « الفيلا » متعبين ، ولكنهما ناعما البال ..

* * *

● ولم تأت الأيام التالية بجديد ، فكانا يقضيان الساعات معاً فوق التـلال ، دون أن تفلح رغبـة (باولو) ودلال (جيما) فى دفعه إلى إعلان عواطفه !.. كان مركز الفتاة فى أسرته ، كشخصية تابعة تتلقى الإحسان ، يمنعـه من أن يستبيح معها نفس الحرية أو الصراحة التى كانت متاحة له لو أنه غازل صديقة فى مرتبة أختيه!

أما جيما فكانت من الفتيات اللواتى لا مفر للرجل معهن من أن يسلك أحد طريقين : الزواج !.. أو تركهن وشأنهن !.. فما من سبيل معها إلى غرام خفيف بين شاب وفتاة فى سن واحدة ، وإنما هى المغامرة الخفية العنيفة ،غير الممتعة .. الشبيهة بصلة مع خادمة!.. ورغم شغفه بها ، فقد كانت فكرة الزواج منها أبعد ما تكون عن ذهنه .. فى الوقت الذى كان يحنقه فيه ، ويخزيه ، ما يشعر به كل

يوم من انزلاق نحو عـلاقة من تلك العلاقات المنكرة التى تقوم بين سيد شاب ووصيفة !.. وهكذا صـار يحمر خجلا ، أمام أختيه وضيوفهم ، كلما لفته ما فى حديثه معها من اهتمام يفوق المألوف !.. فإذا انفرد معها ، لم يستطع منـع نفسه من النزول إلى مرتبتها ! .. وكان يلقاها دائماً فى الخفاء : فى الليـل ، وفى ساعات الراحة ، وفى الممرات والأركان الخالية ، كما لو كان يلتقى بخادمة !

* * *

● وطال لومه لنفسه على عاطفته ، وتصرفاته التى كان يراها غير جديرة به . ولم يكن يدرك أن لها ما يبررها ، إلى حـد كبير ، من مسلك (جيا) نفسها ، بكل ما كان ينطوى عليه من تدبر وخضوع .. ورغم أنه كان يؤثر أن تكون الفتاة نداً له ، وأن ينحصر حبهما فى نوع من التسلية التى لا نتائج لهـا ، والتى لا تؤول إلى الفضيحة ، وغالباً ما تمهد للزواج .. إلا أنه كان على العكس من ذلك يحس بنفسه منساقاً ، رغم كل جهوده ، نحو ولع خفى لا يتغذى بغير الرغبات العكرة ، بل يقوم على عواطف ليست أقل بعداً عن الحب الحقيقى من الاشمئزاز ، والقسوة ، والاحتقار .

وقد ظل يصارع هذه الدوافع المتناقضة ويقهرها ، حتى كانت عشية اليوم المحدد لرحيل (جيا) ، ففقد سيطرته على نفسه وغادر حجرته قاصداً حجرتها ، وهو لا يعرف ما ينوى فعله .. مطمئناً نفسه بأنه سيكتفى بإعلان حبـه !.. وكانت حجرته وحجرتها يفصل

بينهما صالون كبير مكتظ بالأثاث ، كان ضيوف البيت يجتمعون فيه بعد الظهر ، وكانت تسوده فى تلك الساعة من الليل ظلمة حالكة.. فتقدم نحو غرفتها ، وهو يصطدم – رغم حذره – بكرسى أو مائدة، دون أن يفقد إدراكه بما فى هذا « الاقتحام » الليلى من نبو وغرابة .. فلما بلغ منتصف الصالون ، لمح بأسفل باب (جيا) خيطاً من النور ، فعراه الاضطـراب أمام فكرة يقظتها هنـاك – كما لو كانت تنتظـر قدومه ! – لكنه تقدم على هدى النور حتى بلغ الباب ، فتوقف عنده لحظة متردداً ، قبل أن يجمع عزمه فيطرقه !.. وارتفع صوت يدعو الطارق إلى الدخـول ، ولدهشته الشديدة لم يكن صـوت جيا ، بل صوت إحدى أختيه !

* * *

● كانت جيا – فى قميص من «الفوال» الأزرق محلى بورود صغيرة حمراء – جالسة عند رأس سريرها وظهرها إلى الحائط ، وذراعاها النحيلتان مستلقيتان فوق الأغطية .. وقد بدت مسترخية .. عاشقة.. كما تبدو النساء فى فراشهن !.. وقد جثمت عند قدميها (أنا) صغرى أختيه : بنت لطيفة ظريفة لم تكد تتم أعوامها الثمانية عشرة ، وكانت تبدو فريسة اضطراب مستعذب ، شأن إنسان مازال يرتاب فى حدث سعيد وجد فيه ما أرضى غروره !

وصاحت (أنا) حين رأت أخاها :

– جئت فى الوقت المناسب !

فاعتذر الشاب فى خفوت وهو لا يزال فى انفعال المفاجأة ، وسأل عما يدور ، فقالت (أنا) وهى تمط شفتيها فى دلال ، وقد جلست على السرير وأخذت يد صديقتها فى يدها :

— قولى له أنت يا (جيا) .. قولى له ، أنت .. فلست أدرى حقاً كيف أروى له الأمر !

والتفت باولو إلى جيا ، فاتخذت هذه مظهر الأمومة وهى تسرد الوقائع : شاب من رواد البيت سأل (أنا) اليوم أن تكون زوجته.. وكانت جيا وهى تتكلم تدلى برأيها فى الخاطب ، بوصفها شخصاً خبيراً ، ملماً بهذا النوع من الأمور .. كانت ترى له مزايا عظيمة ، أبرزها أنه ثرى ومن عائلة ممتازة .. وكانت (أنا) تهز كتفيها — فهذه مزايا يسعها أن تهم جيا ، الفقيرة المتواضعة ، أما هى ، فلا ! — كل ما قالته أن الطلب كان مفاجئاً ، لأنها لم تكن متهيئة له ، وأنها لا تستطيع الآن أن تتخذ قرارها .. وهنا وجدت جيا من واجبها أن تقنعها ، بذلك الحماس المفرط المعهود عند الأشخاص ذوى الوضع الثانوى ، عندما يطلعهم شخص أعلى مقاماً على مسألة لا تعنيهم فى شىء .. فقد تحمست وراحت — بإيمان غريب — تصور المسرات التى يعد بها مثل هـذا الزواج ، وتثنى على الشاب وأسرته ، رغم معرفتها الضئيلة بهم .. متوسلة إلى (أنا) أن تفكر قبـل أن تقرر الرفض !.. وبلغ من حماستها ما جعل صديقتها تقاطعها فجأة فى قسوة لم تخل من قصد :

— رويدك ، هدئى من روعك !.. فإنها على كل حال أشياء لا تعنيك كثيراً . إن من يسمعك يحسب أنك أنت التى ستتزوجين ، لا أنا !

كانت العبارة قاسية من جانب فتاة جاءت بنفسها قبل دقائق قليلة تتوسل إلى (جيا) أن تعينها برأيها !.. ولم تكن جيا تتوقع هذه الوخزة ، وهى تندفع فى تحمسها المنبعث عن مروءة ، غير المتأهب للدفاع ، فبدا عليها أن مشاعرها قد جرحت ، ولاذت بالصمت ، وقد احمر وجهها تحت وطأة المرارة والإحراج .. ولكن ما لبثت أن حاولت إخفاء ضيقها تحت قناع من الحرارة المتكلفة ، فقالت : « وما شأنى ؟ .. إنى لم أقصد غير مجرد الكلام . لقد سألتنى رأيى ، فقلت لك ما كنت أفعله لو كنت مكانك ! » .

وفتحت هذه الكلمات التى نمت عن إخلاصها ، عينى الشاب فجأة ! كان واضحاً أن هذا الحماس الجميل قد انبعث عن شعور (جيا) ، وهى تسدى النصح لصديقتها ، بأنها ترى نفسها حقاً فى مكانها ! كما أن (جيا) كانت تقوم — عن وعى أو دون وعى — بعملية « استبدال » أخرى ، فتضع باولو مكان الشاب الذى يخطب ود (أنا) !.. وما كان هذا الخطاب الذى ألقته غير إيماء إلى باولو وشخصها .. وما كانت المزايا والطيبات التى تغنت بها سوى صورة لما فى ذهنها عن زواجها هى من فتاها !

* * *

● وهكذا عرف (باولو) ماكانت تفكر فيه ، وصار عليـه هو أن يتخذ قراره !

وهنا تمثلت له الحقيقة الواقعة بتمامها ، ووضح فى ذهنه معناها الذى يخفيه عنه ولعه المبهم .. فاعتراه فجأة الخجل من نواياه ورغباته التى دفعته إلى حجرة جيا !.. وعاد يراها الآن كما كان يراها دائماً : فتاة بلا حول ولا طول ، تحت رحمته ورحمة كل من يريد استغلال ضعفها !

وأقسم لنفسه أن يضع منذ اليوم حداً لعبث كان — مع ذلك — بريئاً.. وازداد قراره هذا سهولة أمام فكرة رحيلها فى اليوم التالى !.. أما فى العام المقبل فلسوف يقضى الصيف فى مكان آخر ، حتى تعود علاقتهما إلى ماكانت عليه من قبل ..

وكان الحوار أثناء ذلك قد استؤنف بين (أنا) الحائرة و (جيا) المتحمسة .. وكانت جيا وهى تتكلم ترميه بين وقت وآخر بنظرات جريئة .. أو تسائله رأيه ، كى تقحمه فى الحديث .. لكنه كان يمتنع عن الرد ويحول عينيه .. وأخيراً نهض فحيا الفتاتين وغادر الغرفة ..

* * *

الفصل الثالث

● لم يكن (باولو) مخطئاً فيما بدا له ، فكما تكفى شرارة لإشعـال قطعة من خشب يابس ، كان فى غزله البرئ الكفاية لإشعال مخيلة (جيا) بالآمال الوهمية !.. فما عادت تحيا منذ التقيا أول مرة تحت أشـجار (القرو) إلا له ، وإن كان ذلك منهـا أدنى إلى الطموح والغرور منـه إلى الحب !.. لكن (جيا) كانت فى تلك السن التى لا تكون العواطف فيهـا نقية خالصة — طيبة كانت أم شريرة — بل تمتزج فى إرادة للحياة واحدة عارمة .. ذلك أن فكرة الزواج من (باولو) لم تكن عندها منفصلة عن الرجاء فى الخروج السريع من وضعها الحاضر بكل ما فيه من ضعة وبأساء .. فصارت تنتظر كل يوم ، فى قلق ، أن يصارحها بحبه ويحقق رجاءها .. وهـذه الرغبة العارمة ، الأشد قوة من شهوة الحواس — تلك الشهوة التى كانت ما تزال هاجعة فيهـا على استحياء — كانت تتخذ فى بعض الأحيان شكل فكرة متسلطة حقيقية ، فكان يحدث لهـا فى المساء أن تصلى راكعة على ركبتيها أمام أية صورة دينية ، متوسلة فى ابتهال من أجل نجاح خطتها .. أو تظل فى ساعات القيلولة الشديدة القيظ ممددة على سريرها تبنى صروح مشروعاتها ، وتتخيل حياتها عندما تغدو آخر الأمر زوجة لباولو !.. كانت ترى نفسها فى بيت جميل ، فى مدينة كبيرة ، يحف بهـا الأصدقاء ، وتدعى إلى كل مكان :. غنية ،

ومعروفة ، ومرتفعة فوق مستوى سواد الشعب !.. إنها كانت أحلاماً بسيطة ورؤى بلهاء ، تجسمها لها حياة طويلة حافلة بالصعاب ، والانكسارات ، والرغبات .. تجسمها فى عنف خارق ، وفى دقة متهوسة ، كأنها رؤى عالم مثالى ..

وفى انتظار تحقق هذه الأحلام ، وبدافع من الطموح ونفاد الصبر ، كانت تنساق بسذاجة – ودون أن تدرك ذلك – نحو تعريض نفسها للافتضاح والتورط !.. صارت تسائل نفسها ، وقد دنا ميعاد رحيلها دون أن تظفر بذلك الأمل المنشود : ألا يحسن بها أن تتخطى هى حدود الدلال المعقولة ، حتى تنال من الشاب ما تبغى ، باستفزاز أكثر توريطاً !.. لم يكن عندها ريب فى أن (باولو) يحبها ، فأيهما يهيج صبوته ويؤجج ناره : الاستسلام ، أم التأبى؟!.. أتراها تنجح فى الزواج منه إذا هى منحته خضوعها ؟ .. كان هذا هو السؤال الذى قاد عاطفتها إلى التدبير وحبك الخطة ، حتى صارت تعتبر مفاتنها الشخصية أدوات نافعة يجمل بها استخدامها برباطة جأش عندما تتطلب ذلك ظروف الصراع !

وفاجأتها زيارة (باولو) ووجدانها فى هذه الحال .. وكانت الزيارة واقعة شديدة الوضوح ، ولا سبيل إلى الشك فى مغزاها : فها هو ذا مفتون بها حقاً ، ولو أنه وجدها وحيدة فى تلك الليلة ، لاستطاعت بقليل من اللباقة والانفعال المتقن أن تنتزع منه كل ما شاءت من وعود ، دون أن تمنحه كثيراً !.. وقد غمرتها هذه

الفكرة بفرح مشوب بغضب حزين : يا للمصادفة البلهاء ! لقد أفقدها وجود (أنا) فى حجرتها فرصة ثمينة ، وربما تكون فريدة .. وقد لبثت طويلا بعد خروج صديقتها تفكر فيما تفعل ، وتلعن حظها السيء ، فتراودها فكرة الذهاب بدورها إلى حجرة (باولو) ، ثم يطيب لها أن تمنى نفسها بأنه سيعود !.. وتظل ترهف السمع ، راجية أن تسمعه يعبر الصالون إلى مخدعها .. وكانت واثقة من شيء واحد على الأقل : إنها تملكه ، وما عليها إلا أن تدع للزمن إتمام الأمر !.. وكان اطمئنانها إلى هذه الفكرة هو الذى عدل بها آخر الأمر عن الإقدام ، فاكتفت فى ليلتها بهذا النصر الجزئى .. ونامت على هذا العزاء !

* * *

● ونهضت فى اليوم التالى وملء رأسها آمال ومشروعات .. ولكن كم كانت خيبة أملها شديدة حين علمت أن (باولو) قد رحل إلى روما ، « بسبب حلول موعد امتحانات الجامعة » ، كما قالت شقيقتاه !

.. وانتظرته بلهفة طوال يومين – اليومين الباقيين لها فى ضيافة الأسرة – ثم يومين آخرين ، متعللة بحجة عثرت عليها لتأخير رحيلها .. وفى اليوم الثالث تلقت بطاقة بريد لا تحمل منه غير تحية !.. وفى اليوم الرابع فهمت أنها لن تراه مرة أخرى فى هذه السنة ، فأذعنت للرحيل ..

كان الصيف فى نهايته ، وضيوف الأسرة قد قرروا مغادرة (الفيلا) .. وكان من بينهم شابان كانا سيمران بالمدينة التى تقطنها (جيا) ، فى طريقهما إلى روما ، فأخذاها معهما فى سيارتهما .. وكانت رحلة مرحة حافلة بالضحك والدعابة ، ولو أن جيا كانت فى ضحكها إنما تنشد نسيان أحزانها ، والهرب من همها .. هم عودتها إلى بيت أمها !.. وأخيراً ظهرت فى أفق السهل الفسيح تلك القمم التى تعرفها جيا حق المعرفة ، وعلى أبعد ذروة منها — تلك الذروة الداكنة اللامعة ككتلة من حديد على الضوء الخافت لسماء الخريف — طالعتها المدينة بأبراجها ، وسقوفها ، وجدرانها .. وأحست بقلبها ينقبض لهذه الرؤية ، وعانت ، وهى تواصل الكلام والضحك مع رفيقيها ، نوعاً من الشعور — سلفاً — بشر مقبل .. كما لو كانت هذه الأبراج وهذه الواجهات الجهمة ، بنوافذها التى كانت أحياناً تتوهج تحت أشعة الشمس ، قد اتخذت أكثر مظاهرها عداوة ، كى تفزعها ، وتهددها بأشد وأتعس شتاء مر بها !

وفجأة اقترحت فى صوت منفعل : « أوه ! لماذا لا نواصل السفر إلى روما ؟ » .. فأجاب الشاب الذى كان يقود السيارة قائلا فى شهامة إنه يرحب بها إذا شاءت أن تقيم فى بيته !.. فخجلت جيا وتوعدته وهى تضحك بأن تأخذه بكلمته !

وحاول الشاب كى يستثيرها إلى اللعبة أن يقنعها بأنه يتكلم جاداً ، فإذا قبلت فهو عند كلمته .. وفى جو هذا العبث بلغوا مع

مهبط الليل مدينة جيا ، فافترقوا فى ميدان الكاتدرائية .. واستأنف الشابان السفر إلى روما ، بينما آبت جيا إلى بيتها ..

* * *

● وكانت الكآبة دائماً طابع كل عودة لجيا من الريف ، فبعد ما تكون قد نعمت به خلال شهرين من ترف ورخاء ، كان المبنى القديم فى قلب الزقاق ، بسلمه الخشن الضيق وحجراته النابية ، يملأ نفس جيا بإحساس قوى بالانهيار والبؤس .. فهى تقبل أمها فى فتور وتهرع من فورها إلى دورة المياه — المكان الوحيد الذى يستطيع من بداخله أن يوصد على نفسه بالمفتاح — وهناك ، فى ذلك المنعزل السيىء الرائحة ، وأمام النافذة الصغيرة المطلة على الحدائق المشمسة ، كانت تتوه نظراتها وهى تبكى ما طاب لها البكاء ، قبل أن تلطف بالماء البارد عينيها المحمرتين وتعود إلى أمها .. وهذه المرأة التى كانت تشارك فى هوى ابنتها ، كان يبدو عليها أنها تخمن مرارة هذه العودة ، فلم تكن — على حبها لجيا وسعادتها برؤيتها — تستقبلها بما قد يثقل عليها من مظاهر الحنان ، بل كانت تبزها فى البرود وقلة الكلام .. مكتفية ببضعة أسئلة عادية عن رحلتها ومقامها ، تعود بعدها إلى مطبخها أو إلى ما يشغلها من حياكة ..

أما فى هذه السنة فقد كان يلطف من مرارة جيا المعتادة رجاء عذب : فلئن عادت مرة أخرى إلى بيتها الفقير ، فما ذلك إلا لأمد قريب !.. وكانت مفعمة النفس بهذا اليقين إلى حد جعلها تتعجل

الكلام عنه ، فنسيت إظهار امتعاضها التقليدى الذى كانت تختم به فى كل مرة موسم الصيف ، واندفعت تقبل أمها فى توثب خارق حقاً للمألوف .. وقالت أمها إن خدودها أكثر تورداً ونظرتها ألمع مما كانت يوم رحيلها !

وقالت جيا : « ليس هذا بغير سبب ! » .

والتقت عند هذه الكلمات نظرتا المرأتين ، وفهمت إحداهما الأخرى ، فعادتا إلى تبادل القبلات !.. وبعد فتح الحقائب جلستا إلى المائدة ، فألقت الأم على الابنة السؤال التقليدى : « من يكون ؟.. وكيف حدث الأمر ؟ » .

وحكت (جيا) تفصيلات هنائها دون أن تسمى (باولو) ، وصرحت بيقينها من أن كل شىء كان حرياً أن يتم ، لو لم تكن صديقتها موجودة فى حجرتها عندما طرق الشاب بابها !

وبدت الأم أقل اقتناعاً ، لكنها رأت ابنتها فى أوج حلمها ، فلم تشأ أن تجردها من أوهامها ، واكتفت بأن تسألها من جديد عن اسم الشاب ؟ .. فقالت جيا فى مرح : « خمنى ! » .

وبدأت الأم تلقى أسئلة وتجرب افتراضات ، وكما يحدث فى لعبة البحث عن اسم شىء مخبوء ، كانت جيا تقول لها : « دنوت ! » أو « بعدت ! » كلما شارفت الحقيقة أو نأت عنها .. وكانت الأم تستطلع وتسأل وتقترح أسماء ، ثم لا تبلغ الحقيقة ، كأنما يطيب لها

أن تبدى شيئاً من العناد الغريب فى إخراج باولو من حقل بحثها ! .. وأخيراً صاحت جيا بنفاد صبر :

— كيف يسعك أن لا تفهمى ، مع أنه استنتاج بسيط ؟ !.. إنه أول من كان يجدر بك أن تسمى ، دون أن تشطحى هكذا بعيداً فى بحثك !

— فمن يكون إذن ؟

— (باولو) طبعاً ! كيف لم تفكرى فيه فى الحال ؟

وكانت تتوقع تهنئة ، أو على الأقل أسئلة ، فإذا بأمها صامتة تحدق فيها بعينين محا القلق نظرتهما الضاحكة الشابة !.. فسألتها جيا مندهشة من هذا الأثر العجيب :

— لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ ألست راضية عن الأمر ؟

فأجابت الأم ببطء ، وفى صوت خفيض :

— طبعاً . إن كان ماتقولينه حقاً ، فأنا به سعيدة ..

لكن النبرة لم تكن مع ذلك نبرة من وقف لساعته على نبأ طيب !.. بل لقد كان جفناها يخفقان وهى تهز رأسها وتعض شفتيها ، وتفرك منديلها بين أصابعها .. ثم سألت ابنتها فى فضول خجول ، مختلس ومتوجس ، كما لو كانت تخشى الجواب : أى نوع من العلاقات كان لها مع الشاب !.. وفكرت جيا فى سرها : « هو هذا إذن ! » ، ثم سارعت تطمئن أمها : فما كان بينها وبين (باولو) غير الكلام ، وما ورطت نفسها !

ولكن لم يبـد أن هذه التأكيـدات قد أحدثت أثراً كبيراً عند مدام (فوريزى) ، فقد تنهدت من جديد وتأملت ابنتها طويلا دون أن تكف عن لف منديلها وإعادة لفه ، ويداها على ركبتيهـا !.. وكان وجهها الأبيض المكتنز قد اكتسى بسحابة تعبير أليم لم تستطع (جيما) فهمه أو تحـديده : أهو حزن ، قلق ، خوف ، خزى ، شفقة ؟ ما من واحـدة من هذه العواطف بدت لهـا كافيـة لوصف ما تشق به أمها !.. إنه نوع من الكآبة الجنائزية كالذى يعترى شخصاً عند وسادة مريض جاهل بحالته ولا علاج له .. ولا شجاعة عند زائره على أن يقول له الحقيقة !

* * *

● على أن الأمَ لم تلبث أن نفضت عنهـا حالهـا وسيطرت على نفسها ، وأعلنت بحرارة مغتصبة أن لا مطمع لها فوق أن تكون جيما راضية .. فسألتها جيما فى دهشة : لم تتكلم هكذا ؟

وأجابت الأم بأنها ليست واثقة تماماً من أن نوايا الشاب جادة ، فهى تجد صلتهما طائشة ، وعلى جيما أن تتصرف بأقصى ما يسعها من تحفظ .. وردت جيما فى حـرارة قائلة إن شرف (باولو) لا يمكن أن يوضع موضع الشك !.. لكن الأم كانت تنطوى على إرادة واضحة وراسخة للتهوين من شأن هذا الزواج ، ولإعداد ابنتها لخيبة أمل متوقعة !

وصارت جيما ، فى ذلك اليوم والأيام التى تلته ، كلما تكلمت عن (باولو) ، لم تدع أمها الفرصة تفلت منها دون أن تنتهزها للتلميح بريبة أو شبهـة ! .. لكن جيما لم تحفـل بذلك بل لاذت بآمالها ، فقد رأت لموقف أمها تفسيره فى الحب الأموى .. ولعل الأم أصيبت فى شبابها بخيبة أمل ، جعلتها تخشى على ابنتها من مغبة مثل هذه التجربة المرة !

* * *

الفصل الرابع

● كأنما لم يكف المرأتين هم القلق الذى كان ينغصهما كلما تناقشتا بشأن (باولو) .. فجاء الشتاء هو الآخر قاسياً عليهما ، إذ زاد عبء فقرهما وطأة وتفاقماً ، سيما وأنهما لم تنجحا خلاله فى غير تأجير حجرة واحدة من الحجرات الثلاث التى اعتادتا تأجيرها كل شتاء !.. وهكذا اضطرت (جيما) إلى النزول عن ملابس كانت فى حاجة إليها ، واختصرت أمها نفقات البيت إلى أقصى حد ممكن .. ثم توجت هذه الظروف الأليمة مضايقة من نوع آخر : فإن نزيلهما الوحيد ، وهو أستاذ شاب لعلم الطبيعة اسمه (فاجنوتسى) ، وقع فى هوى جيما .

وكان هذا (الفاجنوتسى) رجلا ضئيل الجسم ، يابساً ، خجولا ، كله انتفاضات عصبية مستعصية على القمع .. كما كان مترمتاً فى نظامه ، متحرجاً ، متعالماً ، لا يعرف شيئاً ولا يهتم بشىء خارج نطاق عمله الذى كان يتكلم عنه باستمرار ، ويلون حديثه عنه بضحكات صغيرة و « قفشات مهنية » وانتفاضات عصبية ، وقد بدا عليه الرضى واللذة !.. وكان رغم شبابه أصلع ، أصفر ، جافاً كالشيخ المسن .. ولكن خلف نظارته الضخمة كانت تبرق وتطرف عينان صغيرتان ، غريبتان فى قوتهما !.. وكان زملاؤه متفقين فى الرأى على أن له مستقبلا .. بل كانوا يعتبرونه (أستاذاً) قبل أن

يحصل على كرسى الأستاذية !.. لكن (جيما) لم تكن تعرف من ذلك شيئاً — ولو عرفته لما كانت له عندها أية قيمة ! — فإنها كانت ترى فى (فاجنوتسى) رجلا مسكيناً ، مأمون الجانب ، فاقد الاتزان — وعلى شىء من البلاهة ! — سيما وأن كل ما يمت للحياة الفكرية كان نصيبه منها الاحتقار الحاسم المطلق ، الذى لا ينبع من جهلها وحده ، بل من إيمانها الأعمى بصحة فهمها للقيم الإنسانية .. الفهم الذى يهبط بهذا (البروفسور) الخامل الأصل إلى أسفل درجة من السلم الاجتماعى ، فى حين تضع جيما فوق الذروة الشبان ذوى الألقاب ، الأغنياء ، المتبطلين ، الذين كانت تلقاهم كل صيف فى تلك الضيعة بالريف !

* * *

● لكن (فاجنوتسى) مع ذلك عاشق لها ، يغازلها فى غير خبرة — أسوأ غزل ! — على نحو (غشيم) مضحك ، مسرف فى التحبب والاهتمام المتكلف ، بلهجة (الأستاذية) .. وكان هذا يحدث على وجه العموم أثناء الوجبات ، وبشكل أندر فى المساء ، حين تقنع جيما بصحبة عاشقها المستهام (الغشيم) ، هرباً من التبكير بالنوم ، ولعدم وجود (ما) هو أفضل منه فى جعبتها !

وكانت حجرة الطعام صغيرة ، طويلة فى غير سعة ، ذات سقف خشن البياض ، تشغلها بأكملها مائدة ضخمة . ولم يكن يجلس إليها فى هذا الشتاء غير جيما وفاجنوتسى ، أما مدام فوريزى فكانت

دائماً على قدميها تسعى بالأطباق .. وكانت جيا تأكل قليلا ، وبغير شهية ، ولا تكاد تتكلم .. وقد شردت نظراتها التائهة إلى المصباح المدلى من السقف فوق مفرش المائدة — بسلك بسيط ، يستقر عليه الذباب ! — والذى تستره ظلة (أباجور) من حديد مطلى ، وتحركه ثقالة كبيرة من النحاس .. ولم يكن (فاجنوتسى) يكف عن الثرثرة: كان يطرف بعينيه ويدعك يديه وهو يحدثها عما يدور فى الجامعة ، ويتكلم برضى عميق عن أبحاثه فى المعمل ، وقد يجازف فى بعض الأحيـان بطرفة من الطرائف التى يكررها الأساتذة كل سنة فى قاعات الدرس كى يروحوا عن تلاميذهم جدية العلوم الصعبة !

وكان فى وسع أى فتـاة غير جيا أن تخمن ما لهـذا الرجل من امتياز وذكاء ، وأن تفهم أن هذا الترنح فى الحـديث مرجعـه إلى خجله وافتقـاره إلى التجربة ، وأن توجهـه هى إلى ما تألف من موضوعات الحديث .. لكنها وهى مستغرقة فى أحـلام الغرور والعظمة لم تكن ترى فيه إلا نزيلا مملا ، فضولياً ، تتحمله مرغمة تحت ضغط حاجتها إلى العيش !.. وكان واجب مخاطبته والاستماع إليه يثير نقمتها ، حتى ليتحول احتقارها له أحياناً إلى بغضاء متمكنة .. فكانت عذاباً لها هذه الوجبات حـول المائدة الكبيرة ، مع أمهـا الغادية الرائحة فى صمت وبطء تحمل الصحاف والأطباق من المطبخ إلى صالة الأكل ومن صالة الأكل إلى المطبخ ، و (فاجنوتسى) المتضرم جوى يطاردها هى بثرثرته وحركاته التى تثير حنقها !

وكان الشتاء رهيباً: إذا توقف المطر وسكنت قرقرة الماء المندفع فى البالوعات الشرهة ، عصفت فى الزقاق ريح معولة تنطلق من تلك الجبال الغارقة فى المطر ، لترتفع إلى السماء فى زوابع ودوامات ولهى ، أو تنقض فى بعض الأحيـان كملاءات ثقيلة مبتلة تئن لهـا النوافذ وترتج الأبواب داخل البيت !.. وكانت جيا تصغى إلى ضجيج العاصفة ، وقرقعة الأوانى إذ ترتبها أمها فى المطبخ ، وصوت (فاجنوتسى) العصبى الذى تقطعه شهقات وضحكات قصيرة .. فيبدو لها أن كل هذا الذى تسمعه غير حقيقى ، وكأنه آت من عالم قصى ناء تفصلها عنه منطقة سكون مهيب لا يمكن اقتحامها !.. وكانت هى ، فى هـذا السكون ، أشبه بصورة مقدسة على حائط كنيسة ، لا تسمع الصلوات ولا الخطى والهمسات ، وإنما تدير عينيها نحو السماء .. وسماؤها هى كانت تلك (الفيلا) التى تجد فيها كل صيف حياة سهلة ومجتمعاً لطيفاً !.. وسواء عندها بعد ذلك أن يتكلم فاجنوتسى أو تصفر الريح أو ينقر المطر النافذة ، أو تنزلق الأطباق من يدى أمهـا !.. إنها تستطيع دائماً ، بالفكر ، أن تلوذ بعالم أحلامهـا ، ولا تترك على الأرض إلا شبيهة لهـا ، جامدة ، خاوية ، خرساء !

وهكذا مر الشتاء ، كئيباً !

* * *

● لكن جيا تلقت فى شهر مارس رسالة من (باولو) ! :: كان وهو فى روما – حيث تضطره دراسته إلى البقاء – قد تذكر جيا ، والميل الذى أحسه نحوها .. وكما وقع له فى تلك الليلة التى دفعه هواه فيها إلى بابها ، لم يقو على مقاومة عضة الذكرى ، وإغراء تجديد علاقتهما القديمة .. وربما ساوره أيضاً أمل ، لا يعترف به حتى لنفسه ، فى أن يمهد للقائهما القريب فى الصيف !.. وكانت بداية الرسالة اعتذاراً ، ثم استرجاعاً لذكرى نزهاتهما .. واختتمت بعبارات تفصح بغير التواء عن الحنين والرغبة !

وفى ذروة الرضى ردت جيا عليه من فورها برسالة أطول من رسالته مرتين ! .. فكتب إليها مرة أخرى .. وهكذا بدأت بينهما سلسلة متصلة من المراسلات . وأتاح لهما البعد جرأة على التخلى عن الكتمان القديم ، فتصارحا فى حرية وثقة ..

وزينت فرحة (جيا) لها أنها حقاً .. عاشقة ! .. وكانت تخفى رسائل (باولو) فى أحد الأدراج ، تحت ملابسها الداخلية . وكلما وصلت رسالة منه راحت تقبلها بعد قراءتها ، فى شوق ملهوف ! وكان(باولو) قد كتب تلك الرسائل العاطفية خلال جو العمل ، والسأم ، والوحدة .. فبدا تحت تأثيرها يحب جيا (حباً) حقيقياً .. أما هى فلم تكن تتحدث فى رسائلها إلا عن نفسها وعن حياتها . كانت تصف الحزن والضيق والسأم من الريف ، وتعبر عن رغبتها فى تغيير حياتها ومغادرة بلدتها الصغيرة .. كانت تفتح نفسها وتفضى

بمكنونها فى استسلام هائم مضطرب ، ملىء بالسذاجة المصطنعة أو غير المقصودة ، وتودع رسائلها قليلا من كل شىء : عبارات طالعتها فى روايات ، أو سمعتها فى السينما ، ومقتطفات من محادثات اجتماعية ، وملاحظات مستعارة من كتبها المدرسية – وهى الكتب الوحيدة التى قرأتها فى حياتها قراءة جدية ! – ثم شذرات شتى من كل مكان ، غير صادرة منها ولا هى فكرت فيها أو أحستها ، لكنها كانت تثملها إلى درجة أنها تستدر دموعها !

كانت رسائل مجردة من الإخلاص ، من أول كلمة فيها إلى آخر كلمة ، لكنها مكتوبة بمضاء الثقة ، بذلك الإتقان الملعون الذى ينفرد به الكذب إذا طال احتضانه قبل تفريخه !.. ولم يكن (باولو) يعرف كل هذا ، فوجد فى رسائلها كنزاً من الجمال ، وإن أخذ عليها تنميقها وطابعها الأدبى .. أما (جيا) فكانت متى ملأت ثمانى أو عشر صفحات من الاعترافات الوهمية والتقليدية ، تحس أنها قد تحررت من وطأة الآلام الخفية غير المحتملة !.. وقد أثر هذا الوهم على شخصها ذاته : فصارت لها هيئة أقل تعالياً وأقل اكتئاباً ، وصار فتورها القديم هدوءاً واثقاً ، وتنبه الكثيرون من أهل البلدة إلى أنها قد اكتسبت حسناً وتألقاً !

* * *

● وكان أول من لحظ هذا الحسن ، ودار منه رأسه ، البروفيسور (فاجنوتسى) .. فبدا ذات مساء ، حول المائدة ، أكثر إغراباً

وعصبية من المعتاد : صار كل شىء يضحكه ، فيدعك يديه ويهمهم بكلمات مبهمة ، كما لو كان يكلم نفسه ، أو يرشق (جيما) فى جرأة بعينيه البراقتين الحادتين ! .. ثم لم تكد تنتهى الوجبة حتى مال على مدام فوريزى فأمسكها بقوة عنيفة من ذراعها وهمس فى أذنها بأنه يريد أن يحدثها على انفراد !

وكانت همسته خفيضة ، ولكن ليس إلى الحد الذى يمنع (جيما) من سماعها .: ففهمت على الفور ما سيحدث ، ونطق وجهها — فى انفعال — بتعبير التعالى والاحتقار .. ثم دفعت كرسيها ونهضت خارجة من الغرفة !

وعلل (فاجنوتسى) الغافل خروجها بأنه ناتج عن « الحياء » .. فلم يجرحه فعلها بل دغدغ زهوه !

وما أن صار وحيداً مع الأم حتى ابتدرته هى : « خيراً ! ماذا هناك ؟ » .. فتلوى (فاجنوتسى) فى كرسيه بعصبية ، ويداه بين ساقيه ، وقال متلعثماً : « مدام .. مدام .. هناك أشياء يصعب جداً قولها ! » .

فقالت الأرملة وقد كونت فكرتها واستخلصت ما عنده : « أى أشياء ؟ » .. ثم أضافت بهدوء وهى تشد الخيط من كرة الصوف وتبدأ فى تحريك إبرة التريكو : « ألعلك غير راض عن الطعام ؟ » .

فاحتج (فاجنوتسى) كما لو كان قد مسه رعب : « عفواً ! ..

بل إنى أجد هنا كل راحة ، وما أكلت فى حياتى طعاماً أشهى من هذا .. لا تظنى ، أرجوك .. » .

— لعلها إذن الحجرة التى لا تعجبك ؟! هل ترغب فى تغيير الحجرة ؟

فأخذ رأسه بين يديه الاثنتين ، وهتف تائهاً ، يائساً : « كلا ، يا مدام .. كلا ، مطلقاً ! » .

لكن الأم التى كانت تتسلى ، استمرت : « إذن فلا بد أنك ستعلن لى نبأ قرب رحيلك ، ولسوف يضايقنا ذلك ، أنا وجيما .. فلقد ألفناك ! » .

فقال متوسلا ، مناشداً : « بل إن الأمر يتعلق بشىء سعيد .. لى على الأقل ! » .

وقالت الأم دون أن ترفع عينيها عن شغل إبرتها : « فى هذه الحالة سوف أسر من أجلك .. تشجع إذن وقص الأمر على » .

وعندئذ ضحك (فاجنوتسى) ضحكة عصبية وصاح وهو غير مستقر فى مقعده ، كأنما لم يعد يقوى على أن يظل مستريحاً : « ليته لم يكن يلزمنى غير الشجاعة ! » .

كان يبدو عليه أنه محموم .. لكنه ، فجأة ، حزم أمره ، فقبض بيد صلبة على ذراع الأرملة وهو يقول لها بصوت شديد الخفوت : « ما قولك إذا سألتك يد ابنتك ؟ سترفضين ، هيه ! .. ستهزئين بى ؟! » .

وضعت مدام فوريزى شغلها جانباً، وألقت برأسها إلى الوراء .. ثم تفرست فى الرجل القلق المنحنى نحوها ، وقالت بهدوء : « لست أملك أن أقول شيئاً ، أنا .. إذ يلتزم أن نعرف رأى ابنتى .. » .

وملأت هذه « الإنابة » أعطاف (فاجنوتسى) فرحاً .. فهتف ، كغير المصدق : « إذن فليس لديك ، شخصياً ، أى اعتراض ؟! .. هل أنت مستعدة أن تحدثى ابنتك فى الأمر ؟ » .

– ولم لا ؟

– فى الحال ؟

– فى الحال .

فنهض (فاجنوتسى) مضطرباً ، وإن يكن راضياً ، ودار حول المائدة وهو يقفز ويدعك يديه .. صائحاً : « مدام ! مدام ! .. لن تصدقينى ، لكن القلق يصيبنى بالحمى .. فالمرء لا يتخذ زوجة فى كل يوم ! » .

وكانت هـذه الكلمات مصحوبة بضحكة صغيرة ، جافة ، عصبية .. ثم استطرد الأستاذ : « أنا شاعر بخطورة خطوتى .. فما فكرت قط من قبل فى تأسيس أسرة .. إنها فكرة خطرت لى على حين غرة ! .. هل تستطيعين تصورى متزوجاً ، ولى أطفال ؟ » .

... وضحك من جديد ، ثم توقف لينظر إلى مدام فوريزى : « هل تتصورينى هكذا حقاً ؟ .. لا شىء يدفعنى إلى الضحك مثل هذه الفكرة !.. وابنتك ، ماذا هى قائلة ؟ » .

فأجابت الأرملة ، التى كانت تتأمله طيلة الوقت وقد بدا عليها التفكير : « هدئ من روعك .. إن ابنتى سوف تجيبك بـ « نعم » أو « لا » ! » .

فوثب (فاجنوتسى) وقد تقلص وجهه فى تقطيبة غريبة : « بلا شك : « نعم » أو « لا » .. كلمتان صغيرتان : « نعم » و « لا » .. هذا فى نظرك شىء بسيط .. ولكن ما العمل إذا لاذت بالصمت عن لا و نعم ؟! » :

غير أن الأم الجادة الحائرة لم تبتسم ، وإنما أجابته : « فى الانتظار .. لست أعرف شيئاً عنك يا بروفسور .. لست أعرف شيئاً عن عائلتك ، ولا عن مركزك .. اجلس بالقرب منى وحدثنى عن نفسك قليلا » .

فاندفع (فاجنوتسى) : « وكيف لا يا مدام فوريزى العزيزة جداً ؟ معذرة .. » .

وجلس فى مواجهتها وبدأ يؤدى « واجب » تزويدها بجميع التفصيلات المنشودة : إنه يتيم الأب والأم ، وابن وحيد ، ميسور الحال – إن لم يقل إنه غنى – يملك فى روما عدة عمارات ذات إيراد طيب .. ثم بدأ يسهب فى بند الوظيفة ، فدخل فى تفصيلات لانهائية ، مشوشة ، لبعض المؤامرات الجامعية المدبرة ضده ، والتى لن يتأخر طويلا انتصاره عليها بفضل كتاب يعكف عليه منذ سنوات ، وسوف يحدث ضجة عند نشره فى القريب العاجل ! .. وأوغل

(الأستاذ) فى هذا الموضوع ، حتى لقد أحضر للمرأة من حجرته حزمة من أصول الطبع مليئة بالأرقام والمعادلات والرسوم !.. وهو يؤكد لها ، فى غير تواضع – ولا زهو ! – وإنما ببساطة تامة ، كأمر جلى ، أنه كتاب مقدر له أن يحدث ثورة فى دنيا علم الطبيعة الحديث ، وأن يضمن له كرسياً فى جامعة روما !

... وكان يتفزز وهو يتكلم ، عاجزاً عن قمع حركاته العصبية ، رغم أن واجبه كان يقتضيه – كى يظفر بالثقة – أن يبدو جاداً ، هادئاً .. ورغم أن مدام فوريزى لم يكن فى وسعها فهم «الاستراتيجية» الجامعية ، أو تقدير قيمة الأوراق المطبوعة التى كان البروفسور يعرضها تحت أنفها .. إلا أنها لمست بالبداهة أن وراء هذه العصبية وهذه الأطوار الغريبة شيئاً حقيقياً ، جدياً ، له أهمية من الصعب تقديرها .. وبينما كان هو مسترسلا فى اهتياجه المتزايد ، يائساً من إقناعها بقيمته الشخصية ، كانت هى قد تم اقتناعها بأن هذه «الصفقة» تفوق كل ما جرؤت على أن تؤمله !

ولكن بقى أن (فاجنوتسى) – إلى جانب مظهره الزرى وضآلة حظه من وسامة الشباب – لم يكن ينتمى إلى ذلك العالم المتألق النبيل الذى طمحت إليه هى وابنتها طوال حياتهما !.. ذلك هو العائق الشديد الخطورة الذى وهنت أمامه كل حكمة المرأة المجربة ، بل الذى اعتبرته عقبة يكاد يكون من المستحيل تخطيها !.. على أنها لم تكن ، رغم ذلك الولع الجنونى الهادئ بالعظمة ، من البلاهة بحيث

لا ترى أن هذا الطلب من (فاجنوتسى) فى مثل ظروفها هى وابنتها لا يمكن أن يزدرى أو يهمل ، فإن الخاطبين الذين تقدموا حتى الآن إلى (جيما) كانوا رجالا متقدمين فى السن من أصحاب الحوانيت المعروفين فى المدينة ، ممن أرادوا فى بيوتهم فتاة فقيرة منكسرة ، ألفت إنفاق القليل ، وإن كانت فى الوقت نفسه حسنة التربية ، ترفع من قدرهم فى نظر مواطنيهم .. فإذا قورن (فاجنوتسى) بهؤلاء ، فإن الأعمى يسعه أن يرى فيه « صفقة » طيبة !

ووجدت الأم من واجبها أن تجيب الأستاذ بكلمات حذرة غير قاطعة ، دون أن تعد بشىء – ولكن دون أن تجزم أيضاً بالرفض ! – ثم نصحته فى النهاية بأن يذهب لينام ، فلسوف تتحدث فى الأمر مع ابنتها .. وسيعرف الجواب فى الغد !

الفصل الخامس

● عندما انسحب (فاجنوتسى) ، بعد الكثير من التوسلات والتوصيات ، لبثت الأرملة فى مجلسها إلى المائدة الخالية ، ويداها على ركبتيها ، وعيناها ثابتتان على نور المصباح .

كانت تفكر !

تفكر فى حياتها الخاصة – المنتهية منذ الآن – وفى حياة ابنتها التى تكاد تبدأ ..

ولم يكن تفكيرها من قبيل الندم على أخطائها – التى التمعت فى ذاكرتها الآن على ضوء جديد ، واضح المغزى – ولا كان هذا التفكير منصباً على وجوب منع ابنتها من ارتكاب أخطاء مشابهة .. وإنما كان تفكيرها بمثابة « رثاء » لآمال ابنتها البلهاء !

إنها ما ندمت قط على أخطائها ، بل كانت دائماً متعلقة بها ، كما لو كانت هى وقود حياتها الفريد !.. فى شبابها كان الباعث على ندمها أنها لم تكن قادرة على ارتكاب أخطاء معينة .. واليوم كان مبعث مرارتها القاسية اكتشافها أن ابنتها بدورها ستضطر لأن تتنازل عن تلك الأخطاء !.. وملأها هذا الاكتشاف إحساساً بالأسى ، والعجز ، والذهول .. كما يحدث حين يجد المرء نفسه وجهاً لوجه أمام ظلم صارخ ، غير مفهوم ، يلقى فى روعه أنه عاش حياته عبثاً ، وعانى ماعانى.. بغير جدوى !.. كانت الأم قد عاشت ، وأذعنت ،

وضحت إلى اليوم ، مسوقة بأمل واحد – يشبه ما يتمناه الشخص لابنه من أمجاد عسكرية أو سياسية – ذلك هو أن ترى ابنتها عروساً نابهة فى المجتمع ، دمية اجتماعية ، عابدة مال ، مزهوة ، أنانية ، وفاسدة حتى نخاعها !.. لذلك فهى اليوم حزينة لأن (جيما) لن تتزوج إلا رجلا من طراز (فاجنوتسى) !.. بل إنها لتكاد تحس بالحاجة إلى أن تستغفر ابنتها ، فقد نشأتها على أمان ووعود !.. ومن ثم وجدت مدام فوريزى نفسها – لأول مرة فى حياتها – تفكر فى الموت بمرارة ، كما تفكر فيه العقول « الضريرة » التافهة التى ترى فيه آخر شقاواتها التى لا تستحقها .. وأشدها سواداً !

وأخيراً نهضت الأم ، فأطفأت المصباح .. وقصدت إلى (جيما) فى حجرتها !

* * *

● جلست مدام فوريزى عند قدم السرير ، وبدأت تقص أمر حديثها مع البروفيسور .. فأصغت إليها (جيما) وهى راقدة ، فى جمود وتقزز ، وعينها إلى أظافرها .. حتى إذا ما انتهت الأم من قصتها قالت الابنة :

– إنه مجنون !.. ولأهون على أن أدخل الدير من أن أتزوجه !

فأطالت أمها النظر إليها ، دون أن تفتح فمها . كانت مضطربة ، لا تقوى على منع نفسها من مشاركة (جيما) فى ازدرائها لخاطبها ، لكنها فى الوقت نفسه كانت ترى أن هذا الطلب ينبغى أن لا يرفض

تماماً .. ومن هنا غامرت بمعارضة ابنتها ، ومحاولة تزيين الأمر لها ، فالرجل غنى .. و ..

لكن (جيا) هزت كتفيها بازدراء ، وأجابتها: « ذلك المهووس المزيل !؟ .. لن أتزوجه ولو وزن بالذهب ! » .

... كانت تتكلم فى هدوء ، وبغير ضغينة ، ولكن كان من الواضح أنها ترفض مجرد بحث الموضوع !.. ولقد أدهش هذا الهدوء أمها أكثر مما لو كانت قد ثارت ثورة عنيفة .. فحاولت الأم – بكل حيطة – أن تقترح عليها أن تلاطف (فاجنوتسى) بعض الملاطفة ، فهو المرشح الوحيد فى الوقت الحاضر ، على كل حال !.. لكن (جيا) ابتسمت ابتسامة مترفعة ، وقالت : « أما عن المرشحين ، فعندى من هو أحسن ! » .

وبحركة متعالية أخرجت من درج منضدتها الليلية أربعة خطابات أو خمسة من بريد (باولو) ، وألقت بها فوق السرير .. فى وجه أمها !

وكأنما صعقت الأرملة التى لم تكن تعرف شيئاً عن تلك الرسائل ، فلم تجرؤ على لمسها – لأن رؤيتها كانت فى ذاتها حدثاً كبيراً ! – وعادت تلح من جديد ، مكررة أن من الخطأ رفض (فاجنوتسى) رفضاً باتاً !.. وكانت تلح بنشاط فريد وغير معهود منها ، هى التى كانت دائماً مذعنة لإرادة ابنتها !.. فماذا يكلف (جيا) أن تقول إنها تريد أن تفكر ؟ لا شىء .. وهكذا تحتفظ

بـ (فاجنوتسى) فى متناول يدها ، كما تحتفظ بطبق من الطعام ساخناً !

واكتفت (جيا) ، فى عدم اكتراثها المطلق بخاطبها السيىء الحظ ، بأن تجيب أمها : « لامانع عندى ، فتصرفى كما تشائين ! » .

وكانت قد استردت الرسائل فى يدها وجعلت تعيد قراءة فقرات منها باهتمام ، راض ، واضح .. فنظرت إليها أمها وهى تقرأ ، ثم نهضت متنهدة وتمنت لها نوماً طيباً .. وغادرت الحجرة . أما الفتاة فلم تكد ترد تحية أمها !

* * *

● وفى اليوم التالى أقبل (فاجنوتسى) مرتجفاً يطلب الرد الموعود !.. فأجابته مدام فوريزى ، كما قررت بالاتفاق مع (جيا) ، برد مبهم غير محدد : فابنتها تريد أن تفكر فى الأمر ، وهى تشكره كثيراً .. لكنها تسأله ، فى الوقت الحاضر ، أن ينتظر ..!

وكان يخشى رفضاً باتاً ، فرحب بهذا الاتجاه ، بحرارة .. فلتفكرا على مهل ، فلتفكرا أطول مدة تريدانها .. فلا غضاضة عليهما فى الحيطة ، فى مثل هذا الأمر الدقيق !.. وأوصته مدام فوريزى – كى تجنب (جيا) إلحاح عواطفه المتدفقة ، الذى قد يثير فيها صراحة خطرة – أن يتجنب أى تلميح إلى هذا الموضوع فى كلامه مع (جيا) ، وأن يدع الوقت يفعل فعله ، فبعض

الأمور بحسن عدم التعجل فيها .. وذات يوم جميل ، عندما تكون (جيا) قد ألفت فكرة الزواج منه ، سيتلقى الرد الذى يتمناه !.. ووافق (فاجنوتسى) على هذه النصيحة أيضاً ، بنفس الحماسة العصبية .. بل إنه أراق على (جيا) بعد ذلك احتراماً مليئاً بالتحفظ ، إن لم يكن بالبرود .. ولو أنه كان فى غيابها يمعن فى التهافت على أمها ، وتوصيتها بنفسه ، والتوسل إليها !.. وكانت مدام فوريزى تشجعه مرة ، وتثبط همته مرة أخرى ، كى تحتفظ به - كما قالت لابنتها - رهن إشارتها وفى متناول يدها ، يتلظى على نار الرجاء الخجول والقلق المفضوح !

وبين هذه المناورات وهذه الخدع .. مر الشتاء !

الفصل السادس

• ظل الطقس قارس البرد فى تلك البلدة المرتفعة طيلة شهر مارس ، ثم هطل المطر خلال شهر أبريل .. وأخيراً أقبل مايو تهب من أعطافه نسمات الربيع المنعشة .. وإذا الريح التى كانت تصفر حول جدران المدينة قد فقدت صقيعها واكتسبت دفئاً ، فاندفعت فى وفرة عبر السماء تطرد سحباً كبيرة بيضاء ، وتنفخ ستائر النوافذ المفتوحة إلى أقصى مداها .. وقد ملأت الفضاء ، لا بصرخات وأنات ممزقة ، بل بصفير طويل واهن ، كما لو كانت مضناة مهزومة ، قد أعياها فتور الفصل الجديد الوافد فى أعقاب الشتاء ..

وكانت هذه الفترة من أسعد الفترات فى حياة (جيا) . كانت كل يوم - قرب الظهر ، وفى المساء ، ساعة النزهة - تذهب إلى أقصى المدينة حتى تبلغ مرتفعاً يشرف البصر منه على السهل المترامى حتى القمم الزرقاء التى ينطبق عندها الأفق ، وهناك كانت تتملى من المنظر الفسيح وتتأمل المنطقة التى تضم ضيعة أصدقائها :: وكان مرتفع من الأرض يخفى غابة القرو التى التقت فيها بـ (باولو) ، وعلى سفوح التلال كانت أشجار الزيتون السمراء تخفى الطرقات التى طالما تنزها فيها معاً !.. وكانت ، فى وقفتها تلك ، تسند يديها على حاجز المرتفع وتتظاهر - كى لا تجذب إليها اهتمام من يعرفها -

بأنها تتأمل قطاعاً من تفصيلات المنظر ، كالدخان الأبيض لقطار عابر وراء صف من الأشجار ، أو أشكال السحب المتغيرة ، أو سيارة ركاب ترق طريق الخندق .. لكن نظرها كان يتجه برغمها إلى موضع (الفيلا) التى فى الضيعة ، فتمضى تحدث نفسها بأن حياتها ستتقرر بعد نحو شهر ، وأنها بعد أن ذاقت الفاقة والضنى كل ذلك الزمن سوف « تعيش » أخيراً !.. فقد أخذ الحظ يبتسم لها ويلاطفها ، كما تبتسم لها هذه السماء ، والشمس ، وهذا السهل الجميل الخصب !

* * *

● وفى تلك الأيام استمتعت لأول مرة بأشياء كان ذهنها المتكبر الساخط قد عاقها عن أن تقدرها حق قدرها ، بل عن أن تراها : من ذلك مفاتن الطبيعة ، ومسرات الحياة اليومية — التى ما عرفتها يوماً ! — كما استطاع الرجاء فى أن تنعم بأيام أسعد من أيامها الماضية ، أن يلطف من جفوتها البلهاء الفظة التى يتصف بها الطموح المغرور دائماً ، فتنزل هذه الجفوة عن مكانها لحالة مختلفة من التهيؤ النفسى ، وتتفتح نفس الفتاة للمشاعر الهنيئة .. ولأول مرة أحست (جيما) أنها تعيش فى استسلام ، بغير تفكير ولا تدبير .. ولا أكاذيب !

لكنها ، ذات يوم — قرب نهاية الشهر — عادت من نزهتها المسائية المعتادة ، فوجدت أمها تدور فى البيت فى اضطراب وقلق ،

وقد برز من جيب مرولتها طرف مظروف ممزق .. وما أن رأت ابنتها حتى أشارت إليها أن تتبعها .. وذهبتا إلى حجرة (جيما) ، وهناك أجلست مدام فوريزى ابنتها على السرير وتناولت يديها ، وهى تنظر إليها طويلا فى سكون ، وفى مواساة متألمة ، وأخيراً قالت :

— يا صغيرتى (جيما) ، هيئى نفسك لنبأ سيء !

فلهثت دقات قلب (جيما) لهذه الكلمات ، وفكرت فى (باولو) ، فشحب لونها ، وأحست أنها على وشك الإغماء .. لكنها تحاملت على نفسها فسألت : « أى نبأ ؟ » :

— تلقيت رسالة من ن — (اسم صاحب العزبة) — يقول فيها إنه يأسف لأنه لن يستطيع استقبالك فى هذا الصيف .. سيكون فى وسعك أن ترى (آنا) و (لويز) ، وتريانك ، ولكن ذلك لن يكون فى العزبة بعد الآن !

وصاحت (جيما) : « كيف !.. وهل لن يقتصر ذلك أيضاً على هذه السنة وحدها ؟ .. هل سيسرى على السنوات القادمة كذلك ؟ » .

— أجل . يقول إنه يحسن أن لا تعودى إلى هناك مرة أخرى !

وكانت الأرملة تتوقع أن ترى ابنتها تنهار باكية تحت وطأة هذا الإقصاء ، بل كانت تكاد تتمنى ذلك — فإن الألم الشاكى المذعن كان يلائم خططها خيراً من سواه — لكن (جيما) لم تكن

ذات طبع ضعيف ، وكانت قوتها العاطفية تستبعد الدموع وتجنح بها إلى الاستنكار والغضب .. فلم تلبث طويلا مصعوقة بدهشتها وإنما انتزعت نفسها فجأة من قبلات أمها المواسية وقفزت على قدميها ، صائحة فى غضبة هادرة :

– أنا أعرف تفسير كل هذا ، إنه بسبب (باولو) !.. قولى الحقيقة .. إنهم بسبب (باولو) لم يعودوا يريدون رؤيتى !

– أجل يا (جيما) ، كل ذلك بسببه .. ولكن ما جدوى أن تضيقى بالأمر ؟ .. أليس أولى من هذا أن ..

فلم تدعها ابنتها تتم قولها ، بل قاطعتها : « إن الأب لا يعتبرنى جديرة بأن أدخل فى أسرته !.. بأن أغدو زوجة ابنه !.. طبعاً ! من دواعى شقائى أنى أحمل اسم فوريزى ، فوق أنى بلا مال ، فلو كنت ابنة رجل من رجال الصناعة فى (ميلانو) ، لاختفت قصة أصلى ومحتدى هذه ، كأنما بسحر ساحر !.. لكن كل جريمتى أننى لست غنية ، ولا نبيلة ! » .

كانت الفتاة قد أطلقت العنان لمشاعرها المنبعثة من كرامتها الجريحة وكبريائها المدحورة ، وكانت وهى تتكلم تروح وتجىء فى حجرتها بخطوات عصبية ، من ساقيها الطويلتين الرشيقتين ، ثم تتوقف وقد ضمت قبضتيها وضربت الأرض بكعبيها !.. وكانت أمها تتأملها فى سكون وهى جالسة على السرير ، مفعمة النفس بالشفقة عليها ، وبشىء من الارتياح مبعثه أملها فى أن تنفس ابنتها

عن كربها وحنقها بهذه الصرخات وهذا اللوم العاجز ، دون أن يتعدى الأمر ذلك إلى نتائج أخرى !.. ثم سألتها فى النهاية :

– وماذا أنت فاعلة الآن يا (جيما) ؟ لا مفر من ..

– هراء !

قالتها البنت وانتصبت أمام أمها صائحة : « إنى أهزأ بهم وبدارهم ومدعويهم ! .. ولكن (باولو) شىء آخر . ليفعلوا ما بدا لهم ، ولكن ليبتعدوا عن (باولو) .. فنحن راشدان ، هو وأنا ، وسنتزوج رغم أنف كل من يريدون بنا سوءاً .. أقسم لك على هذا !

– ولكن يا صغيرتى المسكينة ، ماذا فى وسعك أن تفعلى ؟

وهنا لم تعد (جيما) تتكلم ، بل تصرخ : « ماذا أفعل ؟ سأفعل أبسط شىء يمكن تصوره .. سأكتب إلى (باولو) أن يحضر فى الحال ، وأطلعه على ما بلغته الأمور ، وسيرى هو أن الحق فى جانبى ، وبذلك لن تمضى خمسة عشر يوماً على الأكثر حتى نكون قد تزوجنا ! » .

وثب إلى قلب مدام فوريزى خوف مفاجىء ، فلقد كان فى الرسالة التى تلقتها تلميح واضح من الأب إلى رغبة ابنه فى الزواج من (جيما) ، إذ جاءه فأنبأه بأنه يحبها وأنه قد قرر الزواج منها .. فما من وسيلة شريفة تسمح له أن يختص بها نفسه غير الزواج .. وكانت (جيما) تجهل قرار (باولو) هذا ، فهى قد تحدثت عنه بهذه اللهجة من قبيل التحدى ، وليس عن علم : لكن أمها كانت

بدورها تجهل هذا ، فتولاها الرعب من أن تكون ابنتها قادرة على تنفيذ مشروعها الجرئ .. وقالت فجأة : « عدينى أنك لن تفعلى شيئاً من هذا القبيل ، وأنك ستكفين عن الكتابة إليه .. » .

فقالت (جيا) بصراحة : « أنا ؟ هذا لن يكون أبداً .. أأرضى بالهزيمة ، كى لا ألوث اسمهم السامى ؟.. وأعامل كخادمة ؟ .. لست مجنونة .. واعلمى أنى سأكتب له هذا المساء ! » :

— وماذا تقولين له ؟

— إننى أرغب فى أن أكلمه ، وأن يحضر فى الحال !

والتقت أعينهما لحظة فى سكون ، وكانت الأم تهز رأسها فى هدوء حزين ، وتوسل صامت .. ثم تنهدت وجذبت ابنتها إلى جانبها قائلة : « صغيرتى (جيا) ، تعالى هنا واسمعينى .. هناك دوافع جدية ، غير هذه التى تفترضينها ، تجعل هذا الزواج مستحيلا !.. فإن كنت تضمرين لى حباً فتنازلى عن سؤالى عنها وافعلى ما أقوله لك .. » .

ولم تفت (جيا) لهجة أمها الخطيرة ، لكنها فى عنادها استروحت شركاً ، فلم تشأ أن تستسلم : « لست أرى مانعاً غير الذى قلته ، والليلة سأكتب له ! » .

وحاولت الأم ، دون أن تتمسك بأهداب أمل واهم ، أن تناشد عاطفة البنوة فى الفتاة ، فقالت : « جيا ! هذا الذى تعتزمينه يسبب لى حزناً شديداً .. » .

لكن (جيا) قاطعتها فى حدة : « إنى أفضل أن أسبب لك حزناً شديداً كما تقولين ، على أن أذعن دون أن أعرف لذلك سبباً ! » .

— هناك سبب !

— إذن فاذكريه !

لم تدر الأم كيف تتنصل من هذا الإحراج القاطع ، فسكتت ونكست رأسها .. وإذ ذاك أردفت (جيا) فى رقة مواسية : « أترين يا أماه ، إنك أنت التى تتراجعين ، فى اللحظة التى تتطلب منك على العكس تشدداً وصلابة !.. فلنرهم أننا أنداد لهم ! » .

لم يبد على الأم أنها فهمت ، أو حتى أنها كانت تصغى !.. فإن نظرتها إلى ابنتها كانت نظرة مواربة مترددة .. لكن هذه الكلمات الأخيرة جعلتها تحزم أمرها : فرفعت رأسها ، وقد لمعت عيناها الجريئتان كما تلمعان فى أسعد لحظاتها ، وقالت بغتة :

— أنت على الأقل ند لهم ، ما دام دمهم يجرى فى عروقك !

فسألت (جيا) فى ذهول : « ماذا تعنين ؟ » .

فبدت على الأم هيئة من تفشى سراً ، فى زهو وتفاخر — كما لو كان إفضاؤها بسرها يبرر عندها خروجها على حياء الأمومة — وشرعت تقول : « عندما كنت بنتاً — قبل زواجى من (فوريزى) — تبادلنا الحب أنا ووالد (باولو) .. وقد ولدت أنت كثمرة لهذا الحب .. فأنت ابنة ذلك الثرى ، شأنك شأن (آنا) و (لويز) !..

وما تصورت أن يعشقك (باولو) ، وإلا كنت نبهتك .. والآن ، هل فهمت لماذا لا يمكن إتمام هذا الزواج ؟ » .

كان غضب (جيما) قد زايلها .. لكن دهشتها جعلتها ترتاب فى أنها أحسنت السمع .. فهتفت منكرة :

– باولو وأنا .. أخ وأخت ؟

– هو هذا !

وكما روت الأم قصتها دون خزى ولا أسى ، وإنما بلهجة الرضى عن الماضى ! .. كذلك عجزت (جيما) عن أن تحس الفاجعة فى تلك السقطة التى جعلتها تنظر إلى أخيها بعين (الخطيبة) ! .. ولو أنها كانت عاشقة حقاً لهالها الأمر .. لكنها ، فى طموحها الوصولى ، لم تكن العاطفة التى تملكتها إلا من قبيل زهو الغرور ! .. فلقد تمثل لها (باولو) كأداة تحقق لها حلم الحياة المترفة ، فكان ذلك ما أنقذها اليوم من عذاب الصدمة التى كان مفروضاً أن تصيب عاطفتها العارمة اليائسة لو أنها كانت عاطفة صادقة ! .. بل ولم يصدم إحساسها ما انطوى عليه اعتراف أمها من تجاوز لمشاعر الأمومة .. ولا خطر لها أن شقاءها لم يكن راجعاً إلى القدر المحتوم ، وإنما كانت هى التى استثارته بأفانين المرأة اللعوب ! .. كل الذى بقى فى نفسها بعد انقضاء لحظة الدهشة الأولى كان الإحساس الغامر بالظلم ، والأسف العنيد المر ! .. بل إنها – دون أن تعترف بذلك لنفسها – كادت تأسف على أن ذلك الزواج لم يتم قبل أن تقف على

أمر تلك القرابة غير المتوقعة .. فإنها و (باولو) كانا قمينين عندئذ أن ينفصلا – بعد عشرتهما القصيرة – نزولا على حكم الأخوة .. لكنها كانت ستظل فى نظر العالم امرأته ، وهذا هو ما يهمها ! .. وبينما كانت فتاة غيرها تتنفس الصعداء ، فى ارتياح مذعور ، لنجاتها من الخطر البشع الذى تعرضت له ، وأفلتت منه .. لم تكن هى – (جيما) – ترى فى هذا الإفلات إلا « كارثة » اجتماعية ، أفقدتها كل شىء : الدار التى فى الضيعة ، والضيوف المترفين ، والصداقات التى تشبع الزهو ، والحفلات ، والحياة الناعمة السهلة .. فإن كل ذلك قد ضاع منها !

واغرورقت عيناها بالدموع ، وإذ حاولت أمها أن تعزيها ، أشارت إليها كى تصمت ، ثم نكست رأسها طويلا وهى تبكى فى منديلها .. وأحياناً كانت تند عنها تنهيدة عميقة ، وكأن شيئاً فيها يتمزق ، ثم تعود فتصعد إلى عينيها دموع جديدة غزيرة .. دموع كان ينساب فيها كل قلقها ، وغرورها ، ومطامحها ، ورغباتها – كل ما نمته فى هذا العهد الأخير أو كبتته ! – كما تندفع الرياح العاتية عندما تهب العاصفة ..

وأخيراً رفعت رأسها ، فإذا وجهها النحيل المتوقد قد جفت عيناه .. وقالت أمها ، التى كانت قد انتظرت هذه اللحظة بصبر نافذ : « ليست هذه بأشياء محببة إلى السمع ، ولكن ما الحيلة يا صغيرتى (جيما) ؟ .. أنا أيضاً ، فى زمانى .. » .



ثم نكست رأسها طويلاً وهى تبكى فى منديلها ..

وكانت تبغى الاستمرار فى تضمين مواساتها المتعلقة لابنتها ، مزيداً من الاعترافات والذكريات المتخلفة عن حبها الغابر .. لو لم تقاطعها (جيما) ، مدفوعة بالسأم أكثر منها بالإحساس بالكرامة :

– لنكف عن هذا الحديث يا أماه !

وما كان هذا النهى القاطع ليروق مدام فوريزى ، فلقد عاشت ثلاثين عاماً فى انتظار هذه اللحظة العذبة التى تسترجع فيها ، بصوت مسموع ، وبعد طول الصمت ، أعز أخطائها .. فلما حلت هذه اللحظة أخيراً ، سئلت أن تنزل عنها .. وتعود إلى الصمت !.. إذن فتى – بعد تفويت هذه الفرصة – تستطيع أن تتكلم ، ولمن ، إذا كانت ابنتها تأبى الاستماع إليها ؟!.. وما جدوى الحياة إذن بعد هذا ؟!

ومع ذلك فقد أذعنت ، فلاذت بالصمت .. مخفية ارتباكها بالتظاهر بترتيب بضعة أشياء دقيقة على منضدة ابنتها .. ولكن لم تمض لحظات حتى عاودها ، فغلبها الحنين إلى قصة حياتها من جديد .. فإذا بها تقول ، كالحالمة :

– كان يحبنى ، ويبغى الزواج منى .. لكن أسرته أصرت على الرفض !

وظلت (جيما) جامدة لا تجيب !

... واستمرت الأم وقد شجعها هذا السكوت : « ليس فى الأمر ما يخزيك ، فدمهم يجرى فى عروقك ، وكان من حقك

أن تحملى اسمهم :: ولكن ، سترين ، سوف يدعونك فى السنة القادمة ! » .

... وكان ذلك فوق ما تحتمل (جيا) ، فقد كان الموقف – فيما أحست – مفعماً بالسخرية .. فصاحت غاضبة وهى تقفز من سريرها :

– اصمتى !.. لقد رجوتك أن لا تعودى إلى هذا الحديث .. ليتك تدعيننى بمفردى !

وفى ارتباك ، ومذلة ، وإذعان لواجب الصمت النهائى .. طبعت الأم قبلة على خد ابنتها المتشنجة ، النافذة الصبر .. وخرجت مندفعة من الغرفة !

* * *

الفصل السابع

● لم يحمل الليل إلى (جيا) نصحاً ، كما يقول المثل العامى .. بل إن النوم استعصى عليها وقتاً طويلا ، فظلت مفتوحة العينين ، تحدق فى الظلام ، وتفكر .. وكلما خطر لها المستقبل ، انقبض قلبها فى ذعر كالذى يداخل المرء إذا مست يده جسداً ميتاً !

لقد مات الطموح الذى اعتاد من قبل أن يضفى على أيامها المقبلة – فى خيالها – ألواناً ضاحكة . وما عاد الزمن يبشرها بغير صور جرداء ، لا تستشعر إزاءها شيئاً من الفضول الباعث على الاهتمام ، ولا رغبة فى المضى إلى الأمام ، فكانت كأولئك المرضى الذين إذا ما أبصروا مكاناً أو فضاء فسيحاً أمامهم ، أحسوا بركبهم تتخاذل تحتهم !.. بل إنها أحست اشمئزازاً لا قبل لها به ، ورغبة مخبولة فى الفرار .. فى الرجوع إلى الوراء .. لا إلى السنوات القريبة – على مافيها من شقاء – وإنما إلى تلك السنين الأبعد منالا .. سنى الطفولة .. تلك الحقبة التى لم تكن قد وعت فيها بعد نفسها ، ولا دنياها !

ولقد أدركت هزيمتها واعترفت بها ، بيد أنها تاهت عن تفهم سر تعاستها ، والاهتداء إلى القوى التى خلقت هذه التعاسة !.. بل لقد عز عليها أن تفهم حياتها نفسها ، فكرهت هذه الحياة ونبذتها طواعية !

وعلى هذا اليأس نامت .. وعليه صحت فى اليوم التالى ، حين

جاءت أمها توقظها كعادتها ، قائلة بلطف وهى تتقدم فى ظلمة الحجرة : « هيا ، انهضى .. فإن (فاجنوتسى) فى انتظارك ، ليصحبك فى نزهة » .

لكنها لم تتحرك .. وتذكرت وهى تدس أنفها فى الوسادة أن اليوم (الأحد) ، وأنها كانت قد وعدت (فاجنوتسى) وأحد أصدقائه بأن تصحبهما فى جولة فى الضواحى .. وذكرها اسم (فاجنوتسى) بطائفة من أمور أخرى غامضة ، وكما تفعل المريضة إذ تعاودها عند اليقظة آلام الأمس ، فتمد يدها إلى الدواء الذى يسكن ألمها ويردها إلى النوم ، عمدت (جيا) إلى قرار حاسم دون ما تردد ، فقالت لأمها فى بطء وصوت مثقل : « اذهبى فقولى له إننى متعبة ، ولن أخرج للنزهة اليوم .. وقولى له أيضاً إننى أقبل عرضه ، وإننى مستعدة لأن أغدو زوجته ، فى أقرب وقت ممكن ! » .

فقالت الأم مشدوهة : « كيف ؟ » .

فرددت (جيا) قولها : « قولى له إننى مستعدة للزواج منه » .. ثم أغمضت عينيها !

ـ أجادة فى حديثك ؟

فأجابت فى تنهد : « كل الجد ! » .. ثم أضافت متسائلة بصوت أقوى ، بادى الانفعال : « أفهمت ؟ » .

ـ حسن ! حسن ! سأقول له هذا فى الحال :

ـ اذهبى إذن ودعينى أنام .

واستدارت نحو الحائط ، وما لبثت أن راحت فى سبات عميق !

* * *

• وعندما استيقظت ثانية ، كان الوقت ظهراً . وإذ تذكرت الأمر الذى ألقته إلى أمها ، ارتاحت إلى أنها اتخذت قرارها هذا دون ما تفكير ، وهى نصف نائمة ! فلقد أصبح (فاجنوتسى) يعادل أى شخص آخر سواه ، ما دامت قد فقدت الأمل ولم يعد لها رجاء فى شىء .. وإذ رسخت هذه الفكرة فى رأسها ، نهضت متأهبة للقاء الأول مع خطيبها !

ووجدت (فاجنوتسى) فى قاعة الطعام .. وقد عدل عن نزهته إذ علم بالنبأ العظيم ، فظل جالساً إلى المائدة ثلاث ساعات لا يحير حراكاً ، ولا يحول بصره عن باب حجرتها !.. فلما رآها ، نهض ، ونزع نظارته عن عينيه ، وسألها متلعثماً عما إذا كانت قد قبلت حقاً أن تكون زوجته ؟.. وكأنما كانت (جيا) تبصره للمرة الأولى ، فأحست لفورها باشمئزاز إذ رأته أمامها : أصفر ، أصلع ، مهزولا !.. أهذا إذن هو الرجل الذى سيغدو رفيق حياتها ، طوال العمر ؟.. ولم تتمالك أن فكرت فى مغزى ذلك ، مستنكرة ، مستبشعة ، بيد أنها سرعان ما سيطرت على نفسها ، وفرضت على ملامحها هدوءاً ماكان أبعدها عن الإحساس به !.. ثم ردت عن سؤاله بالإيجاب . فأفاض (فاجنوتسى) ، فى ارتباك ، يشرح المشاعر التى أوحتها إليه تلك الدقيقة المباركة : كان سعيداً ، بل إنه ما كان

ليصدق وجود مثل هذه السعادة ، فقد كان يدرك أنه غير أهل للفتاة .. كان من العسير عليه أن يصدق أنهما سيرتبطان عما قريب برباط الزواج !.. وكان مظهره المعتاد — بما فيه من غرابة ومن اصطناع — ينهار تحت وطأة انفعاله ، فيكشف عن دنيا مفعمة بالعواطف ، شاعرية ، عتيقة ، كانت كامنة فى نفسه !.. كان يبدو أنه لم يكن على علاقة قط بالنساء ، وأنه ورث عن وسط عائلى متخلف ، آراء عصر آخر عفا عليه التطور ، وراح فى أدراج النسيان . فلقد ظل (فاجنوتسى) ، من الناحية العاطفية ، متخلفاً عن زمنه قرناً ، بل وأكثر من قرن ، إذ بقى محتفظاً بتلك الخلة الساذجة التى تعمر القلوب البسيطة : خلة إكبار المرأة التى تكون موضع الحب ، ورفعها إلى مرتبة المثل العليا !

على أن (جيما) لم تحتفظ من الهدوء إلا بمظهره ، وبقيت خلف القناع الذى أسبغته على نفسها ، تغذى احتقارها للرجل الطيب .. الأمر الذى ضاعف من شعورها بالخيبة التى منيت بها أخيراً !.. فلم تعد ترى فى (فاجنوتسى) سوى ما كانت تراه فيه من قبل : رجلا مسكيناً ، أبله ، مضحكاً ، مجرداً من كل الميزات التى تعتبرها مغرية ومرغوبة !

... على أنها أصغت مع ذلك إليه ، باذلة جهدها كى تحتفظ بلطفها وصبرها . ثم قالت له : « إننى أوثر أن أقول الحق .. فأنا

لا أحبك .. فى الوقت الحاضر ، على الأقل .. غير أننى أعتقد أن الحب يتولد مع الزمن . وهذا يتوقف عليك ! » .

يا للكلمات .. ويا للأكاذيب ! كانت قد عقدت العزم على أن لا تحبه أبداً ، ومع ذلك فقد نطقت بهذه العبارة ، بلهجة اصطنعت فيها طيب النية والصراحة ، فكان لها وقع رائع على (فاجنوتسى) ؛ وخطر له ماخطر لكثير من العشاق المنكودين فى مثل هذه الظروف ، من أن الزمن والرعاية لا يلبثان أن يحولا هـذا الفتـور إلى حب مشبوب .. ومن ثم شكرها فى حماس بالـغ ، وكأنهـا جادت عليه بسخاء غير مأمول !.. وإن هى إلا لحظة حتى بدت الأم فى ملابس الخروج ، والقبعة فوق رأسها ، والفراء حول عنقها ، فأقبلت على (فاجنوتسى) تهنئه فى ود زائف .. لكنه أخذ يشير إلى (جيما) ، منكراً ذاته ما وسعه ، كما يفعل الممثلون الذين يتوارون ليدعوا لمؤلف المسرحية الحظ الأوفر من تصفيق الجماهير !

وما لبثت المرأتان أن خرجتا إلى القداس ، وتركتاه ينعم وحده بهنائه الجديد !

* * *

● وظلت (جيما) فى الأيام التالية محتفظة دائماً بهذا المسلك الهادىء الخالى من الازدراء ، ومن الحنان على السواء ، فى علاقتها بخطيبها .. فإنه لأفضل للمرء أن يكرر اللحن ذاته باستمرار ، من أن يتخبط فى عزفه ! أما (فاجنوتسى) فقد أصبح وهو « خطيب » ، يثير من

السأم فى نفسها أكثر مما كان وهو مجرد نزيل !.. إذ أضاف إلى الغرائب التى كان يبديها فى الماضى ، غزلا متهافتاً ، ورقة عاطفية لم يكن لها من آثار سوى إثارة أعصاب (جيما) إلى أبعد الحدود !.. والأنكى من ذلك ، أنه تحول عن سهراته فى المقهى ، وأصبح يلازم البيت ليطارحها الهوى ، بعد أن حرمت الخطبة عليها أن تلوذ بحجرتها وتخلفه وحيداً مع أمها !

وأصبحا يجلسان على أريكة قديمة خضراء ، شديدة الصلابة ، فى أقصى قاعة الطعام ، بينما تستقر الأم عند طرف المائدة ، متعللة بالرغبة فى أن تكون على مقربة من النور لتخيط أو تقرأ .. ويتناول (فاجنوتسى) إحدى راحتى (جيما) بين يديه ، وهو يميل على الأريكة فى اضطجاع غير مكتمل ، ليتخذ وضعاً غرامياً غير مريح !.. ثم يمضى فى الحديث بصوت خفيض ، فيحدث خطيبته عن الزواج ، ويصف لها حياتهما المقبلة ، ويبصرها بأذواقه وأهوائه ورغباته ، ويسعى إلى أن يعرفها ، ويعرفها بنفسه .. كان يبذل جهداً كبيراً كى يؤدى دوره كخطيب ، وقد وفق فى ذلك فوق ما ينبغى !.. وكانت (جيما) فى جلستها الجامدة ، الساهمة ، لا تكاد ترد عليه إلا لماماً ، ولكن فى غير ضيق ولا احتداد ، رغم أنها كثيراً ما كانت تحس بالسأم والغيظ يخنقانها !

وكان (فاجنوتسى) بين وقت وآخر يقبل جبينها أو خدها فى احترام .. وجرؤ مرة واحدة خلال خطبتهما على أن يمس شفتيها !..

فكانت (جيما) تدعه يفعل فى إذعان .. بل لقد كانت اللمسات البدنية أقل إيلاماً لها من حديثه !.. وكانت تستمد قدرتها على الاحتمال واصطناع المظهر ، من أملها فى هجر هذه المدينة بعد زواجها ، والاستقرار فى العاصمة (روما) .. فما عادت تقوى على البقاء حيث كانت ، فى الأقاليم .. وكانت تتعزى عن حرمانها من أبهة الحياة فى المجتمع الراقى ، بسراب العاصمة الذى يلوح فى أفق حياتها :. وكالنملة التى ما يكاد عشها ينهار حتى تنهمك فى بنائه من جديد ، راحت مخيلتها تبنى فى إصرار ودأب ، صروحاً خيالية – بعضها فوق بعض – من نجاح وثراء ليس إليهما من سبيل ظاهر !

* * *

● وكانت الأمسيات طويلة ، فتعلمت (جيما) الشطرنج – لعبة (فاجنوتسى) المفضلة – كى تقسم الوقت بين الحديث ، وبين مباريات هذه اللعبة البارعة ، الحامية .. غير أن (فاجنوتسى) اللاعب كان أفظع من (فاجنوتسى) الثرثار ، فلم يكن يخسر عن طواعية . وكان فرحه الساذج بالكسب يثير أعصابها ، فلا تتمالك إذ ذاك أن ترميه بعبارة لاذعة ، يتلقاها فى بساطة وكأنها دعابة بريئة !.. وثمة أمر آخر كان يخرجها عن طورها : ذاك هو التهكم المتهور الذى كان (فاجنوتسى) يعمد إليه إذا عرض ذكر المجتمع الأنيق الراقى ، فكان يتكلم عنه فى سخرية وازدراء ، وبلهجة (الأستاذ) المترفع !– ولو أنه ما كان فى الحق يضمر لذلك المجتمع

ماكانت تضمره هى من احتقار – متأصل متغلغل – لمهنته ، ولكل
عمل فكرى – ولم يكن يحس ، وهو مستغرق فى دراساته ، بميل
إلى الاختلاط بذلك العالم .. إذ لم يكن يفهم كيف يقضى أشخاص
– يشبهونه ويشبهون زملاءه فى المظهر – حياتهم فى الرقص واللعب
والغزل والجرى وراء الملاذ التافهة ! .. كان هؤلاء القوم يبدون
له كأنما أصابهم خبل ، فهم مشغولون بالحماقات ، وهم دائماً فى سخف
وقلق لا طائل من ورائهما !

ولم يكن – إذا تكلم عن هؤلاء – يملك أن يكبح ضحكته
العصبية الغريبة ، أو أن يحبس كلمة لاذعة يكون قد تصيدها من
إحدى الصحف الهزلية التى كان يهواها ! .. ولكن (جيا) كانت
تعتبر السخرية من هذا العالم – الذى كانت تعجب به وتتجه إليه
بكل رغباتها – سخفاً مضجراً ، بل « تجديفاً » وكفراً ! .. فهى لم تكف
قط عن الأمل فى أن تلج ذلك العالم يوماً ، ولو باسم (فاجنوتسى)
الهزيل ، الخامل :: بل إن ما حدث مصادفة ، من كشف سر قرابتها
المستترة لأهل المزرعة ، لم يحطم غرورها ، وإنما زاده ضراماً ..
فإن للكبرياء أساليب غريبة تعرف كيف تستغل كل شىء ولو كان
مخزياً ! .. وهل كان يقلل من نبل دمائها وعراقة محتدها ، أن تكون
ابنة غير شرعية ؟.. إنها ماكانت لتحجم عن أن تعلن فى الملأ أصلها
لولا إشفاقها على أمها ! .. ولقد كان ظلماً فوق كل ظلم – عندها –
أن تظل منبوذة مبعدة عن عالم لها كل الحق أن تنتمى إليه .. ومن ثم

فقد كانت سخريات خطيبها المسرفة من هذا المجتمع ، إهانة مابعدها
إهانة !

ولقد حاولت فى أول مرة أن تفهمه أنها لا تستسيغ أن يتناول
أحد هذا الموضوع بالهزل .. ثم سكتت فى المرة الثانية – ولو أنها
عانت فى سبيل السكوت مشقة كبيرة ! – حتى إذا ماكانت المرة
الثالثة ، انفجرت فى (فاجنوتسى) بعنف أدهش أمها ، رغم أنها
تقرها على آرائها فى هذا الصدد وتؤيدها .. وكانت العبارات التى
انبعثت فى انفجارها ، تتردد متوالية كالنغم الرئيسى المتكرر الذى
يسود لحن « سمفونية » ما .. قالت إن « ظفر » الواحد من أولئك الذين
اعتاد (فاجنوتسى) أن يسخر منهم ، كان يفوق فى قيمته (فاجنوتسى)
نفسه ، بأكمله ، وبعلمه وأستاذيته ! .. وقالت إنه يصدر فيما يقول
عن حسد وحقد لا يقوى على سترها .. حسد وحقد مبعثهما أنه
يعرف أن أبواب ذلك العالم – عالم المجتمع الراقى – ستظل دائماً
موصدة فى وجهه ، فلن يظفر بشرف إلقاء نظرة واحدة خلالها !

واستبدت بفاجنوتسى دهشة بالغة إزاء هذا المشهد ، فما خطر
له قط أن يكون فى الدنيا من يفضل الشخص الذى يدرس الطبيعة
ويعلمها للناس ! على أن (جيا) لم تدع له فرصة ليحتج على أقوالها
أو يبرر أقواله ، وإنما نهضت وغادرت قاعة الطعام ، ثم صفقت
الباب خلفها !

وكان ذلك هو الشقاق الوحيد الذى شجر بينهما، وقد استطاعت أمها أن توفق إلى إصلاح ذات البين بينهما فى اليوم التالى، بعد عناء ..

* * *

● وفى نهاية شهر يوليو، وبعد خطبة لم تستمر أكثر من شهر، تزوج الخطيبان فى شبه خلسة، فى كنيسة صغيرة بضاحية ريفية .. وكتبت (جيا) إلى صديقاتها فى مزرعة (لاشيناى) رسالة اعتذار عن عدم دعوتها إياهن، لكنها خضعت لغريزة الكذب القديمة، فلم تقو على منع نفسها من أن تزعم فى النهاية أن زوجها رجل غنى، يملك فى روما قصراً سيقضيان فيه الشتاء !

وبعد أن ودع العروسان مدام (فوريزى)، سافرا إلى (فينيسيا) فى رحلة شهر العسل .

* * *

الفصل الثامن

● تعلقت (جيا) بفكرة مغادرتها مدينتها للاستقرار فى روما، بمثل الرغبة المتحرقة التى كانت تتعلق بها قديماً بأمل الزواج من (باولو) !.. وكان زوجها قد وعدها بذلك دون أن يكون فى وعده اليقين الذى أبدته هى فى رسالتها إلى صديقتها، فلما عادا من الرحلة فى نحو منتصف سبتمبر، قال لها أن لا أمل فى الوقت الحاضر فى أن يعين فى روما، وأنه لا محل على كل حال للتفكير فى تغيير إقامتهما فى هذا الشتاء !

وكانت هذه خيبة أمل جديدة أضيفت إلى سابقاتها، وهوت بجيا مرة أخرى إلى هاوية السأم واليأس !.. إذن فسواء أكانت زوجة أو بنتاً، فهى محكوم عليها بأن تقضى حياتها فى هذه المدينة التى يذكرها كل حجر فيها وكل إنسان من أهلها ببؤسها وخيباتها ومذلاتها القاسية !.. وليس ينفعها إذن فى شىء أنها أذعنت ورضيت أن تكون امرأة (فاجنوتسى) !!

.. وازدادت سيطرة هذه الأفكار المثقلة بالغضب ونفاد الصبر على (جيا)، وصارت شبيهة بشحنة مكدسة فى غير نظام فى أعماق سفينة، متى ساء الجو أخذت تصطدم بجدران السفينة لتغرقها فى النهاية !.. وانتهى بالعروس الحال، من فرط ما اضطربت هذه

الأفكار فى ذهنها الخاوى ، إلى أن دار رأسها .. وتهيأت لأســوأ القرارات والنتائج !

وكانا قد تركا مدام (فوريزى) فى مسكنها العتيق وأقاما فى بيت جديد خارج المدينة ، ذى جــدران حجرية رمادية وسقف من القرميد ونوافذ خضراء ، يقوم فوق ربوة محصنة يكشف الرائى منها إلى مدى البصر مسارب وسفوحاً تترامى إلى حدود الجبال الرابضة عند الأفق البعيد .. منظر برى موحش ، مجرد من المراعى والحقول المزروعة ، تكسوه إلى مرمى البصر غابات مشذبة ونباتات ضئيلة ، وتتردد فيه فى موسم الصيــد أصداء طلقات البنادق ، ويرتفع فى أدغاله الصفـراء ، هنـا وهنـاك ، الدخان الأسود المنبعث من نار الفحامين الموقدة :. ثم لا أثر آخر للحياة بعد ذلك غير بضعة بيوت نادرة فى الجهة المؤدية إلى المدينة ، شبيهة كلها ببيتهما ، موزعة فى غير انتظام على أرض تناثرت فيهـا الصخور .. وليس وراء ذلك إلا كتل الجدران السامقة المتعالية إلى السماء ، التى تزدوج بأبراجها وتحصيناتها مخارج التل الصخرى ومداخله :. ولمـا كان باب المدينة مستوراً وراء أحد تلك الأبراج ، فإن التحصينات كانت تبدو من بيت(فاجنوتسى) مسدودة تماماً ، لا تتخللها ثغرات ولا فتحات .. وفى مثل هـذا المكان الموحش يتولى المـرء إحساس بالغ بالعزلة ، وبالنفى فى أقصى العالم !

وكان البيت جديداً كل الجدة ، فخشب الأبواب غض يطقطق

وتنتزى منه عصارته ، وللحجرات أصداء الكهف ورطوبته ، وعلى زجاج النوافذ لطخ البياض لا تزال ، والحديقة المربعة جدباء لا طين فيهـا ، يملؤها حصى أبيض مدبب ، تنشر عليــه قضبان البوابة الحديدية – فى الساعات المشمسة – ظلالها النحيلة الحزينة .. وما إن وضعت(جيا) قدميها أول مرة فى بيتها هذا الجديد حتى حسبت أنها تدخل عنبراً فى مستشفى، أو سجناً !.. ولم تتردد فى الإفضاء لزوجها بهذا الشعور ، الذى اعترته منه دهشة بالغة ، وهو المفتون بالطبيعة ومشاهدها غير المصنوعة، والذى كان يعتقد أنه سيدخل على زوجته السرور باختيــاره بيتاً يشرف على مسـاحة نصف الإقليم ! .. أما ما ينطوى عليه المنظر من كآبة ورتابة ، وعتمة ، وأدخنة ، فإنه لم يكن فى الحق قد تنبه إليه .. بل ولا يرى فيـه الآن – وقد نبهته إليه – أى غضاضة أو سوء ، فالبيت جميل ، وموقعه حسن .. ومع ذلك فإذا انقضى الشتاء دون أن يكون قد حصل على الوظيفة التى يرجوها ، فإنه يعدها وعداً مؤكداً بالعودة إلى السكنى فى بيت آخر فى قلب المدينة ..

وهكذا كان بيتهما موضوع أول خـلاف نشب بينهمـا بعـد الزواج !.. وقد اكتشفت(جيا) عند ذاك ، فى مقت ومفاجأة ، أن (فاجنوتسى) كان يخفى تحت مظهر الرجل المسكين الطيب طباعاً أقوى وأشد سطوة مما تصورت !

* * *

● وفى ذلك البيت المنعزل عانت (جيما) الضيق والسأم .. فى حين كان زوجها منهمكاً فى تدريس العلوم الطبيعية أو فى إجراء تجاربه فى معمل الكلية ..

لم تكن القراءة تستهويها ، فيما عـدا صحف السينما والروايات البوليسية !.. وكذلك لم تكن تميل إلى عمل البيت ، الذى عهدت به إلى الخادمات ، فكانت النتيجة أن ظل البيت مهملا قذراً كما كان يوم دخلته !.. أما الشواغل الأخرى التى كانت لها قبل الزواج ، كالحياكة وشغل الإبرة والبيانو ، فقد باتت تثير اشمئزازها ، ربما لأنها كانت تذكرها بذلك العهد الجحود !.. بل إنها لم تتنازل حتى بإلقاء نظرة على الحديقة ، فلبثت جدباء لايزينها غير الحصى ، وغير « خصلات » من العشب الأصفر ، وتلك البوابة السوداء التى تحاكى حقاً بوابة السجن !

أما بصدد عنايتها بشخصها ، والتسليات النادرة التى يسع المدينة أن تقدمها لها ، فقد تعودت (جيما) أن تنهض من نومها قرب الظهر ، وأن تقضى نصف العصر فى تصفيف شعرها ، وتمويجه ، وتلميع أظافرها وتهذيبها .. ثم تلبس ثيابها فى بطء شديد – كما لو كانت تقصد حفلة !– وتذهب للنزهة مع صديقاتها فى شارع الكورسو.. وهناك فى زحمة الجماهير التى تملأ الشارع السيىء الإضاءة ، كانت تحرص على أن تحيى القوم الذين تعرفهم منذ سنوات .. وقد

تدخل محلا للحلوى مما يتخذ ملتقى للمجتمع المحلى ، فيستقبلها على عتبته شباب المدينة الأنيق بعبارة غزل ، أو يتلفتون كى ينظروا إليها !

وكانت (جيما) تتردد أيضاً على دار السينما التى تغير برنامجها مرة كل أسبوع . وكانت الدار قبل ذلك مقراً للمسرح البلدى القديم ، فكانت تتألف من قاعة واسعة ، معتمة ، تحف بها أربع طوابق من الشرفات الحمراء المذهبة ، وتعلوها قبـة منقوشة ملونة . ولم يكن يقدم فى الدار فى الزمن الخالى غير « الأوبرات » ، لكن الانهيار بدأ مع مطلع القرن ، فتخلت « الأوبرا » عن مكانها للمسرح التمثيلى .. ثم جاءت « للأوبريت » فالاستعراضات الراقصة ، وأخيراً الحفلات الخيرية .. قبل أن تنقذ «السينما» الدار من الإغلاق النهائى ، أو تثبت انهيارها وتدشنه !

وكانت النقوش المذهبة فى القاعة تتشقق عن الجير الأبيض ، والعرائس المرسومة فى القبـة الوردية قـد طمستها بقع كبيرة من الرطوبة .. والمقاعد المخملية الحمراء كانت قد استبدلت بها مقاعد معدنية تهبط وتعلو محدثة ضجة فظيعة !.. وكانت تملأ الجو رائحة أحذية مبتلة ، ودخان ، ونشارة رطبة .. وخلال فترات الراحة كان يكتفى بإضاءة مصابيح الشرفة الأولى ، فيظل سائر الصالة مغموراً فى ظل داكن يشبه عتمة «سيرك» خال . والشاشة البيضاء المعلقة على ستارة من القطيفة الحمراء الداكنة كانت تثير فى الذهن ، فى تلك العتمة ، صورة جهاز جنائزى رهيب !.. لكن (جيما) التى لم تكن قد رأت

مدينة غير مدينتها ، لم تحس لهذا كله أثراً كبيراً فى نفسها ، فلقد أوتيت – إلى أقصى درجة – ما هو معهود فى أهل الأقاليم من عدم حساسية بالقبح الزرى .. ولو أنها كانت ، على العكس ، مرهفة الحساسية بتلك الأصوات المدوية التى تنبعث من الستار ، وتلك الرؤوس الكبيرة المعتمة التى كانت ترى على الشاشة ، وقد ضمت شفاهها البراقة فى قبلات طويلة لاهثة !.. وقد بلغ من ولع (جيما) بالسينما أن لم يكن يفوتها فيلم من أفلامها ، فإذا لم تجد من يصحبها ، لم تكن تتردد فى الذهاب وحدها .

* * *

● والصداقات لا تتخير بالمصادفة ، بل وفقاً لما يسيطر علينا من هوى ، ومن هنا ارتبطت (جيما) فى نهاية الخريف برومانية تدعى (ألفير كوسيانو) .

ولم يكن أحد يدرى على وجه التحديد ما الذى رمى بهذه المرأة إلى تلك المدينة الصغيرة ، كما لم يكن أحد يعرف شيئاً عن ماضيها .. لكن البعض كان يؤكد أنها تحمل لقب « كونته » ، وأنها من عائلة بارزة .. ولو أن أحداً كلف نفسه جهد الرجوع إلى مصدر هذه الشائعة لاكتشف أن المصدر الذى نشرها هو مدام (كوسيانو) نفسها . على أن كل ما كان فى الإمكان تأكيده هو أنها هبطت المدينة منذ بضع سنوات ، فأعانها على الدخول فى المجتمع هذا الاسم الأجنبى الذى يخلع عليها نوعاً من الامتياز ، وهذه الشائعات التى عرفت

كيف تذيعها ببراعة ، وجرأتها المدبرة ، وحيويتها الخارقة .. ونجحت فى وقت وجيز فى أن تفتح لنفسها أبواب المجتمع الرفيع فى الإقليم .. وبسبب تحررها «وتجاربها العالمية» شملها بالود بعض أثرياء الشباب ممن كانت أسرهم تقسرهم على العيش فى الإقليم ، فلم يكونوا يجلون أبواباً لإرواء تعطشهم إلى الإسراف والمغامرات ، سوى المقامرة .. والرحلات إلى العاصمة بين الحين والحين .

وكانت مدام (كوسيانو) تقول إنها عاشت سنوات فى باريس ، وكانت فى الواقع تجيد الفرنسية خيراً من الإيطالية ، التى كانت تنطقها بلكنة مضحكة .. بل إنها كانت تزعم أنها عبرت أوربا كلها ، وأنه لا توجد مدينة ذات صيت من مدن المياه المعدنية إلا وقد أقامت فيها فترة ما .. وكانت تلغط بلا توقف بأسماء شخصيات المجتمع الرفيع ، أولئك الذين ترى صورهم تتكرر فى المجلات ، ويبلغ صيت الكثيرين منهم فى العالم أضعاف صيت علماء البلاد وفنانيها !.. ولم تكن مدام (كوسيانو) تشير إلى أفراد الطبقة الارستقراطية المحلية بألقابهم أو أسماء عائلاتهم ، بل بأسمائهم الشخصية التى لا كلفة فيها ، مثل : (بيير) ، (بول) ، (جاك) ، (أندريه) !.. أما الشخصيات البارزة فى مدن إيطاليا الأخرى ، فكانت تسميهم بأسماء التدليل التى لا يجرؤ على مناداتهم بها غير الصديق الحميم !.. وهكذا كانت « الرومانية » تنشر حولها الجو الذى يوحى بأن لها مع أولئك الأعلام علاقات حميمة ، إن لم تكن فاضحة !

وكان من عادتها أيضاً ، عندما يرد فى الحديث اسم شخص من بيت نبيل، أن تقاطع المتكلم كى تسأل أو تستعرض معلوماتها عن نسب ذلك الشخص وقراباته، موحية بذلك بمعرفتها العميقة الأكيدة بجميع تقلبات أحوال العائلات الإيطالية النبيلة، السابقة والحالية!.. كانت، كالعسكريين الذين يعرفون – عن ظهر قلب – خريطة تحركات الجيش كلها ، تمسك على أطراف أناملها بكل أنباء الفضائح ، والزيجات الجديدة، والولادات ، والوفيات ، والأقاويل، والأسرار الخاصة بذلك الجيش المقاتل الذى يتمثل عندها فى : المجتمع !.. وكانت قد جعلت من نفسها « سلطة عليا » فى هذه الموضوعات ، غير مستندة إلى علم مكتسب ، وظلت تحتفظ بهذه المكانة على الدوام، وتنجح – بطريقة لايدرى كنهها أحد – فى تجديد معلوماتها، وإنعاشها بالتصويبات والتعديلات التى تحتمها الظروف .

ولم يكن أحد ليستطيع تحديد عمر مدام كوسيانو على وجه الدقة، وإن بدا أنها تتراوح مابين الثلاثين والأربعين ، ولكن بلا نضرة .. فقد كانت امرأة ذابلة مضناة ، مستهلكة فى الرحلات والمغامرات، مبتذلة القوام ، مكتنزة قليلا ، ذات وجه دهنى صقيل بارد ، لزج وشره !.. وكان التناقض ملحوظاً فى هذا الوجه بين العينين الرماديتين الصغيرتين – القويتين الساحرتين – والابتسامة المعسولة الباهتة التى يفتر عنها ثغر معتم بلا شفتين ، يعلوه أنف غريب مقوس ومستدير ، كأنه منخار سلحفاة !.. وبرغم تلك الابتسامة

التى تسيل عذوبة ، وبرغم « الماكياج » البارع ، كان وجهها – بما يزدحم فيه من التجعدات الصغيرة المتربة بالدهن – يشى بنضج خبيث ، مثل جسمها الذى لم يكن ضغط ثيابها و « مشدها » عليه يمنع ترجرج خاصرتيه ، أو تأرجح مشيته التى تذكر بمشية أخرى ترى فى بيوت الدجاج ، ومأثورة عن بعض الدجاجات العجوز الثرثارة !

وكانت تسخو بلمحات عينيها وغنات صوتها ، وبضحكاتها اللينة وإيماءاتها ، وغير ذلك من أفانين البنت الصغيرة .. فإذا سئلت عن عمرها ، أجابت دون تردد بأنها أكبر « قليلا » من الثمانية والعشرين !

.. بهذه المرأة ارتبطت (جيا) بالصداقة .. أو بالأحرى أن مدام (كوسيانو) هى التى « استولت » بفنونها على (جيا) .. حتى صارتا تلتقيان كثيراً ، تدنى إحداهما من الأخرى آراء وأذواق مشتركة !

* * *

الفصل التاسع

• كانت مدام (كوسيانو) – كى تحظى برضاء (جيا) – قد وجدت وسيلتين أو ثلاثاً مضمونة الأثر: كانت تصف لهـا العالم اللامع الذى يفهم من يسمعها أنها عاشت فيه دائماً خـلال رحلاتها الأوربية!.. ثم كانت تندد بالحياة فى مدن الأقاليم فى سخرية مرة.. وأخـيراً كانت بدهائها الشرير المستتر توحى إلى (جيا) – بكلمة تلقيها اليوم اعتباطاً، ثم تتبعها بأخرى فى الغـد – أن لها زوجاً غبياً «غير جدير بها».

ولم يكن ثمة داع لهذا الجهد الأخير، فإن (جيا) نفسها كانت مقتنعة بذلك سلفاً، بيد أن إيحاء صديقتها قد لذ لها، إذ وجدت فيه إقراراً – من امرأة عليمة خبيرة – بأنها محقة فى ضيقها وتقززها!.. وهكذا أخذت مدام كوسيانو تسلق سيرة فاجنوتسى بسخرياتها!.. أقدمت على ذلك فى بادئ الأمر باحتياط وحذر، كالرحالة المغامر إذ تلقى به الأقـدار فى أرض لا يطمئن إليها كثيراً.. ثم أسرفت فى خطتها حين لمست ما كانت ترجوه من ترحيب ورضى.. وفى النهاية أوغلت فى هـذا المسلك فى قسوة سافرة، مستعذبة!.. وكان لهـا بعض موهبة فى التقليـد، فكانت تحاكى صوت زوج (جيا)، وحركاته، وعبوسه، و (جيا) تجد فى هذه السخرية التى تضحكها متعة خبيثة..

كذلك كانت مدام (كوسيانو) تعرف كيف تفيد صديقتها، إذ كانت تزودها بمشورتها فى اختيـار فساتينها وقبعاتها، وكثيراً ما كانت تصنعها لها بنفسها – فقـد كانت فى فقرها الشديد تتسول وجبة غداء هنا، ووجبة عشاء هناك.. فلما لم يف ذلك بمعاشها، صارت تفصـل الملابس وتصنع القبعات، لا كحائكة، أو صانعة قبعات بالطبع، وإنما كسيدة رفيعة المقام تنشد «التسلية» وتتفضل على صديقاتها بأسرار أناقتها!

وكانت تزهو بما اكتسبته من خبرة «باريسية» – وإن بعد بها العهـد وخبا بريقها فى ذاكرتها – كما كانت تعتز بمعرفتها اللغـة الفرنسية، وتجد دائماً بين نساء الإقليم سيدة طيبة على استعداد لأن تدفع لها ثمن نصائحها!.. وفضلاعن ذلك فقد كانت لها اختصاصات أخـرى: فهى تصنع من الأدهنة والعطور مركبات شـاذة، طبقاً لوصفات من ابتكارها.. كما تصنع «الأباجورات» الرومانية من حرير براق وتجعل لها حواف من لؤلؤ، بأشكال ممجوجة، سقيمة الذوق، ثم تبيعها مع ذلك بثمن غال!

* * *

• وهكذا لم ينقض وقت قصير، حتى بلغت الألفة بين المرأتين حداً حمل (جيا) على أن تقص على الرومانية ما كانت تدعوه «سر حياتها»، فقد كانت – بدافع من غرورها – تتحرق إلى الإفضاء إلى إنسان ما بسر مولدها، وزواجها الذى لم يتم!.. واستغلت

مدام (كوسـيانو) الفرصة لتحيط (جيما) المسكينة بشباكها .. فاستمعت إليها فى البداية بصمت يشوبه الاستبشاع والدهشة ، دون أن تقطع عليها حديثهـا إلا لتطلق صيحات الاستنكار والفضول والرثاء .. ثم راحت تضيف — حين انتهت القصة — تعليقات بدت لجيما مليئة بعمق الفهم ، وبالمودة : هـذا ظلم ، وعار .. فقد كان ينبغى على صاحب الضيعة — إزاء الانقلاب الذى ألم بحياة (جيما) حين اكتشفت أصلها — أن يعوضها بمنحها مبلغاً تجعل منه صداقاً لزواجها — (دوطة) — ثم أن يبحث لها عن زوج يليق بها .. أما أن يدعها تتزوج رجلا مثـل (فاجنوتسى) ، فهذا دليل جديد — إن كانت ثمة حاجة إلى دليل — على انعدام إحساسه ، وعلى أنانيته !.. ثم تردف مدام (كوسيانو) ذاكرة أن قصة كهذه حدثت فى المجتمع الراقى بمدينة بوخارست ، لم تختلف عنها إلا فى أن الحقيقة عرفت هناك بعد الأوان ، بعد أن كان الأخ والأخت قد تزوجا منذ زمن وأنجبا طائفة من الأطفال اللطاف !.. ثم تختم حديثها قائلة بالفرنسية وهى تتظاهر بالاستغراق فى التفكير : « هـذه هى الحياة !.. لا ينبغى أن يطمئن المرء فيهـا إلى شىء أبداً ، فهى كلعبة الروليت ، يكفى تغـيير رقم واحـد فيها لإفلاس المرء أو لإثرائه ! .. ومن ثم فخليق بالمرء أن يستمتع بالحياة ويغنمها فى حينها ، دون أن يشغل نفسه بالمستقبل .

* * *

• واقتنعت (جيما) فى ذلك اليوم بأنها ماحظيت فى حياتها بصديقة أفضـل من الرومانية ، وكانتا فى بيت الأولى ، فختمتا حديثهما الطويل عن هذه الأوضاع الغريبة بالخروج من البيت وذهبتا عبر تيه من الأزقة والسلالم إلى شارع « الكورسو » وكان الوقت أصيلا ، والشارع الكبير الممتد بين صفين من القصور ، يزخر بالمتنزهين.. وقالت مدام (كوسيانو) وهى تومىء بازدراء إلى ذلك الحشد الحافل : « هـذه هى حياة الأقاليم : التنزهة .. دائماً التنزهة ، بلا توقف حتى لاحتساء كوب ماء .. وفى المساء العشاء ، ثم إلى السرير من الساعة التاسعة !.. ما لم يجـد المرء لعبة ساذجة لقضاء الوقت » .

وأقرت (جيما) صديقتها على رأيها ، فهى بهذه الحياة عليمة !.. وبينما هما تتناجيان وهما متجهتان بخطى هادئة نحو الميدان ، انبعث من وسط القـوم صـوت ينادى : « جيما ! يالها من مصادفة ! » . فالتفتت ، وإذا بهـا ترى (فيتونى) الشاب الذى حملها بالسيارة إلى مدينتها فى الخريف المـاضى ، واقترح عليها بين الجد والهزل أن أن تذهب معه إلى روما وتقيم فى بيته !

وقال (فيتونى) وهو يأخذ بذراعها فى غير كلفة : « كم يسرنى أن أراك .. إن سرورى لعظيم حقاً .. لقد علمت أنك تزوجت من البروفسور (لاجنوتسى) أو (باجنوتسى) !.. تهانى المخلصة .. لماذا لم تأتى إلى (لاشيناى) كى ترينا (راجنوتسى) هذا ؟ » :

فأجابت جيا عن سؤاله هذا فى لهجة امتزج فيها الجد بالغموض، قائلة إنها لن تعود أبداً إلى الضيعة . ولكن (فيتونى) لم يبد أى فضول وتحول يسألها إن كانت وحـدها ، وإن كانت تحب أن تتناول « الأبريتيف » معه ؟.. والتفتت (جيا) – فى استياء لعدم اكتراثه بسر حياتها – فقدمت إليه مدام (كوسيانو) التى بادرت تسأله إن كان هو (لوتشانو فيتونى) الذى يقطن فى روما ؟.. وأجاب (فيتونى) بعدم اكتراث بأنه هو حقاً ، فراحت مدام كوسيانو – بلباقتها المألوفة – تحصى قائمة طويلة من أسماء أصدقائها المشتركين . غير أنه أعرض عن هذه المرأة الناضجة ، المتكلفة ، وعن ولعها بعرض علاقاتها الاجتماعية ، لينصرف باهتمامه إلى (جيا) التى لم تكن تحيد عنها عيناه !

كان (فيتونى) طائشاً غشوماً ، وكان ولعه بالنساء أكبر من طموحه الاجتماعى ، وقد بدت له (جيا) متغيرة عن ذى قبل ، ولعلها ازدادت جمالا .. بل إنه رأى فيها جمالا جامحاً لم يعرف الرضى . وتذكر أنها كانت قـد أعجبته منذ سنة ، فأحس بأنها الآن أكثر استئثاراً بإعجابه !.. ولم يفته أنهـا كانت تتجنب الكلام عن زوجها ، ولا تستجيب للدعابات التى تشير إليه ، بل اقتصرت على بضع عبارات تقليدية فاترة ، لا تنم عن حب مشبوب !

* * *

● وكان الثلاثة قد واصلوا السير فى اتجاه الكاتدرائية ، وأخـذ (فيتونى) يروى لجيا تفصيلات ما حدث فى « الفيلا » فى ذلك العام ، قائلا إنهم أسفوا لغيابها . فأجابت وقد استخفها الطرب : إن هذا لم يكن ممكناً ، فهناك كثير من الفتيات يفقنها صباً وجمالا !.. وهكذا مضى الحديث بينهما يشوبه الرد ويتخلله الغـزل . أما مدام (كوسيانو) فإنها أخذت بذراع (فيتونى) وقد بدا عليهما كأنهما صديقان قديمان، وراحا يتبادلان النظرات – فى تواطؤ أبناء المجتمع ومكرهم – ويضحكان من (جيا) ويلمزانها بالفكاهات !.. وكان (فاجنوتسى) الطيب هدفهما الأول . ومع أن (فيتونى) لم يكن قد رأى الزوج من قبل ، إلا أنه وفق إلى تكوين فكرة دقيقة إلى حـد كبير عنه : فـما هو – على أية حال – سوى نموذج من النماذج العديدة للزوج .. الزوج الأزلى الأبدى الذى لايتطور ولايتغير !.. وراحت مدام (كوسيانو) تتظاهر بأن (فيتونى) كان يستدرجها ويضطرها رغم مقاومتها إلى أن تتفوه بملاحظات غير مستملحة عن (البروفسور) التعس، ينطلق إزاءها (فيتونى) ضاحكاً ، ويلتفت إلى (جيا) – التى لم يفلت ذراعها – ليسألها إن كانت هـذه الملاحظات صحيحة ؟ .. وتظاهرت (جيا) فى البداية بالاستياء ، ثم انساقت إلى ما فى هجاء زوجها وانتقاده من موافقة لميولها ، فتقبلت فى صمت ورضى أجرأ دعابات مرافقيها .. بينما أخذ (فيتونى)

يضغط ذراعها بحركة ذات مغزى ، كانت تضطرب لها دون أن تجرؤ على مصارحة نفسها بهذا المغزى !

وانقضت ساعة النزهة فى هذه الأحاديث المرحة ، ثم وجد الثلاثة أنفسهم — قبل أن يتفقوا على مقصد يتجهون إليه — فى ميدان الكاتدرائية ، حيث ينتهى شارع « الكورسو » الذى كان قد خلا من رواده ، وحيث يبدأ الشارع الصغير المتعرج الذى كان على (جيا) أن تسلكه فى عودتها إلى دارها . ولكن (فيتونى) لم يشأ أن يدعها تمضى ، قائلا : إن من القسوة أن تتركاه بمفرده بعد هذه الفترة البهيجة ، واقترح على المرأتين أن تتناولا العشاء معه فى فندقه :

ورحبت مدام (كوسيانو) بالدعوة ، قائلة إنها فرصة رائعة ، وإن (فاجنوتسى) لم يفطن إلى شىء ، لأنه لا يفكر فى غير علوم الطبيعة ! أما (جيا) فقد عارضت وفى نفسها نذير مبهم . على أن الآخرين لم يلبثا أن تغلبا على معارضتها ، فأبلغت زوجها تليفونياً أنها ستتناول العشاء فى المدينة !

* * *

● وقصد ثلاثتهم إلى « فندق أسبانيا » — حيث كان (فيتونى) يقيم — واتخذوا مجلسهم فى أقصى قاعة الطعام العتيقة ، التى بدا جوها راكداً حبيساً ، يسوده سكون لا تبدده سوى ضحكات (فيتونى) والمرأتين .. أما سائر الموجودين — من التجار الرحل وضباط الحامية — فقد ألفوا تناول الوجبات ذات الأسعار المحدودة ، فى صمت

ممض ، مشبع بالتفكير . ومن ثم راحوا يحدقون فى (فيتونى) والمرأتين فى حسد واستنكار !.. حتى الخدم الذين بلغ منهم الكبر مبلغه فانحنت ظهورهم وهم فى ثيابهم البيضاء البالية ، حتى هؤلاء بدا فى حركتهم المتباطئة ، ووجوههم المتجهمة ، أنهم كانوا يستهجنون هذا الصخب الشاذ !

وكان (فيتونى) بالذات هو الصارخ الصاخب . فى حين حاولت المرأتان أن تتخذا مظهر سيدتين رقيقتين ، رفيعتى القدر ، ألقت بهما المصادفة إلى ذلك المكان الذى لم يعد يلائم طابع العصر .. ومع أن (فيتونى) لم يكن آية فى الذكاء ، إلا أنه أوتى القدرة على إدراك ما فى نفوس الغير ، فى خشونة وسخرية ، وقد أدرك موطن الضعف من نفسى زميلتيه ، فأخذ يبالغ فى إضفاء جو من المرح المتهوس الصاخب ، على ذلك العشاء .. إذ خيل إليه أن هذا سبيله إلى استهواء مدام (كوسيانو) و (جيا) معاً .. الأولى لأنها عاشت دواماً فى هذا الجو ، والثانية لأنها كانت تصبو إلى العيش فيه !

وطلب نبيذاً فرنسياً لم يسبق لجيا أن ذاقته ، ففحصته الرومانية بعين الخبيرة المستريبة ، قبل أن تمتدحه فى ثقة العارفة .. ثم أخذ يروى نوادر مستهجنة ، أظهرت مدام (كوسيانو) أنها تستمرئها — كما استمرأت النبيذ — فى حين كانت (جيا) لا تفقه لها معنى ، وتسمعها على مضض .. وكان بين حين وآخر يصيح : « فى صحة بياجنوتسى ! » — متعمداً تحريف الاسم التعس — « فى صحة الغائب

العظيم ».. ويحمل (جيما) الحائرة المترددة على أن تقارعه الكأس بالكأس ، بينما تسعى قدمه تحت المائدة لتضغط قدمها ، فى تلك المغازلات السمجة التى بدت له مناسبة للمقام .. ولم تقو (جيما) فى ذعرها واضطرابها على التملص منه ، أو مقاومته .. وزادها ارتباكاً وشروداً أن بدأ النبيذ الذى أسرف فى حملها على تناوله ، يفعل مفعوله ! أحست أنها منغمسة فى جو رائع ، لا تكاد تصدق أنه حقيق !.. كأنما هو حلم لا تنجم عن أخطر التصرفات فيه نتائج ما .. فاستعذبت أن تعيش فيه ، وأن تنساق فى تياره !

* * *

● وفى ذلك الجو من الحقيقة الحالمة ، الذى عاشت فيه مشدوهة ، سمعت مدام (كوسيانو) تقترح أن يذهبوا فيتناولوا عندها زجاجة شراب .. وأذهل (جيما) من نفسها أنها تحمست فى قبول الاقتراح بمرح !

ومنذ تلك اللحظة ، كان الشراب قد فعل مفعوله السيء ، فغدا فى كيانها شخصان ، أحدهما يتصرف كما لو كان مجرداً من الوعى ، فهو كالآلة !.. والثانى يراقب الأول بذهن صاف ، وإن كان عاجزاً تماماً عن التصرف ..

وبهذا الازدواج فى الشخصية ، رأت نفسها تخرج من الفندق بين مدام (كوسيانو) و (فيتونى) — الذى كان يطوقها بذراعه متعللا بأنه يقيها من الترنح ! — وبدا لها شارع « كورسو » خالياً ،

وقد أظلمت واجهات البيوت على جانبيه ، حتى كادت لا تعرفه .. ولمحت على بعد ، رجـلا يدور نصف دورة حول نفسه وهو يولج مفتاحاً فى باب ، ثم يختفى فى بيت خيل إليهـا أنه نموذج مصغر من الورق المقوى ، فى شـارع صيغت بيوته من خشب منقوش !..

كان الثلاثة وحدهم فى الشارع الواسع ، وكلما مروا بأحـد مصابيح الطريق ، استطالت ظلالهم بشكل غريب على الأسفلت !.. حتى إذا بلغوا الكاتدرائية دقت الساعة ، فكان لثقل وقـع أولى رنات الناقوس ولرهبتهـا أثر فى نفوسهم جعلهم يقفون لحظـة جامدين ، يصغـون إلى تلك الدقات البرونزية التى تنتشر موجاتها الصوتية حتى تبلغ أقصى الآفاق . وعنـد الدقة الثانية استأنفوا السير ..

ودخلت بهم مـدام (كوسيانو) — التى تقدمتهم لترشدهم إلى الطريق — تيهاً من الشوارع الصغيرة ، والأزقة الرطبة ، والسلالم الزلقة ، والممرات المنحنية ، حتى توقفت أخيراً أمام باب صـغير أخضر ، وقالت وهى تخرج من حقيبة يدها مفتاحاً من الحديد كبير الحجم : « ها قد وصلنا ! » .. ثم فتحت الباب بجهد وسبقتهما فى الظلمة ، وهى توصيهما بأن لا يحدثا صوتاً . وكان السلم صعب المرتقى ، يكاد يكون عمودياً ، وقد بلغ من الضيق إن لم يكن



ولم تصعد (جيما) ، بل تركت نفسها لفيتونى يدفعها ، ويستغل الظلام فيتحسس بشفتيه عنقها !..

يتسع لغير شخص واحد !.. ولم تصعد (جيا) ، بل تركت نفسها لفيتونى يدفعها ، ويستغل الظلام فيتحسس بشفتيه عنقها !

* * *

● وعلى أطراف الأقدام ، دخلوا شقة صغيرة ، متواضعة ، قليلة الأثاث ، قدمتها مدام كوسيانو – بتفخيم متهكم – على أنها « قصرها ! » .

وألقى الشاب بنفسه على أريكة ، وهو يتنهد بارتياح ، وجذب (جيا) إليه .. فقالت مدام (كوسيانو) : « ما أبدعكما معاً !.. » ثم اختفت لتبحث عن أداة لنزع سدادة الزجاجة التى جاءوا بها من الفندق ..

وما كادت تخرج حتى تناول (فيتونى) جيا بين ذراعيه ، وحاول أن يقبلها ! فدفعته لفورها ونهضت معلنة بلهجة جافة أنها تريد أن تعود إلى بيتها !.. لكن الشاب والمرأة – التى كانت قد عادت بالزجاجة مفتوحة – توسلا إليها ، ساخرين ، بما جعلها تعدل عن الرحيل !

وعادوا إلى الشراب ، فلم تتمالك (جيا) – وهى تشرب ، رغم ثملها – أن تقارن بين (فيتونى) الشاب القوى المتورد الخدين ، وزوجها الهزيل الأصفر !.. وأعجبها فى (فيتونى) أيضاً طباعه الخشنة المجردة من المسكنة والتكلف ، الواضحين فى زوجها (البروفسور) . كان واضحاً أن (فيتونى) قد عاش عمره بين

أهل المجتمع الراق ، وهل أدل على ذلك من ازدرائه لقواعد العرف ، ومن لهجة السيادة فى كلامه ؟

وداخلت ذهن (جيا) الثمل ، رغبة جديدة فى أن تكف عن مقاومة كل إغراء ، وعن حرمان نفسها من أية تجربة !.. وزين لها شعورها الطارئ أن تحنى رأسها للمخاطر ، ثم تغوص فيها بفضول يائس !.. ففيم الصراع وكبح النفس عن هواها ؟.. ومن أجل من؟ .. ولماذا ؟.. أخذت تحدث نفسها بهذا ، وقد غشيها ما يغشى الكثيرين ممن سئموا الاصطناع وكتمان حقيقة عواطفهم ، من فرط ما يمر بهم من فترات يعجزون فيها عن أن يفرقوا بين فكرة الفضيلة ، وفكرة الإفادة المباشرة والجزاء المحتوم ، حتى لتعمى بصائرهم عن أن يميزوا بين الفضيلة وبين منفعة تنطوى على رذيلة ؟.. لقد عاشت شريفة ، فما الذى جنته من ذلك ؟.. جنت زواجاً وضيعاً تعساً ، وحياة ضحت فيها بنفسها ، وقليلا من الرجاء فى المستقبل ، بل لا رجاء !.. أليس الأجدر بها إذن أن تستمتع بالحياة ، كما توصيها مدام (كاسيانو) دائماً ، فى غير حرج ولا اكتراث ؟

وكانت وهى تقلب هذه الأفكار فى رأسها ، لا تكف عن محادثة (فيتونى) ومنادمته ، حتى غادرت صديقتها الحجرة مرة أخرى لتحضر بعض البسكويت : وإذ ذاك ، استسلمت (جيا) للقبلات ، دون ما مقاومة !

* * *

● وظلا على حالها لحظات ، فى الحجرة الصغيرة المعتمة ، العارية إلا من مقاعد صغيرة ووسائد . ثم أعلنت مدام (كوسيانو) — فى لهجة الأم الحانية المشفقة — أنها توشك أن تهوى لفرط مهاجمة النوم لها ، وأن الوقت قد حان كى يصحب (فيتونى) (جيا) إلى بيتها . وقبل الشاب أن يصدع لهذا الأمر اللطيف فى ابتهاج .. بل إن (جيا) لم تتمالك أن أحست بالغيرة ، خشية أن تصحبهما صديقتها ثم تعود إلى المدينة مع (فيتونى) ، وحدها !

لكن مدام (كوسيانو) دفعتهما إلى خارج مسكنها ، بعد تبادل تمنيات طويلة لليلة طيبة ، ووعود بتجديد هذا الحفل الصغير فى اليوم التالى !

ووجدوا نفسيهما وحيدين فى الشارع .. فسلكا طريق الخندق ، بمحاذاة الجدران العالية التى تتوجها الثغرات .. وكان الجو فى تلك الفترة من شهر نوفبر عليلا ، والقمر يتوسط سماء صافية بلا سحاب ، مرسلا ضوءه الزاهى .. وأفق التلال الفسيح الذى يتبدى من خلال ثغرات الجدران ، يسبح فى ذلك الضياء الباهر . وكانت النوافذ النادرة المضاءة فى البيوت المتناثرة فى الريف تبدو متطفلة على مثل ذلك الجلال .. كان قمراً كاملا يسطع وسط السماء ، وعن يمينه كوكب (المشترى) البهى الأبيض .. وقد ارتفع من داخل المدينة نباح كلب انتشى بذلك البهاء القمرى الخارق فرفع عقيرته يثلم ذلك السكون .. وجاوبه من أحد تلك البيوت المتناثرة فوق التلال كلب

آخر ، تناهى نباحه من بعد وهو يتلاشى ويضيع عبر ذلك الفضاء الفسيح .. ووقع من نفس (جيما) هذا النباح المنفرد الواهن من الحيوان الملهوف على صحبة جنسه ، كأنه دعوة إلى الوقوف ، والإصغاء ، وتأمل الليل .: فجلست فى ثغرة تتخلل سور المدينة المنخفض ، وقفز (فيتونى) فصار بجانبها : وكان جلال الليل الساكن قد أبعد عن نفسها كل رغبة من رغبات الحواس ، وملأها شعوراً بالحاجة العاطفية إلى أن تحيط بقوامها ذراع ، وهى تتأمل المشهد ، ورأسها مسند إلى كتف جارها .. ألم يكن هذا هو الحب ؟ هكذا خطر لها : أن الحب هو لمسة يد الحبيب وهو بجوار حبيبته .. والإعجاب المشترك بالأشياء الجميلة .: والسكوت فى لحظة واحدة.. ومن ثم تيقظت فيها — تحت مطامح الغرور والمظهر السطحى المصطنع — نزعة عاطفية « إقليمية » ، عفا عليها الزمن !

وهمست : « إنى لأحب هذا النباح ينبعث عن بعد ، وهذا القمر الرائع .. ويطيب لى أن أظل الساعات ناظرة إليه .. » .. وابتسم مرافقها لهذه العبارة ، فما كان القمر عنده إلا موضعاً للاستهزاء ، وما كان يرى فيه سوى وسيلة من الوسائل العديدة المسخرة لتحقيق غاياته !.. لكنه سكت عن التعليق ، فقد علمته التجارب أن من الأفضل « ترك الماء الجارى يسترسل فى منحدره » ، وأن مثل هذا الاستسلام من المرأة يمهد لإذعان من نوع آخر !

* * *

● ولبثا على هذه الحال لحظات ، جالسين جنباً إلى جنب فى مواجهة المنظر الطبيعى الليلى الصامت .. وبين وقت وآخر ، كانت (جيما) تدير وجهها إليه ، وتلصق خدها بخده ، وهى تغمغم له ببضع كلمات الإعجاب ، والمساررة ، والخواطر ، والذكريات .. كانت تقول إنها تحس فى ضوء القمر وأمام تلك التلال السوداء ، نفس الإحساس الذى يعتريها فى الكنيسة ، فى بعض أمسيات الشتاء ، عندما لا يتبدى فى الظل غير المذبح بأضواء شموعه الصغيرة التى تحترق وسط الأزهار ، أمام صورة العذراء المذهبة التى تحوطها الظلال .. وحاولت أن تفسر له هذه العاطفة البالغة العذوبة .. عاطفة النسيان ، والإذعان المطمئن ، والفناء فى الإيمان !

وأجابها (فيتونى) فى ثقة أنه هو أيضاً أحس بهذا الإحساس ، وإن كان فى الوقت نفسه قد خاطر بتقبيلها ، فما لقى منها — كما قدر — أدنى مقاومة !.: ذلك أنها كان قد داخلها الإيمان بأنها وجدت الروح الرقيق الذى طالما بحثت عنه ، سيما وقد كان زميلها ينصت إليها بوجه يبين فيه الجد ، وعينين مفعمتين بالفهم والعطف .. ولو كان من يصغى إليها زوجها ، لسخر منها ، أو لأجابها بإحدى تلك الكلمات الرعناء التى تبدد سحر الموقف وتجعلها تخجل إذ كشفت له عن نفسها !

وغدا (فيتونى) — فى عينيها — هو الإنسان الكامل ، واقتنعت بأنها .. قد أحبته !

.. وكم من اعترافات همست بها له فى تلك الليلة ، وهما جالسان على الجدار تحت ضوء القمر !.. ولقد أصغى هو إليها باهتمام كله خشوع ، قبل أن يعقب على اعترافاتها بالقبلات !.. وما عاد أمرهما سوى لون من عبث الأطفال ، فلو أن (فيتونى) أوتى دقة فى الملاحظة لأعجب بالانتظام الآلى الذى يربط الأسباب بالنتائج ..

وأخيراً نهضا وعادا إلى الطريق ، حتى بلغا بيت (جيما) .. وهناك قبلها (فيتونى) مرة أخيرة ، قبل أن يعود إلى فندقه بخطى نشيطة ، وهو يصفر بين شفتيه لحناً خفيفاً مرحاً ..

* * *

الفصل العاشر

● فكرت (جيما) فى اليوم التالى فيما حدث ، فلم تشعر فى نفسها بروع أو ندم ، بل رأت أن ما تذوقته فى تلك النزهة كان كافياً لتبرير المغامرة !.. لكن حالتها الذهنية كانت حالة شخص يشرع فى طريق مجهولة ، يجدها ملائمة ، لكنه لا يعرف ما قد تفضى إليه فيما بعد من أخطار ، ومن ثم يتراجع باحثاً عن ضمان ، وعن مشجع !.. وهكذا كانت (جيما) فى حيرتها تبغى ، قبل أن تندفع إلى أبعد ، أن تستمد تأييداً من سلطة ما !.. ولا حاجة إلى القول بأنها وجدت هذا العون عند مدام (كوسيانو) ، فقد قصدت إليها فى الصباح كى تفضى إليها بذات نفسها ، فوجدت منها تأييداً حاراً .. فقد استبعدت الرومانية فى الحال من نطاق البحث — دون أدنى تردد أو تحرج — الاعتبار الأخلاقى المضحك ، واندفعت من فورها إلى الخطة العملية « الاستراتيجية » ، خطة الإقدام على العمل ، على حد قولها ، لا الجمود والشكوك العقيمة !

ولم تكن (جيما) تأمل غير نصيحة خالصة ، تصدر دون تحيز ، فإذا بها تجد « تشجيعاً » حماسياً : فإن (فيتونى) يتحلى بجميع الصفات المرغوب فيها فى مثل هذا الموقف ، فهو « رجل مجتمع » وهو يحب (جيما) ، كما أن (جيما) تحبه .. فليس السؤال إذن هو : أيمضيان بهذا الحب إلى غايته ؟ — إذ ما من مجال للريب فى هذه النتيجة —

وإنما المهم الآن هو تنمية هذه العلاقة البازغة التى عقدت الآن أواصرها ، بما يرضى الطرفين .. من وراء ظهر الزوج !

وكانت التجارب الطويلة تزود مدام (كوسيانو) بما يؤيد هذه النظرية من حجج بليغة لا ينضب معينها : فليست هذه بالمرة الأولى التى تقصدها فيها امرأة قلقة .. وما من نصيحة لها اتبعت ، إلا وسارت بمقتضاها الأمور على خير ما يرجى .. وها هى تقدم لجيا مشروعاً مدروساً لا ينقصه غير التنفيذ !

ولو أن (جيا) كانت أقل اضطراباً ، لاستطاعت أن تتبين فى أعماق نفسها عاطفة يشوبها الخجل ، ممتزجة بالندم والاشمئزاز .. لكن مدام (كوسيانو) لم تكن لتدع لها الفرصة الكافية للتعمق فى تقليب هذه الأحاسيس على وجوهها ، بل راحت تزين لها جواً جديداً يشملها .. جواً تبدو الجرأة الخطرة فيه عملا هيناً مشروعاً !.. إذ لم يكن عند تلك المرأة أدنى ريب فى أن الزوجات يجب أن يخن أزواجهن ! — سيما إذا كان هؤلاء من طراز (فاجنوتسى) — فقد كان ذلك فى نظرها قانوناً طبيعياً ، أشبه بشروق الكواكب وغروبها !.. ومن ثم فمن العار على (جيا) أن تخلق استثناء مناقضاً لهذه القاعدة العالمية اللطيفة !

.. وتعود المرأة بعد ذلك إلى الثناء على (فيتونى) ، فهو عندها الرجل المنشود لإسعاد صديقتها .. ثم تقترح فى النهاية على (جيا) أن

تكون مقابلتها له فى بيتها هى — الصديقة — تحاشياً لكل ريبة !

* * *

• لكن هذا الاقتراح ظل معلقاً فى الهواء برهة ، ذلك أن (جيا) التى أدارت رأسها الغواية ، لم تأنس من نفسها — مع ذلك — الشجاعة على القبول .. ورأت مدام (كوسيانو) ألا تلح عليها فى هذا الصدد ، بل حولت دفة الحديث من فورها إلى موضوع آخر ، وعنيت بتفادى العودة إلى ذلك الاقتراح ، حتى لقد خشيت (جيا) أن تكون قد أهانت صديقتها ، وحرمت نفسها — بحيائها الزائف — من عون جزيل النفع !.. وعذبتها هذه الفكرة ساعات ، فعادت بعد ظهر اليوم نفسه إلى بيت صديقتها ، كى تذكرها باقتراحها وتعرفها بأنها تقبله !

ودخلت البيت ، فلم تجد غير (فيتونى) !.. كان جالساً وأمامه فنجانا قهوة فارغان . وقال لها : إن مدام (كوسيانو) قد ذهبت تحمل « أباجورة » صنعتها إلى بيت عميلة ، لكنها ستعود قبل المساء :، وتبينت (جيا) الشرك ، وخطر لها — بعد أن أيدت ظنها تلك الابتسامة الساخرة التى بدت على وجه الشاب — أن تنسحب فى الحال .. لكنه أمعن فى التوسل إليها ، وأقسم أن يلزم حدود التعقل ، فوافقت على البقاء ..

وكان يغدو ويروح فى الشقة كما لو كان فى بيته ، وأجبرها على

أن تخلع قبعتها .. بل إنه وجد فى المطبخ زجاجة شرابٍ خفيف لم تفض سدادتها بعد ، كأنما قد اشتريت فى اليوم نفسه ، فجاء بها وجلس بالقرب منها .. ثم نسى قسمه ، فقبلها !

وهنا أدركت (جيا) ما سيحدث .. فزايلها فجأة كل تحفظ ، ولم تعد تفكر فى غير الإخلاص لنفسها ! وعاودها الإحساس الذى تملكها ليلة أمس فى ضوء القمر ، فبدا لها أنها تستطيع أن تقدم لفيتونى دليلا على صدق عاطفتها أقوى من هبة الجسد ، وهى ليست سوى هبة ضئيلة إذا قورنت بهبة القلب ، التى قد تنم عنها إيماءة أو كلمة .. ولكن ، وا أسفاه !.. لقد شاء سوء طالعها ألا تكون كلمات الحب التى جادت بها قريحتها سوى كلمات جوفاء ، معادة ، زائفة ، وإن خيل لها أنها كانت عنوان الإخلاص !.. لم تكن روحها هى التى تتحدث إلى (فيتونى) ، بل روح أخرى مستعارة من السينما ، والمجلات الشعبية ، والروايات الرخيصة !.. وهكذا انتقم لنفسه الذكاء المحتقر !.. وإذا الإخلاص ، ووقدة الدم والحماس المنبعث من أعماق نفس مجربة ، تترجم عنها كلمات رخيصة مستهلكة شبيهة بتلك الملاليم التى ترن فى جيب ذلك الفقير الذى تسولها !

* * *

● وفى الأيام التالية ، هنأ (فيتونى) ومدام (كوسيانو) نفسيهما على بعد نظرهما .. فكان الأول يشبع رغبته التى أثارتها فيه (جيا)

منذ زمن ، وكانت الثانية تشهد نصائحها تتبع ، وخدماتها المريبة تقبل !.. أما المخلوقة الوحيدة التى لم تكن راضية عن نفسها ولا عن الآخرين ، فهى (جيا) !.. فإنها لم تكن قد عرفت عنفوان الشهوة الحسية ، وإنما كانت فى مشاعرها نحو (فيتونى) أقرب إلى الحنان والعاطفة الباردة .. فلم يكد ينقضى أسبوع حتى تبدى لها الطابع « السطحى » لعلاقتهما الفاترة !.. كما أن (فيتونى) — الذى لم يكن بطبيعته رقيق الحاشية — لم يكد يطمئن إلى « غزوته » حتى سئم ما كان قد تكلفه نحو (جيا) فى البداية من تلطف وزلفى ، ولم يعد يتحرج من الاعتراف — فى صراحة وفظاظة — بخيبة أمله ! لقد ظن أنه واجد عندها نشوة الحواس والوجد المفرط ، فإذا هو مغلول إلى امرأة من نساء الأقاليم ، تنقصها التجربة ، فوق أنها باردة العواطف ساذجتها ، تكثر من الحديث عن الحب ، وبلهجة من وحى الخيال الواهم لم تعجبه .. فكان ذلك يخيفه من أن تتعلق به ، وتغار عليه !.. فى حين أن كل ما أراده إنما كان « مغامرة » قصيرة ممتعة ، وليس هذا المأزق « الجدى » الذى زج بنفسه فيه !

وقد كان لمخاوفه ما يبررها فى الواقع ، فإن (جيا) — مع وعيها ببرودة علاقتها — كانت مهيأة بطبيعتها للتعلق به والتوهم أنها تحبه ، جبناً منها وفراراً من عزلة حياتها .. وما كانت لتقوى على فصم علاقتها معه بعد أن اندفعت فى ذلك الطريق الأثيم ، اندفاع اليائسة المحرومة من الرجاء .. ومع ذلك ، فهى لم تكن أقل إدراكاً من

(فيتونى) لخلق مدام (كوسيانو) .. وإذا كان قد وسعها — حتى ذلك الحين — أن تعتبر خشونة الشاب وقسوته ، بساطة وصراحة ، إلا أنها لم تستطع أن تنظر بنفس هذه النية الطيبة إلى الرومانية .. فما أن زالت اللهفة الأولى حتى لم يبق بينهما سوى علاقة التواطؤ المريب !.. بل بدأت (جيا) تكتشف كل عيوب تلك المرأة بجلاء مروع ، كما لو كانت تراها خلال عدسة تكبر المرئيات وتشوهها !.. وعندئذ استبدت بها الدهشة لكونها لم تر « صديقتها » منذ الوهلة الأولى على حقيقتها !.. وصارت لا تخلو بها إلا وتحس بمشاعر متزايدة من الخزى لا تقوى على احتمالها . لقد كان (فيتونى) مخلصاً ، بطريقته الخاصة ، وكان خطأ استسلامها له يقع على عاتقها هى .. أما تلك المرأة (كوسيانو) ، تلك الناعمة المعسولة الكلمات ، فلم تكن سوى الخديعة البشعة مجسمة ! كانت تحس بأنها زائفة ، مخاتلة ، قادرة على اقتراف كل الشرور .. بل كانت شريرة بكل معنى هذه الكلمة !.. وكان (فيتونى) يشاركها نفورها من الرومانية ، فلقد أصدر حكمه عليها منذ النظرة الأولى ! لكنه اضطر إلى مسايرة (جيا) فى آرائها وميولها ، لأن مصلحته كانت تقتضى ألا يبوح برأيه الخاص !.. أما الآن ، فقد أصبح يعتبر مدام (كوسيانو) من أكبر منغصات مغامرته السيئة .. ولم يكن يدخر وسعاً فى إيضاح هذه الحقيقة لجيا كلما شكا لها صديقتها !

* * *

* وكانت (جيا) تؤثر ألا تتحدث عن علاقتها بفيتونى ، لكن مدام (كوسيانو) كانت — بفضولها الذى لا يعرف الحياء — تريد أن تعرف كل شىء ، فكانت تستجوبها ، وتوصيها ، وتفسر لها ، وتنصحها ، وتحذرها .. تفعل ذلك كله دون أن تسألها (جيا) منه شيئاً ، متخذة لنفسها مركز الحامية المخلصة « المحايدة » ، المجردة من كل مصلحة — بل مركز الأم ! — وإن كانت حمايتها فى الواقع من قبيل الحماية المنطوية على التهديد والابتزاز !

وحدث ذات يوم أن ثارت (جيا) على هذا الفضول ، لكن ثورتها كانت قصيرة العمر ، لم تلبث أن انطفأت بمجرد أن تخلت مدام (كوسيانو) فى الحال عن رقتها المعسولة ، وكشرت عن وجه قاس فظ يخيف حقاً من يراه .. وهى تجيبها : « آه !.. أهكذا تكلمينني !؟ » .

قالت ذلك بهدوء ، ويدها الممتلئة ، التى كانت فى العادة رخوة طرية ، تقبض بصلابة على ذراع (جيا) ، كمخلب النسر : « أهكذا تجاوبيننى .. أنا التى ساعدتك ولم تفعل لك إلا الخير ؟! .. إنك لجاحدة للجميل ، لكن حذار ! فأنا أعرف عنك أكثر مما ينبغى ! » .

وأدركت (جيا) ما وراء تلك الكلمات من تهديد بالغ الوضوح ، بارد التدبير ، فأحست أنها توشك أن تفقد وعيها رعباً .. ومن ثم فقد غيرت لهجتها على الفور ، معتذرة بتوتر أعصابها ، وتلطفت مع المرأة كى تهدئ من ثائرتها !

وتفاقم طغيان مدام (كوسيانو) فى الأيام التالية ، فصارت تفرض على (جيا) شراء « أباجوراتها » القبيحة المنظر بثمن مرتفع ، وتقترض منها نقوداً ، وتظل تبدى إعجابها ببعض ثياب (جيا) أو قبعاتها ، بلهجة إيحائية ذات مغزى ، كى تتنزل لها عنها !.. كما خصت (فيتونى) أيضاً بثناء من نوع آخر ، فيه تظرف ودلال ، وبأسلوب الفتيات الصغيرات .. وكان الشاب قد منحها فى البداية هدايا كثيرة ، أما الآن ، وبعد أن خيبت (جيا) رجاءه ، فما عاد يجد لديه رغبة فى إنفاق شىء .. فصار يجيب الرومانية بلذعات قاسية جعلتها تخشى بأسه ، فبدأت تكرهه وتحمل عليه ، وتظهره لجيا فى صورة شائهة ، واصفة إياه بأنه « حيوان غاشم » !.. وبأن واجب (جيا) يحتم عليها أن تهجره ، سيما وأنه يعيش من موارد غير مشروعة : إما عالة على النساء ، أو من الغش فى القمار !.. وبلغ من ضيق (فيتونى) بما ترميه به أنه قبض ذات يوم – فى حضور (جيا) ، المشمئزة ، المذهولة – على معصمى الرومانية ، وهددها بالانتقام منها إن هى استمرت فى تشويه سمعته ؟ ثم قرن تهديده بأشد صفعتين تلقتهما فى حياتها ، قائلا : إنه هو أيضاً يعرف الكفاية عنها ، وأن له من النفوذ ما يكفى لإعادتها إلى وطنها ، وبغير إمهال !.. فما كان من المرأة إلا أن أذعنت ، وقد شحب وجهها .. بعد أن أسقط فى يدها !

وهكذا ران على هؤلاء المتواطئين الثلاثة ذلك الجو المحتوم الذى

يظلل مثل هذه الروابط : جو المحاذرة ، والتهديد ، والحقد ! لكن (جيا) – أكثر الثلاثة تجرداً من السلاح ، وأشدهم حساسية – كانت صاحبة النصيب الأكبر من الألم !

* * *

● وذات يوم ، أعلن (فيتونى) أنه قد أنجز مهمته فى المدينة وباع أرضه التى كان يملكها فى ضواحيها ، وأبلغ (جيا) أنه قرر الرحيل !.. فتلقت هى هذا النبأ فى سكون مجرد من الدهشة ، الأمر الذى ضايق (فيتونى) ، إذ كان يتوقع – بدافع من غروره – مشهداً روائياً ، تسيل فيه الدموع ! .. وإذ ذاك أحس أسفاً ينبثق فجأة فى نفسه ، كما لو كان قد تنبه ساعتئذ فقط إلى مزايا (جيا) !

وتم الوداع فى إحدى حجرات مدام (كوسيانو) الصغيرة ، وكانت الرومانية – التى لم توجه كلمة واحدة إلى (فيتونى) منذ هددها وصفعها – قد لاذت بحجرة أخرى ، وظلت تصرخ بأعلى صوتها ، تسأل (جيا) أن تخبرها ، بمجرد رحيل هذا الشخص !

ولم يكن (فيتونى) راضياً عن الصورة التى تم بها قطع علاقته بجيا ، ولم يعد يدرى إن كان محقاً فى هجرها أم لا ؟!.. بات يخشى – إذ بدت له فى هذه اللحظة بمظهر جديد ، محير ومرغوب ! – أن يكون قد أساء فهمها ، وألا يكون قد استمتع منها بما فيه الكفاية !.. وساورته فكرة : ألا يقطع الخيط الموصول بينهما كل القطع ، بل

يحتفظ بهما على سبيل الاحتياط ، ليوم تراوده فيه الرغبة فى استردادها !.. ومن ثم اقترح عليها أن يتراسلا !.. وكان اقتراحاً يستغرب صدوره من رجل حيوانى النزعة ، ناقص الثقافة والتهذيب مثله !.. غير أن (جيما) أجابته ، فى برود ، بأنها لا ترى ضرورة لمثل هذا التراسل ، فما عاد عندهما — كعاشقين — ما يقوله أحدهما للآخر .. وماذا عساهما يكتبان فى رسائلهما ؟!

وأمام هذا الجفاء الحاسم ، أدرك (فيتونى) أن مغامرته «الريفية» قد انتهت إلى غير رجعة !.. وحدث نفسه وهو يهبط السلم : « يا للخسارة .. كانت على كل حال أفضل من كثيرات غيرها ! » .

وكان ذلك آخر خاطر وجهه ذهنه إلى (جيما) !

* * *

● وسعت (جيما) بعد رحيل (فيتونى) إلى حجرة الرومانية فى أقصى البيت ، فوجدتها جالسة على سريرها ، وسط كومة من الخرق المتناثرة ، وشعرها ملىء برقائق الورق التى تحفظ له تموجاته ، أثناء النوم ، وصدرها مضغوط فى درع قذر ممزق ، ملفوف فى قميص من الحرير المصفر ، وهى مشغولة فى «لضم» لآلىء إحدى « أباجوراتها الخالدة » !.. وكانت بادية الشحوب ، وهى تضم شفتيها الرفيعتين المتقلصتين على لؤلؤتين ، وقد بدا وجهها أشبه بوجه وحش شرير ؟.. فارتجفت (جيما) لهذا المشهد ، وناجت نفسها : « لقد رحل (فيتونى) وبقيت أنا وحدى مع هذه المرأة ! » .

وفى تلك اللحظة .. نهضت مدام (كوسيانو) ، كما لو كانت قد حدست هذه الفكرة ، ونظرت إلى (جيما) بعينين يتطاير منهما الشرر ، وقالت بصوت جاف كصوت ببغاء ، وأسنانها مطبقة فى غيظ : « أخيراً رحل .. رحل هذا الوغد .. وبات فى وسعى أن أتنفس ! » .

ولم تجب (جيما) ، إذ لم تكن تضمر حقداً لفيتونى رغم خشونته ، ورغم أنها لم تحبه قط . ولم تجد من نفسها استعداداً للحديث عنه مع مدام (كوسيانو) ، فاجتازت الحجرة دون أن تتفوه بكلمة واحدة ثم أسندت جبينها إلى زجاج النافذة : وكان الجو السيىء قد عاد يثقل على الزقاق ، وأخذت الأحجار السوداء فى البيت المواجه تلمع من فرط الرطوبة ، وإن ظل المطر يتساقط رذاذاً خفيفاً حتى ليصعب تمييز قطراته .. وما لبثت مدام (كوسيانو) أن قالت دون أن تقطع عملها : « لست أحب كثيراً موقفك منى فى المدة الأخيرة .. وأحب أن أنذرك يا عزيزتى بأننى لن أدع أحداً يمر فوقى ! » .

وبدا صوتها ، وهى تتحدث ، أشبه بنسمة من ريح الشتاء نفذت من خلال ثقب الباب فأصابت ظهر (جيما) بوخزتها الباردة !.. والتفتت (جيما) ، ثم قالت وهى تسند ظهرها إلى النافذة ، وتنظر إلى الرومانية فى اعتداد هادئ ، وإن يكن حزيناً : « أما كفاك أن جعلتنى أقدم على ذلك الجنون ؟.. لقد جعلتنى أخون زوجى ، وهو أنبل رجل فى العالم !.. فماذا تريدين أيضاً منى ؟! » .

وكانت هذه اللهجة جديدة عليها – حتى لقد دهشت هى نفسها منها – كما كانت العاطفة التى تعبر عنها جديدة هى الأخرى ، فما حدث لها من قبل أن تكلمت عن زوجها بهذه اللهجة !

وقذفتها مدام (كوسيانو) بنظرة مذهولة ، وهى تحاكى صوت الببغاء : « تش ! تش ! تش ! » .. ساخرة منها ، قبل أن تقول لها فى لهجة أرق : « فيم شطح فكرك ؟.. إن هى إلا ليلة تنعمين فيها بنوم طيب ، ثم يعاودك هدوء نفسك ! » .. وكانت قد فرغت من لضم لآلئها فوضعتها جانباً ، ثم دنت من (جيا) فطوقتها بذراعيها ، قائلة : « تعالى هنا .. اجلسى بالقرب منى وحدثينى عما بك : لم أنت حزينة هكذا ؟ أيكون ذلك بسبب رحيل هذا الرجل الفظيع ؟ » .

وتولى (جيا) نفور شديد يكاد يبلغ مبلغ الاشمئزاز ،من ملمس تلك الذراع ، ومن لفح تلك الأنفاس ، فأجابت دون أن تتحرك ، وعيناها ثابتتان فى اتجاه مستقيم أمامها : « كل ما بى أنى محزونة ! » .. فهزت مدام (كوسيانو) رأسها قائلة : « إنه تأثير الوحدة ! – واسمحى لى أن أقولها لك – فالوحدة هى التى تبعث فى نفسك هذه الكآبة والحزن ! » .

.. ثم أضافت بعد صمت قصير ، كما لو كانت قد تذكرت شيئاً بمحض المصادفة : « أتعرفين فيم كنت أفكر ؟.. إنها فكرة رائعة .: فلكى لا تحسى بالوحدة ولا تضيقى بسأمك ، سأجىء فأقيم فى بيتك ، لتأتنس إحدانا بالأخرى ، ونسخر معاً من كل (فيتونى) فى العالم ! » .

صعقت (جيا) !.. واستقر بصرها على الأرض فى رعب ، قبل أن يسعها أن تقول فى صوت مهزول : « لن يرضى زوجى ! » .. فهزت مدام (كوسيانو) كتفيها فى استخفاف ، وقالت : « هراء !.. ما عدت أفهمك يا جيا ! إن زوجك يفعل كل ما تريدين .. ستقولين له إنك فى حاجة إلى صحبة ، وإنه لحق ، ولن يجد حجة يعارضك بها . إنك طفلة يا عزيزتى ، ولا تعرفين الحياة .. إن الأزواج ينبغى أن يؤخذوا بالحيلة ! » .

كان مثل هذا القول من مدام (كوسيانو) يبدو لجيا فى الماضى مليئاً بالحكمة البارعة المقنعة ، أما الآن فإنه يرعبها بقدر ما يرعبها شخص تلك المرأة ذاتها !.. وقالت تجيبها : « ولكن لنفترض أنه لم يقبل فكرتك ! » .. فقالت المرأة : « فى هذه الحالة ، يا عزيزتى ، سأعرف فى الحال من أين تأتى الضربة ! إنى أكرر لك : زوجك يطيعك .. فإذا لم يرد ، فإنما يكون ذلك لأنك أنت لا تريدين ! » .

– حسناً ! لنفترض أنى ، أنا ، لا أريد !

جازفت (جيا) بهذا الرد ، فصاحت مدام (كوسيانو) متوددة : « لا أستطيع أن أصدق هذا ، فنحن صديقتان حميمتان ! لماذا تجعلين منى عدوة لك ؟ أنا أعرف الكثير عنك ، فإذا أردت أن تخذلينى وتتخلى عنى ، ففى استطاعتى أن أوقع بك أذى كبيراً ! فماذا يفيدك هذا ؟ فى وسعك أن تتصورى إلى أى حد ستعذبين .

وسيؤلمنى ذلك أنا أيضاً ، فإنى أوثر – إذا كان ذلك ممكناً – أن أعيش فى سلام مع الجميع !.. وأؤكد لك أنه يؤلمنى كثيراً بمجرد التفكير فى احتمال ما يمكن أن يحدث .. لو وقف زوجك على حقيقة ما وقع فى بيتى ! » .

.. وكان جسد (جيما) قد أخذ يرتعد كله، فقالت مذعورة : « أفى نيتك إذن أن تذهبى وتروى له ..؟ » .. لكن مدام (كوسيانو) قاطعتها فى خبث : « هلم ! هلم ! إن هو إلا كلام يقال !.. فلنكف عن الحديث فى هذا الموضوع .. والآن ، أجيبى : متى يناسبك أن أحضر إلى بيتك .. اليوم ؟.. غداً !؟ » .

قالت ذلك وعادت تطوق (جيما) بذراعها ، فأجابت هذه دون أن تتحرك : « غداً .. إذ يجب أن أخطر زوجى .. » ، فقالت الأخرى فى اهتمام : « حسن جداً، فلنحرص على ما يلائم ظروفك .. ثم إن إرجاء الأمر إلى غد سيجعل عندى متسعاً من الوقت لإعداد حاجياتى .. وهل تعرفين أين سيطيب لى أن أقيم ؟ فى الطابق الأول .. فى الحجرة التى تشرف على الحصون ! » .. فعبست (جيما) وهى تعقب على قولها : « لكننى كنت أعتزم أن أجعل منها حجرة أطفال ! » .. فنظرت إليها الأخرى بذهول مصطنع ، ومبالغ فيه ، وقالت : « جيما ! إنك لن تجعلينى أعتقد أنك من فساد الذوق بحيث تنشدين الأطفال !.. وأطفال السيد (فاجنوتسى) بالذات ! » .

وكانت (جيما) تعرف منذ أيام أنها حامل ، وتعرف – من حساب الأشهر – أن والد الجنين لا يمكن أن يكون إلا زوجها ، فملأتها لهجة مدام (كوسيانو) وتعبيرها كراهية عنيفة ، بحيث عانت الكثير من الجهد كى تمنع نفسها من أن تهجم عليها وتمزق بضربات أظافرها هذا الوجه الماكر المعسول !.. لكنها قمعت ميلها أخيراً وقالت فى كد : « ليكن .. ليكن .. ولكن ينبغى أن أحدث زوجى فى الأمر أولا ! » .

* * *

الفصل الحادى عشر

• لم تكد (جيما) تعود إلى دارها فى عصر ذلك اليوم ، حتى استلقت على سريرها ، وسحبت الغطاء على جسمها ، ولم تحر حراكاً حتى المساء . وكانت حجرتها تقع فى الطابق الأول ، وقد طليت بالجير .. حجرة باردة ، كئيبة ، ذات أثاث أسود ، نسب زوراً إلى القرن الخامس عشر !.. وكان الذباب الكليل يتهافت على زجاج النافذة ، والمطر ينهمر فى الخارج .. و (جيما) ترتجف !

كان الخوف والاستنكار قد زايلاها ، وتولاها شعور بظلم مخز ، مقيت .. وكأنما حكم عليها بأن تعيش مغلولة إلى جثة يدب فيها العفن !.. وكانت تعانى إلى جانب الألم المعنوى ، ألماً جسدياً .. تقززاً بدنياً كان يبعثه وجود مدام (كوسيانو) !.. وعرضت عليها مخيلتها المهتاجة ، المنفعلة ، صورة نابية لحياتها المنزلية بعد أن تفسدها هذه الدخيلة المدنسة .. وللمرة الأولى شعرت بالغيرة على هذا البيت الذى ما أحبته قط !.. فشعرت وهى تتصور تلك الـ (كوسيانو) فى الحجرة المخصصة لأطفالها ، كأنها دودة ضخمة رخوة مائلة إلى البياض ، تسمن وتتضخم ، وتملأ الحجرة برائحتها ، وبألف نوع من الأوساخ ! وكانت تعرف أن هذه المرأة تشرب الخمر ، وتصبغ شعرها ، وتتطيب ، فاشتد غثيان نفسها وهى تتصور فى تلك الحجرة كل تلك القنينات الصغيرة ، السوداء ، الكئيبة ، وقد صفت على

نضد ، بينما تناثرت على ظهور المقاعد ثياب ملوثة بالعرق .. ورأت فيما كانت ترى بعين الخيال ، صفاً من الأحذية الشوهاء وراء الباب ، كما تصورت مدام (كوسيانو) نفسها وهى تظهر كل صباح لتلقى تحية اليوم الجديد ، بوجه ملطخ بالأدهنة ، ورأس مغطى بالورق الذى يستخدم فى عقص جدائل الشعر ..

على أن أقسى ما عذب (جيما) من هذه الرؤى التى تمثلت فيها المستقبل القريب ، هو التفكير فى « استمرارها » ! إذ خيل إليها أنها لن يسعها – مدى الحياة – أن تتخلص من هذه الحشرة التى تمتص الدماء :: فاعتصر قلبها إزاء هذه الفكرة خبال خفى ، خيل إليها معه أنها توشك أن تجن !

ولم يصدها عن الاعتراف بالحقيقة لزوجها – الذى استبانت إذ ذاك فقط مناقبه – وعن مناشدته الصفح والمغفرة ، سوى خوفها من أن تفقده ، ومن أن يؤدى ذلك بها إلى العودة إلى ذلك الزقاق الذى نشأت فيه ، وإلى بيت أمها ونزلائه !.. ولم تكن بطبعها شجاعة ، فأذعنت فى يأس لشقائها وذعرها من تلك المرأة (كوسيانو) ، وتولاها شعور جائح « هستيرى » بأنها .. حقيرة !

* * *

• وفى تلك الليلة ، أفضت إلى زوجها – وهما يجلسان إلى المائدة – بأنها سئمت وحدتها فى البيت ، فقررت أن تدعو مدام (كوسيانو) للإقامة معهما . وتوقعت أن يعارضها – بل تمنت ذلك ! – ولكنه

كان يحبها ، وكان نادماً على أنه لم يف بوعده لها بشأن الإقامة فى روما ، كما كان حريصاً على إرضاء كافة رغبات زوجته .. ثم إنه كان قليل المعرفة بالمرأة الرومانية – التى لم يرها إلا فى ظـروف نادرة – فوق جهله بالطباع البشرية !.. فاجتمعت كل هذه العوامل لتجعله يكون لنفسه عن المرأة صورة مستلطفة ، توحى بالألفـة وحسن المعشر . فهى عنده امرأة جمة النشاط ، مسلية ، مرحـة ، قادرة على أن تؤنس (جيا) ، التى لاحظ فى العهد الأخير صمتها ، وما كان يبدو عليها من هم !.. ومن ثم أبدى لفوره موافقته – التى لم ترق لجيا – قائلا : « الواقع أننى فكرت فى ذلك من قبل ، ولا أدرى كيف لم أحدثك فى الأمر .. » .. ثم أردف قائلا : إن فى إيوائها عملا من أعمال البر أيضاً ، إذ كان قد علم من (جيا) أن مدام (كوسيانو) فقيرة ، معوزة ..

ووصلت مدام (كوسيانو) فى اليوم التالى – حسب الاتفاق – بمتاعها المؤلف من حقيبة زرية الشكل من الكرتون ، مليئة بالخرق البالية ، وبضعة صناديق من الورق المقوى ربطت إلى بعضها بالخيط .. فبدا إيواؤها حقاً نوعاً من الإحسان !.. وأخذت من فورها تتودد إلى (فاجنوتسى) ، الذى تشجع وكلمها بالفرنسية : ألقى عليها وابلا من الأسئلة عن رومانيا ، أكثرها عن بعض الأساتذة ورجال العلم الذين كانت تربطه بهم علاقة وثيقة .. وآلت هذه الألفة (جيا) ،

فلم تنبس ببنت شفة وهم حول المائدة ، تاركة زوجها والدخيلة يتبادلان الحديث والدعابة ..

ثم شاءت مدام (كوسيانو) أن تطوف بحجرات البيت عقب الغداء مباشرة ، وعلى أثر ذلك أعلنت أن البيت ليس مريحاً كما ينبغى أن يكون : إذ لابد هنا من أريكة ، ولابد هناك من مقعد « فوتيل » .. وأن الواحدة من « أباجوراتها » لكفيلة بأن تضفى رونقاً على هذا الركن .. كذلك وجدت مادة لحديث عن الخدمة ، فاستدعت الطاهية والوصيفة وزودتهما بأوامر وإرشادات ، وأخذت تتصرف – على العموم – تصرف سيدة الدار ، بينما كانت (جيا) تنتفض غضباً وحنقاً !

* * *

● وروت مدام (كوسيانو) لفاجنوتسى أنها كانت تملك فيما مضى قصراً فى « بوخارست » ، وكان لها خدم وحشم ومركبات مطهمة !.. ولم يصدق (فاجنوتسى) من قولها كلمة واحدة ، لكنه أصغى من قبيل التسلية ، حتى لقد تأخر بعد الغداء عن الخروج أكثر من المعتاد .. وقبل أن يغادر البيت أوصى الرومانية فى لهجة رجاء أن تبذل وسعها للترويح عن (جيا) ، فأجابته بأن لا مجال للأحزان حيث توجد هى !.. فانصرف (فاجنوتسى) مفعماً بالطمأنينة .

أما وقد بلغت المرأة بذلك غايتها ، فقد انحصرت رغبتها بعد ذلك فى أن تعيد عقد أواصر الصداقة مع (جيما) .. فقد كانت من الدهاء بحيث لا يفوتها أنها بالمودة والثقة تبلغ ما لا تبلغه بالضغط والابتزاز !.. لكن (جيما) لم تأخذ المسألة هذا المأخذ ، ولو أنها شاءت أن تفعل لما وسعها أن تقهر اشمئزازها ، ولا أن تنظر إلى صديقتها القديمة بغير ذلك الحقد المتأجج الذى لا يفتر استعاره !.. ومن ثم لم يكد زوجها يخرج حتى نهضت عن المائدة وغادرت قاعة الطعام بترفع ، دون أن تنظر حتى إلى علبة السجائر التى كانت الأخرى تمد بها يدها إليها !

على أن مدام (كوسيانو) جاءت تدق بابها بعد فترة ، فلما لم تظفر بجواب ، أدارت المقبض .. لكنها ألفت الباب موصداً بالمفتاح ! وسمعتها (جيما) وهى مستلقية على سريرها تناديها مراراً ، فى لطف أول الأمر ، ثم فى غضب : وأخيراً سمعتها تبتعد ، فلبثت حبيسة فى حجرتها طوال العصر .. حتى وثقت من أن الرومانية قد خرجت ، وعندئذ ارتدت ثيابها فى عجلة وهرعت إلى بيت أمها !.. كانت تريد أن تفضفض عن صدرها بعض همها ، وتلتمس النصيحة.. لكنها ما أن رأت تلك الأم العجوز التى احتفظت عيناها بلمعة الشباب وفاضتا بالطيش البرئ ، حتى أدركت أنها لو تكلمت لكانت كمن تفشى سرها لطفلة فى الثانية عشرة !.. فاكتفت بالإفضاء إليها بنبأ حملها .. وكم فرحت الأم بذلك النبأ ، حتى لقد غمرت ابنتها بعطفها..

ثم انتقلت بالحديث إلى موضوع أسرة (باولو) . كان رأيها الراسخ أن زواج (جيما) قد حال دون وقوع كارثة منكرة ، فمن حقها على القوم أن تدعى لقضاء الصيف فى « الفيلا » . ومن يدرى ؟ قد يتاح لها هناك أن تحظى بحب شخصية رفيعة المقام ، فتظفر لنفسها — حتى وهى زوجة لفاجنوتسى — بمكانة فى المجتمع الراقى !

وراحت تتكلم وابنتها تصغى إليها ، فى ضيق وصبر نافد ، وهى تحس بأنها أصبحت بعيدة عن أن تحفل بهذه الأشياء التى طالما أثارت مشاعرها فى الزمن القديم !.. وما أن سنحت لها أقرب فرصة ، حتى استأذنت أمها فى الانصراف وعادت إلى بيتها ..

* * *

● ولم تحمل الأيام التالية أى تحول فى الموقف .. سوى أن مدام (كوسيانو) أفهمت (جيما) ، بكلمات مقتضبة ، مفعمة بالمعانى المضمرة — بل وفى وجود (فاجنوتسى) الذى لم يفقه منها شيئاً ! — أنها غير قانعة بمجرد أن وجدت فى بيتها مأوى ، بل إن لها عليها حقاً فى الرعاية ، وفى المعاملة بلطف !

واضطرت (جيما) إلى مجاذبة الرومانية الحديث ، والابتسام لها — خلال اجتماعهما حول المائدة على الأقل — غير أنها ظلت تتجنبها فى غير هذه المناسبة ما استطاعت .. وإن لم ترحمها عزلتها من الإحساس الدائم « بوجود » الأخرى ، فكأنها جرح قبيح ، بارد ،

رطب ، لا يسبب ألماً لكنه لا يبرأ ، ومن ثم يخفيه صاحبه تحت ثوبه ، دون أن ينساه أو يجرؤ على كشفه والنظر إليه !.. وحين تحتويها حجرتها ، لم تكن (جيما) تكف عن إرهاف سمعها للأصوات الصادرة من الحجرة المجاورة ، التى لم تدخلها منذ سكنتها مدام (كوسيانو) ، والتى كانت تتصورها قذرة سوداء مفعمة بالروائح الكريهة ، تلوث أرضها وجدرانها لطخ عفنة !.. وكانت تقول لنفسها أحياناً فى تقزز : « إنها الآن تخلع ملابسها ! » ، ويخيل إليها أنها تراها ، بيضاء مرتجفة كقطعة من دهن معلقة فى خطاف جزار !.. أو تقول لنفسها فى الليل : « إنها نائمة ! » ، وتروح تصغى بنفور طاغ إلى غطيط المرأة ، وتخال ذلك الصوت يقسو على أعصابها وكأنه خطاب ابتزاز جديد ، أو نذير يعكر عليها صفو النعاس !.. ولم تكن هذه التخيلات والأصوات هى أفظع ألوان العذاب الذى صارت تعانيه (جيما) ، بل كان أقساها ذلك الإحساس بوجود المرأة !.. ولكن أين كانت علامات هذا « الوجود » ؟ أفى البيت ، أم فى وعى (جيما) المضطرب ؟.. كانت تكتشف لأول مرة فى حياتها أن فى الدنيا — إلى جانب الأشياء المادية التى يمكن إقصاؤها أو القضاء عليها — عالماً مثالياً تحب الروح أن تتأمل نفسها فيه ، وكأن صورتها تنعكس على ماء صاف .. وأن لا سلام للروح ما لم تجد هذا العالم شفافاً نقياً !

* * *

● وعلى غير وعى منها ، تجاوز بغض (جيما) لمدام (كوسيانو) شخص تلك المرأة ، وامتد ليشمل كل أخطاء ماضيها هى ، وكل آمالها السالفة !.. وكما يحدث للشخص المسموم إذ تخلصه نوبة عنيفة فى بضع ساعات من سموم امتصها جسده فى سنوات ، فإن استنكارها لوضعها الراهن وتقززها منه فى تلك الأيام الكئيبة من الشتاء ، لم يخلصها من إعجابها السالف بالرومانية فحسب ، بل خلصها أيضاً من كافة النزوات المنحرفة التى أعمت بصيرتها منذ فترة المراهقة !.. وفى عذاب الألم أخذت تبرأ من كثير من الانحرافات المحمومة .. وكان اضطرابها الشامل يدفعها نحو فجر نور جديد ، نور لم يداخلها شك فى أنه سيظل محدوداً ، واهناً ، فى نطاق الأخطاء والذنوب التى اقترفتها ، ولكنه مع ذلك خير من الجنون البرئ الذى أصاب أمها ، ومن الفساد الذى أتلف مدام (كوسيانو) !

وكانت الرومانية كلما أحرزت انتصاراً على إهمال صديقتها لها ، أمعنت فى الجرأة .. فإذا بهذا الإمعان بالذات يتيح لجيما الفرصة التى لم تسع إليها أو تفكر فيها : فرصة التخلص من وجودها !.. كان قد انقضى شهر على هذه الحياة الثلاثية — الزائفة ، القاسية — حين أعلن (فاجنوتسى) ذات مساء على المائدة ، فى مفاجأة تتمشى مع غريب أطواره ، أنه قد فاز آخر الأمر بذلك الكرسى الذى كان يسعى إليه منذ أمد طويل فى جامعة روما !

ولم تخف (جيما) فرحها بهذا النبأ ، فنهضت عن مقعدها ،

وسعت إلى زوجها فطبعت على صلعته قبلة .. فقد كان هذا هو التحول الذى سينتزعها من ربقة تلك المرأة !.. إنه الفرصة التى لم تطمع فيها ، ولو فى الأحلام .. الفرصة الرائعة التى جعلتها تحس بأنها تعود إلى الحياة !.. غير أن هذا المنظر العائلى المؤثر بعث فى الرومانية أسى ، وتوجساً ، فمضت فى بعض الحديث ببراعة حتى انتهت إلى القول بأنها تغبط (جيا) ، فطالما تاقت هى نفسها إلى أن تسكن العاصمة ، دون أن تفوز بأمنيتها !.. وانزلق (فاجنوتسى) الطيب إلى الشرك ، إذ بادر يقول إنه لا ينتوى التفريق بين صديقتين تتعلق كل منهما بالأخرى إلى هذا الحد ، ومن ثم يأمل أن تكون مدام (كوسيانو) ضيفتهما فى روما بضعة شهور !

وشحبت (جيا) لهذه الكلمات ، فتهالكت فى مقعدها ، أما مدام (كوسيانو) فسارعت تلتقط الفرصة ، معلنة لفورها قبولها الدعوة شاكرة لفاجنوتسى أريحيته .. فقال هذا إنه سعيد إذ يراها تلازم زوجته وتؤنسها ، ومن ثم فجدير به أن يكون الشاكر لها !.. وقالت مدام (كوسيانو) وهى تصطنع التواضع أن لا داعى للشكر فهى إنما تفعل ما تفعله حباً فى (جيا) .. بل إنها أمعنت فى جرأتها فالتفتت نحو ربة البيت وسألتها بصوت يقطر عذوبة : « أليس كذلك يا حبيبتى ؟ » .

وتبينت (جيا) ، فى ألم وغيظ كظيم ، سخرية الحوار الدائر ، واستعرضت فى خيالها حياتها المقبلة فى روما ، وبيتها الجديد الذى

ستدنسه تلك المرأة بوجودها !.. ثم مولد طفلها فى ظل ذلك الجو المقبض الذى تكتنفه أشباح النقمة !.. واستبدت بجيا فجأة غيرة الأم التى تستبق بصيرتها الزمن ، لتستجلى المجهول ، فتصورت احتمال إقدام تلك المرأة على تهديد جديد : ربما بانتزاع الطفل الذى سيولد !.. وفى بحران الخيال المحموم ، رأت (جيا) ابنها – وكأنها فى حلم – بين ذراعى هذه المرأة ، ورأت الوجه النجس المتنزى بالدهن وقد انحنى على وجه الطفل ، بينما هى نفسها – أمه – مبعدة عنه ، لا تقبله إلا خلسة ، أو بإذن من الرومانية !

وطاش لهذه الرؤيا صوابها ، وانبعث منها فى قلبها حنق مضطرم كشرارة مست كومة من حطب يابس ، فما تبقى فى نفسها غير العاطفة البدائية وثورة اللحم التى لا ضابط لها !.. واستقرت عيناها الزائغتان فوق المائدة على سكين طويلة حادة كان زوجها يستخدمها فى قطع الخبز الذى لا يشبع منه نهمه ، فامتدت يدها بغير عجلة إلى تلك السكين وقبضت عليها ، وأدارتها لحظة ووزنتها – كما لو كانت تفحصها – ثم دفعت بكرسيها إلى الوراء ، وانتصبت فى حركة مفاجئة .. وبأسرع من لمح البصر انقضت على مدام (كوسيانو) شاهرة سكينها !

وكانت الرومانية جالسة عند طرف المائدة ، فتفادت الضربة الأولى ، ونهضت وهى تطلق صرخة ثاقبة .. ثم تعثرت .. وأخيراً لاذت وهى تلهث من الخوف والحقد بكرسى (فاجنوتسى) ..

واستطاع هذا بمساعدتها أن ينتزع السكين بسهولة من يد زوجته !.. وكانت (جيما) قد استندت إلى المائدة ، شاحبة كمن بها دوار ، لا تجيب عن أسئلة زوجها القلقة ، وهى تمر بيدها المنفرجة الأصابع على وجهها .. فطوقها زوجها خشية أن يغمى عليها ، ومنحها ذراعه تستند إليها وهو يقودها نحو السلم ، فتركته يفعل دون أن تقاومه ، وقد زاغت نظراتها !

لكن مدام (كوسيانو) كانت قد عانت خوفاً أقوى من أن يتيح لها ضبط أعصابها ، فاشتعل فى أعماقها حقد دفين ضد (جيما) ، لا يقل عن حقد (جيما) عليها ، وراحت تصرخ بعبارات متقطعة يتردد فيها اسم (فيتونى) !.. وعندئذ استعادت (جيما) نوعاً من الحيوية ، فتوقفت وسط السلم الذى كان زوجها يرتقيه معها ، خطوة خطوة ، وردت بصوت مضنى — ولكنه هادئ — إن كل شىء يمكن منذ الساعة أن يروى ، فما عادت تعارض فى ذلك !.. وأجابت الرومانية ، من أسفل ، بصوت يخنقه الغضب ويكسبه حدة ، بأن ذلك هو بالضبط ما سوف تفعله !.. وأضافت إلى ذلك مجموعة من السباب الخشن تكررت فيها كلمة « قاتلة » التى تحشرج بها صوتها وهى تزأر بها فى حقد ملتاث .. وفى النهاية قالت إنها لن تعرف للراحة طعماً ما دامت (جيما) خارج السجن !

وطال هذا الحوار بين (جيما) المتكئة على الدرابزين » ، وبين الرومانية التى كانت تضطرب على الدرجة الأولى من السلم ، بضع

لحظات .. عرف (فاجنوتسى) التعس خلالها ، وهو واقف على السلم بجانب امرأته ، ما كان من أمرها !

* * *

● وكان شحوب (جيما) يتزايد ، والدوار يطوح بها ، فاعتمدت بيديها على « الدرابزين » . وفهم زوجها أن الوقت غير مناسب للوم أو لطلب التفسير والإيضاح ، فأعرض عن السيدة (كوسيانو) — التى كانت فى هياجها قد أخذت تسبه هو أيضاً — وأجبر زوجته ، فى غير عنف ولكن بحزم رقيق ، على أن تصعد إلى حجرتها .. وهناك مددها على السرير وهو يخشى أن يتفاقم حالها ، وقد كان هذا ما حدث بالفعل ، فإن هى إلا دقائق حتى كانت قد توهجت بالحمى ، وترنحت حدقتاها ، وفقدت حركاتها وكلماتها كل ترابط .. ودخلت فى مرحلة الهذيان !.. رأت وحشاً طرياً له مخالب حشرة ، يذهب فيختبئ فى الأركان ، أو تحت الأثاث ، أو يسعى على الأرض بوثبات سريعة ويقفز فوق السرير .. وكانت تشير لزوجها نحوه فى رعب ، وترد أغطيتها على جسمها كما لو كان هناك من يريد انتزاعها منها !.. أو تتخذ هيئة غامضة وهى تنطق ، بلهجة الخطورة ، ببضع كلمات مخبولة .. فكان أن أرسل (فاجنوتسى) فى طلب طبيب ، وجلس فى انتظاره عند وسادة زوجته ..

* * *

● وخلال مرض (جيما) الذى استمر أكثر من أسبوع ، حدثت

لها جميع المضاعفات التى يخشى منها فى مثل حالتها !.. لكن زوجها لم يبرح حجرتها ، بل كان يقضى فيها الليل بأكمله ، فاتسع له المجال للتفكير فى هدوء فيما يقع من أحداث .. فإذا شعوره الأول بالدهشة البالغة لخيانة زوجته ، قد أخلى مكانه لشعور غامر بالاستنكار !.. ثم تعمق « الأستاذ » فى تأملاته فى الأيام التالية ، فاسترد قدراً أكبر من طمأنينته .. ولم تكن عبارات مدام (كوسيانو) العاصفة ، وردود (جيما) ، قد أطلعته من الأمر إلا على القليل – باستثناء الواقعة الأساسية – لكنه أدرك أن مما لا طائل تحته ، بل من السخرية المزرية أن يهرع وراء الرومانية ، التى كانت قد نقلت معسكرها فى الحال بعد الالتحام !.. كما أنه آثر ألا يستجوب (جيما) بعد شفائها . وأطال التفكير فيما يجب عليه أن يتخذ من مسلك ، قبل أن يتغلب حبه لزوجته آخر الأمر على خيبة رجائه فيها ، وعلى غضبته .. ورأى أن الصمت بشأن ما وقع هو خير منهج للمستقبل ، واعتبر مغامرة امرأته مع (فيتونى) هفوة شباب ، ينساها هو وجيما فى مدينة أخرى ، وفى جو آخر ، وينتهيان إلى الاعتقاد بأن كل هذا ما وقع يوماً ولا كان !

أما ما بقى من مرارة فى نفسه ، فكان مصدره وجوب التنازل عن الطفل المرغوب ، على الأقل فى الوقت الحاضر !.. لكنه لم يلبث أن جرد فكره من كل حقد ، وما عاد يهتم بغير شفاء زوجته .. فلما استطاعت فى نهاية خمسة عشر يوماً أن تنهض قررا المبادرة بالرحيل .

* * *

● ورحلا ، ذات صباح من شهر يناير ، فى ساعة مبكرة ، وكان الفجر ينشر ضباباً مشبعاً برطوبة الليـل ، والبرد لاذعاً .. ولم تكن المصابيح قد أطفئت بعد فى شارع « الكورسو » الموحش ..

وعندما هبط الأوتوكار الذى كان يحملهما إلى طريق الخندق ، استطاعت (جيما) أن ترى لآخر مرة المدينة الغارقة فى السواد ، تلمع فى قممها بضعة أضـواء واهنة ، تحت سماء انتثرت فيهـا السحب .. وكانت (جيما) تفكر : « بعد نحو ساعة ستصحو (مدام كوسيانو) من نومها ، بشرائط شعرها الورقية ، ووجهها الملطخ بالدهان ، وستذهب فتصنع لنفسها فنجاناً من القهوة فى مطبخها ، وستبدأ أمى أيضاً يومهـا ، وسيرفع محـل الحلوى فى « الكورسو » ستاره الحـديدى ، بضجته المعتادة ، وستدق أجراس الكنائس للقـداس الأول ، أما أنا فلن أرى تلك المرأة (كوسيانو) بعد الآن ، ولن أسكن بعد فى الزقاق ، ولن أسمع الأجراس ! » .

وأشاحت بنظراتها عن المدينة وهى غارقة فى هذه الأفكار ، وكان « الأوتوكار » قد انطلق فى السهل ، فى الطريق إلى المحطة ، التى لاحت مبانيها الصفراء من خلال صفوف من الأشجار .. كما لاح أيضاً ، ووراء حاجز الدخان الأبيض لقطار يتحرك ، مغـادراً تلك المدينة الصغيرة .. من مدن الأقاليم !

[تمت القصـة]



عزيزى القارئ ..

فى هذا الكتاب الذى بين يديك ، يسرنى أن أقدم لك ترجمة روايتين من أشهر أعمال كاتب إيطاليا المعاصر الأشهر « ألبرتو مورافيا » :

الرواية الأولى هى « أجوستينو » أو « الخطيئة الأولى » ، التى اعتبرت أحسن رواية إيطالية فى عام ١٩٤٥ ، وما زالت تعد إلى اليوم من أكمل روايات مورافيا وأعظم أعماله الأدبية نضوجاً ، إذ يرى النقاد أنها أروع رواية من روايات الادب العالمى الحديث تناولت - بصراحة كاملة - ظواهر التطور ويقظة الرجولة فى نفس الفتى « المراهق » الذى أطلق عليه المؤلف إسم « أجوستينو » AGOSTINO .. وقد كتبها مورافيا عام ١٩٤٢ واستغرقت منه كتابتها أكثر من عام !

أما الرواية الثانية التى يضمها هذا الكتاب الذى بين يديك ، فهى رواية (فتاة من الأقاليم) LA PROVINCIALE التى كتبها مورافيا عام ١٩٣٧ ، وهى من لون مغاير تماماً للأولى : فبينما تعتمد « أجوستينو » على « التحليل النفسى » أولا وأخيرا ، تعتمد الثانية على الحركة والحوادث المتلاحقة ، فبطلتها فتاة ذات حيوية وطموح ، تضيق آمالها بالحياة الراكدة الرتيبة التى تفرضها عليها بيئة « الأقاليم » ، وتتمرد أحلامها على قيود الفقر والظروف المتواضعة التى تحيط بها ، فتحلم بالثراء ، والزواج من شاب مترف ، والانتقال إلى العاصمة .. و .. و .. إلى آخر قائمة أحلامها !



فإلى أين تقودها هذه الآمال والأحلام ؟ هل تطير بها إلى سماء الخيال ، فتنعم بما طالما تاقت إليه ؟ أم تهوى بها من حالق ، إلى قاع الحقيقة ، فتسقط مهشمة العظام ، محطمة النفس ؟

هذا ما نعرفه خلال قراءتنا لهذه الرواية الممتعة ، التى جسدتها على شاشة السينما النجمة الإيطالية العالمية « جينا لولو بريجيدا » .

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

١٥٠ قرشًا